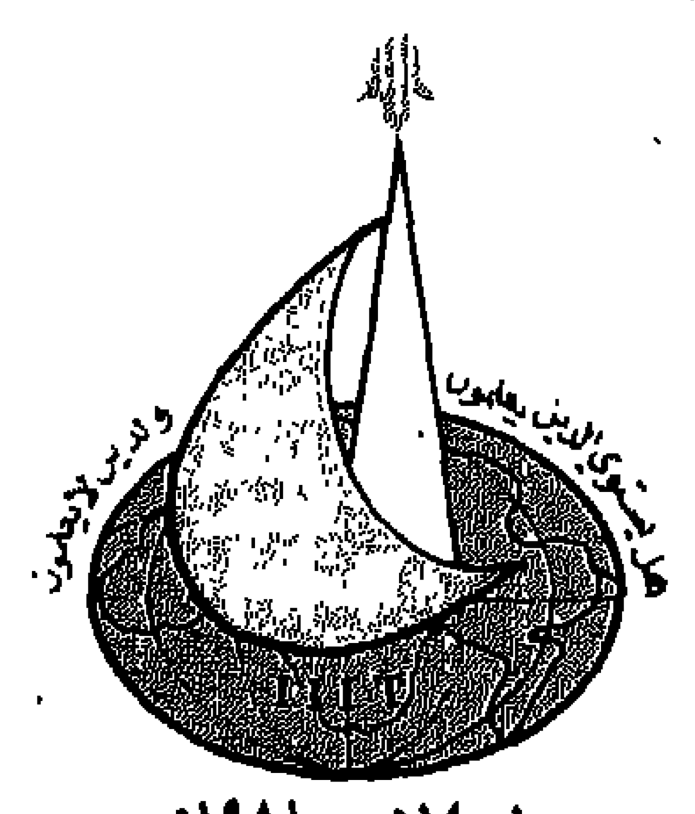




المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مشروع العلاقات الدولية في الإسلام (١٠)

العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي

الجزء العاشر

العصر المملوكي

من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية

نادية محمود مصطفى

المشرف العام ورئيس الفريق

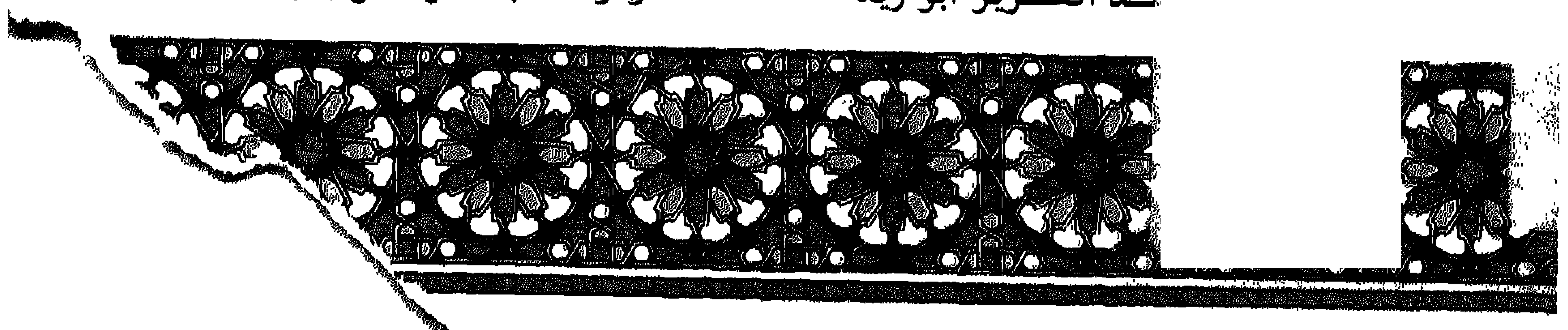
الباحثـــــــون

ـبد الونيس شتا — مصطفى محمود منجود

عبد الفتاح إسماعيل — نادية محمود مصطفى

العـزيز صـقـر — نصر محمد عارف

ـد العزيز أبو زيد — ودودة عبد الرحمن بدران



المشرف العام ورئيس الفريق

١ - أ. د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

الباحثون

٢ - أ. د. أحمد عبد الونيس شتا

أستاذ مساعد القانون الدولي العام

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٣ - أ. د. سيف الدين عبد الفتاح اسماعيل

أستاذ مساعد النظرية السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٤ - د. عبد العزيز صقر

دكتوراه في العلوم السياسية

جامعة الاسكندرية

٥ - أ. د. علا عبد العزيز ابو زيد

أستاذ مساعد العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٦ - أ. د. مصطفى محمود منجود

أستاذ مساعد الفكر السياسي

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٧ - أ. د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٨ - د. نصر محمد عارف

مدرس العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٩ - أ. د. ودودة عبد الرحمن بدران

أستاذ العلاقات الدولية ووكيل

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

المستشارون

١٠ - أ. د. حورية توفيق مجاهد

أستاذ الفكر السياسي ورئيس قسم العلوم السياسية الأسبق كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

١١ - أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ التاريخ - كلية الآداب

جامعة القاهرة

١٢ - أ. د. عبد الحميد أبو سليمان

أستاذ العلاقات الدولية ورئيس

الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

١٣ - أ. د. علي جمعه محمد

أستاذ أصول الفقه - كلية الدراسات العربية والإسلامية - جامعة الأزهر

المساعدون

١٤ - أ. ابراهيم البيومي غانم

١٥ - أ. إحسان سيد عبد العظيم

١٦ - أ. احمد عبد السلام

١٧ - أ. تهاني عبلان

١٨ - أ. حامد عبد الماجد قويسي

١٩ - أ. طارق السعيد

٢٠ - أ. عبد السلام نوير

٢١ - أ. مجدى محمد عيسى

٢٢ - أ. محمد عاشور مهدى

٢٣ - أ. محي الدين محمد قاسم

٢٤ - أ. فوزى خليل

٢٥ - أ. ناهد عرنوس

٢٦ - أ. هاشم طه

٢٧ - أ. هبه رؤوف عزت

٢٨ - أ. هشام جعفر

---

١ - حسب ترتيب الحروف الهجائية .

العصر المملوكي

من تصفية الوجود الصليبي
إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية

الطبعة الأولى

(١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م)



العصر المملوكي

من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية

(٦٤٢ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٨ - ١٥١٧م)

نادية محمود مصطفى

القاهرة

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

(مشروع العلاقات الدولية :١٠)

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
٢٦ ب - ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج.م.ع.

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المعهد بالقاهرة .

مصطفى ، نادية محمود .

العصر المملوكي : من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية .... / نادية محمود مصطفى . - ط١. - القاهرة : المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦

ص . سم . - (مشروع العلاقات الدولية :١٠)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية .

تدمك . -٧- ٤٧ - ٥٢٢٤ - ٩٧٧.

١ - دولة المماليك - العلاقات الخارجية . .

أ - العنوان .   ب - (السلسلة)

رقم التصنيف ٣٢٧ .

رقم الإيداع ٧٢٢٧ / ١٩٩٦ .

المحتويات

المقدمة

١ – كان سقوط الخلافة العباسية فى بغداد علامة تحول جذرى فى هيكل توزيع القوى الإسلامية ومن ثم فى التفاعلات الإسلامية المسيحية فى ظل ما عُرِف بالعصر المملوكي. ومن ثم وبقدر مايعد تحديد الفاعل المركزى الإسلامى ضرورة منهجية فى التحليل النظمى للعلاقات الدولية بقدر مايلزم أيضا تحديد الأنساق الفرعية الإسلامية للتفاعلات وموضوعات وقضايا هذه التفاعلات وأهم العوامل البيئية الدولية وهى المتصلة أساسا بالطرف غير المسلم مبعث التحدى والتهديد لهذه الأنساق.

أ– لقد تمتعت مصر فى عصر المماليك بمنزلة دولية ممتازة وكانت مركزا للعالم الإسلامى . ومن ثم فوفقا لمعايير عناصر القوة من ناحية أو معايير ممارسة النفوذ من ناحية أخرى كانت الدولة المملوكية ولمدة ثلاثة قرون تقريبا الفاعل المركزى فى التفاعلات الإسلامية الدولية فيما بين الفواعل الإسلامية وفيما بينهم وبين الفواعل غير المسلمة . فإذا كانت عناصر القدرة الاقتصادية للدولة المملوكية قد استندت إلى نصيب كبير من التجارة العالمية [(١)]، وإذا كانت عناصر القدرة العسكرية قد أبرزت ماكان للجيش المملوكي من فعاليات ، فان عناصر القدرة المملوكية تمثلت فى الشبكة الممتدة والمتفرعة من العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الدولة المملوكية وأطراف دولية مختلفة فى الشرق الإسلامى وفى الغرب الإسلامى وفى الشمال مع الروم والأفرنج [(٢)]. كما تمثلت أهم عناصر القدرة السياسية فى وجود مركز الخلافة الإسلامية فى مصر وامتداد نفوذ المماليك فى مصر والشام إلى الحجاز حيث كان المماليك يقلدون الشريفية لامرائها ، كما أن ملوك المسلمين الأقوياء فى أرجاء المعمورة الإسلامية ، وان كانوا لم يدخلوا مباشرة فى دائرة نفوذ وهيمنة الدولة المملوكية (مثل امراء آل عثمان وأمراء الهند المسلمين) ، الا انهم كانوا يلتمسون التقليد والتفويض بالحكم على رعاياهم من الخليفة العباسى فى مصر .

---

١ – د . فاروق عثمان أباظة :أثر تحول طرق التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح علي مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن ١٦م ، دار المعارف –القاهرة ١٩٨٤ .

٢ – أنظر اشارة إلي هذه العلاقات وما ارتبط بها من ملابسات ومكاتبات في الموسوعة التي تعد مصدرا لنوع خاص من تاريخ الدولة المملوكية من داخلها وفي تفاعلاتها مع الأطراف الأخري :

– أبي العباس أحمد القلقشندي :صبح الأعشي في صناعة الإنشا ، مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٤٠هـ – ١٩٢٢م (١٤ جزء) .

وأنظر بصفة خاصة المقال الرابع (الباب الثانى) ، والمقالة التاسعة (أبوابها الخمسة) .

وأنظر تحليلا لمضمون هذا الكتاب في :

محمود عنان :مؤرخو مصر الإسلامية في القرن ١٥ م .

بعبارة أخرى فإن مركز الخلافة الإسلامية ، وان كان قد انتقل عبر القرون الستة الهجرية الأولى، مع مركز القوة الإسلامية حيث انتقل من المدينة إلى الكوفة ثم دمشق ثم بغداد فإنه وصل فى منتصف القرن السابع الهجرى إلى مصر التى أضحت هى والشام فى ظل الدولة المملوكية مركزالقوة السياسية والاقتصادية والعسكرية فى العالم الإسلامى طوال العصر المملوكى . ومع ذلك فإن مركز الخلافة الجديد لم يكن مهيمنا على كل أرجاء دار الإسلام .ومن ثم فان العلاقة بين الدولة المملوكية- كمركز للخلافة الإسلامية -وبين الفواعل الأخرى التى برزت فاعليتها فى دار الإسلام ، وبينها وبين الفواعل غير المسلمة (سواء على ساحة أرجاء العالم الإسلامى أو فى صورة مباشرة) تبعث على الاهتمام الخاص من زاويتين : من ناحية لدراسة أنماط التفاعلات المقترنة بها ومن ناحية اخرى لاستكشاف طبيعة ودرجة الإختلاف بين الأنماط المناظرة من التفاعلات فى ظل الخلافتين السابقتين (الأموية والعباسية) اللتين عرفتا درجة أقل من اللامركزية أو التعددية السياسية الإسلامية .

ولقد عكست هذه التفاعلات اختلافا فى طبيعة ودرجة التعددية فى عصور هذه الخلافات المتعاقبة ، كما تختلف أيضا عن التعددية فى العصر العثمانى .كما عكست من ناحية أخرى نمطا متطورا من العلاقات بين دار الحرب ودار الإسلام من حيث طبيعة الفواعل الدولية غير المسلمة ومن ثم موضوعات وقضايا التفاعل مع هذه الفواعل [٣] . ماهى اذن الأنساق الفرعية الإسلامية ؟ وأهم الفواعل الدولية غير المسلمة ؟

ب - من أهم الأنساق الفرعية التى سنركز على تفاعلاتها (عدا المملوكية) الامارة ثم الدولة العثمانية ، دويلات الأندلس وشمال أفريقيا ، دول المغول (بعد اسلامهم) والتى امتدت من آسيا الصغرى إلى ايران وحتى الأناضول .

وبقدر ماتمثل هذه الأنساق تطورا فى حالة أنساق ظهرت من قبل بقدر ماتعكس معطيات جديدة أيضا ، فامارة ثم دولة عثمان تقدم حلقة جديدة من حلقات دور الاتراك (بعد دور الأتراك السلاجقة فى العصر العباسى) . ومن ثم وبعد أن ظل العرب يقودون المواجهة مع الغرب بدأ يظهر تدريجيا - بعد الدورالسلجوقى - الدور العثمانى الذى بدأ فى الأناضول المسلمة التى كانت فاصلا بين الروم والمسلمين . كذلك فان دويلات الاندلس - حتى سقوط غرناطة - ودويلات شمال أفريقيا - وحتى السعديين والزيانين - تمثل التفاعلات المتداخلة فيما بينهم وبين الممالك الافرنجية الحلقة الأخيرة من حلقات الوجود العربى الإسلامى فى الاندلس والحلقة الانتقالية بين تجزئة شمال أفريقيا وبين توحدها تحت الهيمنة العثمانية بعد ذلك . أما المنطقة وراء الحدود

---

٣ - أنظر خاتمة هذا الجزء من المشروع .

الشـرقـيـة لايران فلم تكن تمثل منذ الفـتح الإسـلامى والقـضـاء على الامـبـراطورية الفـارسـيـة أى تهـديد للاسـلام ، ولكن مع الغـزو المغـولى ظـهر هذا التـهـديد ودخل طرف جـديد (وثنى فـى البـداية ثم مـسلم) دائرة التـفـاعـلات الإسـلامـية – الإسـلامـيـة ، والإسلامية – المسيحية .

هذا ولقد كان لكل من هذه الأنساق تفاعلاتها المباشرة مع أطراف أوروبية وكذلك تفاعلاتها مع الدولة المملوكية ولقد تداخلت معا جميع هذه التفاعلات. ومما لاشك فيه أنه كان لحالة كل من هذه الأنساق الفرعية والتفاعلات بينها وبين الدولة المملوكيـة (مثلا :المملوكية العثمانية ، المملوكية الاندلسية ، المغولية المملوكية، المغولية العثمانية) تأثيرها على الحالة العامة للنظام الدولى الإسلامى وخاصة هيكل توزيع القوة ، أى انتقاله من نمط أحادية القوة (خلال فترة ازدهار القوة المملوكية) إلى ظهـور بوادر الثنائيـة(مع ظهـور ثم نمو الدولة العـثمـانيـة خـلال القـرن ٨هـ) إلى نوع من ثلاثيـة مراكزالقوة (مع ضعف الدولة المملوكية وتأكد تنامى القوة العثمانية وظهور الدولة الصفوية) .

كذلك فانه كان لأنماط التفاعل بين المركز المملوكى وبين هذه الأطراف المسلمة وبين الأطراف الأوروبية مدلولاتها القوية ايضا بالنسـبة لحالة المواجهة مع دار الحرب ، حيث نواجه فى هذه المرحلة ثلاثة أنماط من الحالات :

أولا : نمط الضـعف ثم السـقـوط وهذا مـاحدث فى غرب العـالم الإسـلامى فى الاندلس، ثـم بدأ فى شـرق هـذا العـالم فـى آسـيـا مع مـواجـهـة نمو روسـيـا القـيـصـرية منذ منتـصف القـرن ٨ هـ . وهو الضـعف الذى اكـتمل بعد ذلك وتبلور فى ظل العصر العثمانى حين اكتمل سقوط الامارات الإسلامية فى آسيا الصغرى والقوقاز .

ثانيا : نمط الفتح والنمو الذى قدمته التفاعلات العثمانية – الأوروبية .

ثالثا : نمط التعامل – المقاومة والذى قدمته التفاعلات المملوكية–الأوروبية

هذا وجدير بالذكر أن التطورات فى هذه الأنماط الثلاثة قد تزامنت حتى اكتملت نتـائج كل منهـا مع قـرب انتـهـاء العـصـر المملوكى . فـفى حين كـانت حلقـات الضـعف والانحدار عبر القرون الثلاثة لهذا العصر تكتمل فى الأندلس وتتشكل قواعدها فى آسيا (الصغرى والغربية) كانت حلقات الاحياء والنمو تكتمل أيضا فى نسق فرعى آخر (الأناضـول وشـرق أوروبا) وفى نفس الوقت كـانت السـاحـة العـربيـة تشـهـد فى آخرهذا العصر الانتقال من النفوذ المملوكى إلى العثمانى .

وبقدر ماتبين نتائج تطورات كل من هذه الأنماط ديناميكية انتقال مركز القوة فى العالم الإسلامى بقدر ما تبين التطور فى ساحات وقضايا المواجهة مع الأطراف الأوروبية.

ج – ولقد حدث تطور فى طبيعة الأطراف الأوروبية مصدر التهديد للاسلام ومن ثم حدث تطور فى ساحات وقضايا المواجهة . ولقد نتج عن هذا التطور غياب بعض هذه الأطراف وظهور البعض الآخر . فنجد أن الدولة البيزنطية ، التى ظلت طوال عدة قرون تمثل الحصن الذى توقفت عنده الموجة الأولى من الفتوح الإسلامية ، نجد أنها كانت تمر بفترة الاحتضار . وفى المقابل وفى أقصى الغرب ومن بين الممالك الأفرنجية اللاتينية تبلور ظهور مملكتى أرجون وقشتالة ثم أسبانيا والبرتغال بعد ذلك وهما اللتان توجا تفاعلاتهما المتوسطية مع المماليك ودويلات شمال أفريقيا بالهجوم والالتفاف حول العالم الإسلامى ، كما تزامن فى نفس الوقت ظهور امارة موسكو نواة روسيا القيصرية .

بعبارة أخرى وبقدر ماشهد القرن الأول للعصر المملوكى نمو مراكز قوة إسلامية جديدة فلقد شهد القرن الثالث منه نمو مراكز قوة مسيحية جديدة ساهمت فى فتح مساحات جديدة للمواجهة اكتسبت معها هذه المرحلة سمات خاصة انعكست بقوة على أنماط التفاعلات الدولية الإسلامية والمسيحية والتى أضحى محورها إما استرداد أرض مسيحية حكمها الإسلام (الاندلس) أو استقطاع أراضى وثنية فتحها الإسلام (آسيا الوسطى) .

كذلك بدأ يظهر فى هذه المرحلة – وعلى عكس المراحل السابقة – درجة أكبر من تأثير التوازنات الأوروبية – الأوروبية على التفاعلات الإسلامية –المسيحية فى أكثر من نسق فرعى. ومن أهم هذه التوازنات تلك التى قامت بين الروم والافرنج ، أو فيما بين الامارات المسيحية الشرق أوروبية والبلقانية وبين الدولة البيزنطية ، أوفيما بين الممالك الأفرنجية المتوسطية . هذا وتجدر الاشارة إلى أن تأثير هذه التوازنات قد تجسد فى مناطق المواجهة المباشرة حول أطراف العالم الإسلامى وذلك على عكس المرحلة التالية (أى العصر العثمانى) حيث تطورت هذه التوازنات فى ظل التطور فى طبيعة الاطراف الأوربية (ظهور الدول القومية ، والامبراطوريات الاستعمارية فى ظل تطور القوى البحرية والثورة الصناعية) وبحيث امتدت تأثيراتها إلى الهجوم على قلب العالم الإسلامى .

٢ – وهكذا وبالنظر إلى الاشكاليات السابقة حول تحديد الفاعل الإسلامى المركزى ، والفواعل الإسلامية الأخرى ، والأطراف الأوروبية والانعكاسات على ساحات

وموضوعات المواجهة يمكن القول إن التفاعلات الدولية فى القرون الثلاثة للعصر المملوكي انما تكتسب عدة سمات من ناحية هى تبرز دور عناصر متنوعة تركية ومغولية على تطور ودور الدولة الإسلامية فى النظام الدولى وذلك فى ظل بداية مايعده البعض (٤) العصر الثانى من التوسع الإسلامى والذى اكتمل فى القرن ١٠ هـ – ١٦ م حين وصلت القوة العثمانية إلى مرحلة الهيمنة العالمية ، وفى ظل مايعتبره البعض (٥) انتهاءً للجهاد الدائم فى التفاعلات المملوكية .

ومن ثم فان دراسة التفاعلات فى هذه المرحلة – فى ظل المقابلة بين نمط الفتح العثمانى ونمط التعامل – المقاومة المملوكى ونمط الاسترداد المسيحى ليوضح لنا حدود دور الفاعل المركزى الإسلامى فى ظل افتقاده لوضع الخلافة العالمية أى الخلافة التى تمد نفوذها لكافة أرجاء العالم الإسلامى القائم. وهذه الحدود ، وإن لم تنشأ نظرا لظهور مراكز قوة اسلامية أخرى ، إلا أن تفاعلات هذه المراكز كانت مكملة لتفاعلات الفاعل المركزى فى خدمة الإسلام فى مواجهه الغرب ، وان بدت المصالح الآنية متناقضة أو متصارعة فى بعض الأحيان (المملوكية والعثمانية) أو بدت هذه التفاعلات غير قادرة فى أحيان أخرى على منع الاسترداد أو الاستقطاع . هذا وتقترن أهمية هذا الجانب من المقابلة بين هذه الأنماط بجانب آخر من المقابلة بين مقولتين :تلك التى تقول إن العالم الإسلامى خلال مايُسمى "العصور الوسطى "والتى يقع فى معظمها العصر المملوكى قد مر بمرحلة قوة عسكرية وليس قوة فكرية أو حضارية مثل التى شهدها من قبل وذلك بسبب الآثار المدمرة للهجمة المغولية والتى أدت إلى الضعف النسبى الحضارة الإسلامية بالمقارنة بالنمو الذى دخلته الحضارة الأوروبية المسيحية بعد ذلك(٦). والمقولة الأخرى (٧) ترى أن التدهور الذى عرفه الشرق الإسلامى منذ القرن ١٣ الميلادى لم يكن عاما أوشاملا ولكن فى مناطق دون أخرى وهو الأمر الذى تبرزه المقارنه بين مراحل التطور السياسى ومراحل التطور الفكرى والحضارى لهذه المناطق .

---

٤ – برنارد لويس " :السياسة والحرب في الاسلام "في :شاخت وبوزورث ، تراث الإسلام ، ترجمة محمد زهير ، عالم المعرفة ، أغسطس ١٩٧٨ .

– حسين مؤنس :الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ط٢، ١٩٣٨، ص ص١١-١٧ .

– محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٢٩ .

John Joseph Saunders (ed.) , The Muslim World on The Eve of Europe an Expansion. Prentice Hall, N. J. 1966 . p 200 .

٥ – P. M. Holt : The Age of The Crussads . ch. 18 .

٦– E.Mortimer,Faith and Power : The Politics of Islam , pp 80 - 83

٧ – M.G.Hodgsoa , The Venture of Islam , University of Chicago Press ,Chicago 1971 , Vol II , pp 371 - 373 .

وانظر أيضا :

– ف . بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، ط ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ ، الفصل السادس .

ولكن كيف يمكن اذن أن نحدد خطوات التحليل التي توضح لنا أنماط التفاعلات المتداخلة التي تبرز في مجموعها أنماط التفاعلات الكبرى الإسلامية - المسيحية الثلاثة :التعامل- المقاومة ، الفتح - النمو الاقليمي ، الاسترداد - الاستقطاع ؟ . سينقسم التحليل فى هذا الباب بين أربعة فصول ومعيار هذا التقسيم هو أهم نقاط التطور فى التفاعلات الإسلامية - المسيحية ، والإسلامية - الإسلامية على المحاور الجغرافية السياسية المختلفة . فإذا كان الفصل الأول يدور حول الدور المملوكي فى التصدى للمغول وتصفية الوجود الصليبي وذلك فى المرحلة التي تم بها ارساء قواعد النظام المملوكي الجديد ، فان الفصل الثاني يدور حول سمات العلاقات المملوكية الأوروبية السلمية والصدامية فى نفس الوقت الذى بدأ فيه مولد الدولة العثمانية وبداية فتوحاتها الأوروبية (القرن الثامن الهجرى) .

أما الفصل الثالث فيبدأ من نقطة تحول مركزية في العلاقات الدولية فى هذه الفترة أى الهجمة المغولية الثانية على قلب العالم الإسلامي والتى أثرت بقوة على توزيع القوى الإسلامية طوال القرن التاسع الهجرى وذلك فى نفس الوقت الذى كانت تتصاعد فيه عمليات الاسترداد فى الأندلس (التى تمت بسقوط غرناطة) كما كانت تتصاعد فيه الهجمة الأوروبية على الدولة المملوكية كما بدأت فيه عملية الاستقطاع فى آسيا بواسطة امارة موسكو الوليدة . وأخيرا يأتى الفصل الرابع فيبين السقوط المملوكي والتفاعلات العثمانية -المملوكية - الصفوية التى أحاطته وذلك فى ظل بداية التحرك العثماني نحو الجنوب وبداية خطوات الهيمنة العثمانية العالمية على حساب مراكز القوى الإسلامية الأخرى وفى مواجهة التطور الخطير الذى أخذته الهجمة الأوروبية الثانية على العالم الإسلامي . هذا ويجدر الاشارة إلى بعض الملاحظات التوضيحية المشتركة بين هذه الفصول الأربعة :

فمن ناحية يدور التحليل من خلال منظار الفاعل المركزى أى الدولة المملوكية، ومن ثم فإن التركيز سيكون على بعدين ، التفاعلات المملوكية-الأوروبية المباشرة والتفاعلات المملوكية - الأوروبية غير المباشرة أى حول الأنساق الفرعية الإسلامية السابق توضيحها وعلى النحو الذى يبرز وزن وتأثير المتغير الأوروبى على التفاعلات بين المركز الإسلامي والأنساق الفرعية. ومن ثم فالتعرض لتفاعلات هذه الأنساق مع الأطراف الأوروبية ليس غاية فى حد ذاته ولكنه سيتم بالقدر الذى يبين أثر هذا المتغير الأوروبى على العلاقات الإسلامية - الإسلامية مع الأخذ فى الاعتبار أيضا أن دراسة هذه العلاقات ليست هى الغاية فى حد ذاتها ومن ثم لن يثور الاهتمام بأنماطها الا بقدر تداخلها وتفاعلها مع تأثير أطراف اوربية . وبالرغم من الاعتراف بأن ذلك الأسلوب يتسق وخصائص اطار التحليل النظمى للمادة التاريخية [٨] الا أنه نظرا لأهمية

٨ - انظر الباب الأول : المدخل المنهاجي .

التفاعلات الدولية لبعض الأنساق الدولية نظرا لوقوعها فى قلب التفاعلات الإسلامية - المسيحية فى هذه المرحلة فلا يمكن اعتبارها مجرد موضوع للتفاعلات المملوكية - الأوروبية ويصدق هذا على الدولة العثمانية والأندلس ولايصدق على الامارات المسلمة فى الهند أو وسط آسيا أو الزيلع فى أفريقيا ، فإن أنماط تفاعلات هذه الأطراف المسلمة (العثمانية /الأندلسية) مع الأطراف الأوروبية تقتضى أهتماما خاصا بها يختلف عن نمط الاهتمام بتفاعلات الأطراف الأخرى المسلمة التى ستكون موضوعا للتفاعلات بين الأطراف المركزية المسلمة والأطراف الأوروبية . فعلى سبيل المثال فإن دول آسيا المسلمة (عدا فارس) لم يكن لها منذ القرن ١٠ هـ - ١٦م وفقا لبعض المصادر [٩] وزن فاعل فى التفاعلات الدولية . وبالمثل وبالرغم من أن الهند قد شهدت امارات مسلمة تزامنت مع مماليك مصر لدرجة الحديث عن أوجه الشبه بين سلاطين دولة المماليك الأتراك فى الهند وبين دولة المماليك الأولى فى مصر[١٠]، وبالرغم من تأثرها بالهجمة المغولية الأولى إلا أن وزنها فى التفاعلات الإسلامية - الأوروبية لم يبدأ إلا خلال الثلث الأخير من العصر المملوكى حين وصل الوجود الأوروبى إلى المحيط الهندى ، وذلك فى الوقت التى تشكلت فيه علاقات القوى بين الكيانات الإسلامية فى شبه القارة الهندية على نحو أفسح السبيل لظهور القوى المغولية فى الهند . بعبارة أخرى فانه بالرغم من تعدد الأنساق الفرعية الإسلامية فان قدر تناولها فى الفصول الأربعة انما يختلف باختلاف الوزن النسبى لدورها فى التفاعلات الإسلامية - المسيحية الدولية .

ومن ناحية أخرى يلاحظ عدم التطابق الزمنى الكامل بين التطورات الأساسية فى الأنساق الفرعية الدولية فى كل فصل وبين الفصول الأربعة على النحو الذى يجعل تقسيمات هذه التطورات بين هذه الفصول لايقوم على تقسيمات زمنية حاسمة بقدر ما يمثل تقسيمات تحليلية ، فعلى سبيل المثال اذا كان الفصل الأول يبدأ من ٦٥٦ هـ - ١٢٥٦م وينتهى بسقوط عكا ٦٩٩ هـ - ١٢٩١م فهذا التاريخ لايمثل تاريخا حاسما فى تطور العلائق المغولية بقدر ما يمثل علامة حاسمة فى تصفية الوجود الصليبى فى الشام . وبالمثل فإن الفصل الثانى يتوقف عند تواريخ زمنية مختلفة باختلاف الأنساق الفرعية الإسلامية التى تدخل فى نطاقه (٧٨٤م سقوط المماليك البرجية ، ٧٩٥ م دخول تيمور لنك بغداد ، ٧٩٢م احكام العثمانيين على أسيا الصغرى والبلقان) وجميع

٩- B. Spuler , " Central Asia from The 16th Century to the Russian conquests" , in :- P. M. Holt et. al . , The Cambridge History of Islam Vol.1; The Central Islamic Lands , Cambridge University Press, 1970 , pp. 468 - 460 .

١٠- د. مختار العبادي ، "دولة سلاطين المماليك الاتراك في الهند " المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤ - ١٩٦٥ ، ص ص ١١٩ - ١٢٧ .

هذه الأحداث ليست الا تمهيدا للمرحلة الفرعية التالية التى شهدت نواتج هذه الأحداث وخاصة عواقب الهجمة التيمورية • وبالمثل فان الفصل الأخير يتضمن تفاعلات تحولية هامة شغلت العقدين الأخيرين من القرن ٩هـ والعقدين الأولين من القرن ١٠هـ • ويعبارة أخرى المعيار الأساسى فى هذه التقسيمات التحليلية إلى فصول أربعة هو: اتجاهات التطور الكبرى فى كل مرحلة والتى هى محصلة التطورات فى الأنساق الفرعية المختلفة خلال هذه المرحلة والتى قد لاتتطابق تماما بداياتها مع نهاياتها ، وتصدق نفس الملاحظة على الباب الرابع أيضا •

الفصل الأول

الدور المملوكي وتصفية الوجود الصليبى للمغول :
إرساء أركان مركزية الدور المملوكى فى
التفاعلات الإسلامية - الغير إسلامية

الفصل الأول

الدور المملوكي وتصفية الوجود الصليبي للمغول : إرساء أركان مركزية الدور المملوكى فى

التفاعلات الإسلامية - الغير إسلامية

مـقدمـة :

كان الغزو المغولى لحاضرة الخلافة الإسلامية فى بغداد وسقوطها ٦٥٦هـ نقطة تحول هامة فى توزيع القوى الإسلامية فى نظام التفاعلات الدولية .. ولقد جرت عملية التحول خلال العقود الأخيرة من القرن ٧ هـ حتى اتضحت ملامح نظام جديد للفواعل الإسلامية . ففى الوقت الذى بدأ فيه ظهور وتدعيم قوة وسلطةالمماليك فى مصر والشام من خلال تصديهم للغزو المغولى ودأبهم على تصفية الامارات الصليبية فى الشام ، كانت السمة العامة لهذه المرحلة ، أى معظم النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (١٣م) ، هى التفتيت والتجزئة التى غلبت على حالة الأنساق الفرعية الإسلامية :ففى آسيا الصغرى كانت الامارات التركية المتعددة وريثة الدولة السلجوقية . وفى الاندلس وبعد انتهاء عصر كفاح المرابطين ثم الموحدين بدأ تدهور دولة الموحدين وتزايد الهجمات الأفرنجية على دولة الاندلس .كما حدث انقسام امبراطورية جنكيز خان وهولاكو إلى أربعة دول أو أسر (فى شرق آسيا ، وفى وسط آسيا ، وفى فارس الايلخانية ، وفى الغرب القبيلة الذهبية) ودخلت منهم الأسرتان الثالثة والرابعة فى الإسلام . ولكن ومع قرب نهاية هذا القرن، وبعد أن كان الإسلام عند منتصفه بين فكى رحى الصليبين والمغول أخذت تتضح ملامح نظام جديد للعلاقات . فمع اتمام تصفية الامارات الصليبية فى الشام بسقوط عكا ٦٨٨ هـ - ١٢٩١ بدأ دخول دولة المغول فى فارس (الايلخانية) إلى الإسلام والذى كانت قد سبقتها اليه القبيلة الذهبية، ولقد لعبت الدولتان دورا ملحوظا فى التفاعلات الدولية بعد ذلك . كذلك بدأ ظهور العثمانيين مع تحرك أبو عثمان نحو الأناضول ، ومن ناحية أخرى سقطت دولة الموحدين (٦٦٨هـ) وبدأ دور غرناطة فى التفاعلات الإسلامية - الافرنجية . ومن بين جميع هذه الملامح كان الدور المركزى والأساسى فى التفاعلات الدولية فى هذه المرحلة هو دور المماليك فى مواجهة المغول والصليبين ولقد أفرز هذا الدور نمطاً متميزاً من العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين .

ومن ثم ينصب هذا الفصل على دراسة أبعاد هذه التفاعلات التى أرست محورية الدور المملوكى فى التفاعلات الإسلامية طيلة القرنين الثامن والتاسع الهجرى .

ونقطة البداية فى هذه الدراسة هى تحديد أهم العوامل المؤثرة على بداية هذه المرحلة وهى العامل المغولى حتى يمكن الانتقال بعد ذلك إلى تحليل معضلة العلاقات المملوكية الصليبية المغولية التى أفرزت أنماط من التفاعلات بين مركز القوة الإسلامية ومصدرى الخطر على الإسلام فى هذه المرحلة التحويلية ٠

المبحث الأول : الطرف المغولي : مصادر التهديد والفرص وآثارها على الدول الإسلامية :

قبل سقوط بغداد بنحو ٥٠عاما بدأ المغول تحركهم من شرق آسيا ومنذ هذا التحرك وبعد هذا السقوط أضحى العامل المغولى من أهم المؤثرات الخارجية على مصيرالعالم الإسلامى لفترة ممتدة حتى بعد دخول المغول الإسلام ٠ فإذا كانت الهجمة المغولية الوثنية (فى بدايتها) قد مثلت أول تهديد على قلب العامل الإسلامى بعد أن أدمجت آسيا الصغرى وفارس وروسيا وأوروبا الشرقية والاناضول والعراق فى امبراطورية وثنية [١] ، إلا أن التطور فى طبيعة المهاجمين (الدخول فى الاسلام) والنتائج المترتبة على هجمتهم ومابعدها ، وخاصة من حيث تفاعلاتهم قبل وبعد اسلامهم مع المماليك ومع أطراف مسيحية وتكوين عدة دول ، قد أثرت على أوضاع اقليمية ومحلية عديدة وعلى الروابط بين أنساق فرعية اسلامية مختلفة وعلى العلاقات بينها وبين أطراف مسيحية هذا ويرتبط فهم تأثير هذا العامل بفهم طبيعة هذا العامل فى حد ذاته وهذا الفهم ضرورى لأنه يمكننا كما يقول البعض [٢]من ازالة كثير من الغموض والنقص بل والقصور والتجاهل الذى أحاط بالتأثير المغولى والذى تقلص إلى مجرد الحديث عن الأثر المدمر فى أبعاد تأثيرات متعددة المستويات ومتعاقبة المراحل ٠ فما هى طبيعة هذا العامل وكيف مارس تأثيره وماطبيعة هذا التأثير وخاصة من حيث مدلولاته بالنسبة للعلاقات الدولية الإسلامية؟

المطلب الأول : طبيعة ومكونات الطرف المغولى :

ليس القصد من هذه الجزئية التأريخ لتطور التحرك المغولى من أقصى شرق آسيا مع جنكيز خان قبل٥٠ عاما من الهجوم على بغداد ولكن التوقف عند صورته منذ هذا الهجوم على بغداد . فبعد ١٢٦٠م وبعد عين جالوت حدثت خلافات عميقة خطرة على وحدة الامبراطورية المغولية التى تكونت على يد جنكيزخان وأبنائه ومن ثم توزعت هذه الامبراطورية إلى أربعة أجزاء :مغول ايران (الايلخانيون) ، مغول القبيلة الذهبية فى

١) برنارد لويس :مرجع سابق ٠ ص ٢٣٨ ٠

٢) محمود شاكر :التاريخ الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ٠ ط٢ ٠ ١٤٠٧هـ /١٩٨٧ م ، ج٤ ، ص ص١٣١ – ١٣٤ ٠

الشمال والتي تركزت في حوض الفولجا جنوب روسيا ، مغول آسيا الصغرى (مملكة جغطاى)، ثم أخيرا مغول الصين في أقصى الشرق • ويهمنا بصفة خاصة أمر الثلاثة الأوائل حيث لعب كل منهم دوره في العلاقات المملوكية - المغولية ، أو المملوكية الصليبية في الشام أو المملوكية الافرنجية • ولقد تباين تأثير كل من هذه الأطراف المغولية الثلاثة على هذه العلاقات نظرا لاختلاف درجة وتوقيت انتشار الإسلام بينها ونظرا لطبيعة العلائق فيما بينهم •

ويكفى هنا دون الدخول في تفاصيل تطور انتشار الإسلام بين هذه الأجنحة الثلاثة أو تطور العلائق بينها [٣] التذكرة بالأمور التالية :

١ - مع بداية القرن١٤م وبالتحديد منذ العقد الأخير للقرن ١٣م كانت الايلخانية والقبيلة الذهبية قد تحولت إلى الإسلام وكانت الثانية أسبق من الأولى في التحول وخاصة تحت تأثير حاكمهم الشهير بركة خان (١٢٥٦م -١٢٦٧م /٦٥٢هـ - ٦٦٥هـ) وتلاهما مغول آسيا الصغرى في الدخول إلى الإسلام •

٢ - لعبت القبيلة الذهبية دورا مزدوج الأبعاد في العلاقات الدولية الإسلامية في هذه المرحلة • فهي التي فتحت أراضي روسيا (٦٣٣هـ - ٦٣٥ هـ) أي خلال العقدين الثالث والرابع من القرن ١٣م ، ومن ثم كان لها تأثيرها على جذور تفاعل روسيا الحديثة بعد نشأتها مع الإسلام• فمع دخول القبيلة الذهبية إلى الإسلام في أواخر القرن ١٣م تكونت كدولة اسلامية تضم عدة امارات وتسيطر على الامارات المسيحية الروسية وعلى أوروبا الشرقية (من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ومن شبه جزيرة القرم وعلى طول حوض الفولجا وحتى وصلت إلى حدود مملكة النمسا وهددت مملكة ألمانيا) ولقد أضحت هذه المناطق - بعد ضعف وتفرق القبيلة الذهبية عواصم لخانات مسلمة مستقلة والتي دخلت بعضها في مجال التنافسات العثمانية الروسية منذ القرن السابع عشر (كما سنرى) .

ومن ناحية أخرى ساعدت القبيلة الذهبية المماليك في صدامهم الصريح مع الايلخانين نظرا للعداء بين بركة خان زعيم القبيلة الذهبية وهولاكو ثم أباقة خان

---

٣) أنظر التفاصيل في :

- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ١٣٥ - ١٧٧ •

- د• رجب محمد عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦ •

- برتولد شبولد :العالم الإسلامي في العصر المغولي • ترجمة خالد أسعد عيسى ، مراجعة وتقديم د • سهيل زكار ، دار حسان • دمشق ، ١٤٠٢ - ١٩٨٢ ، ص ص ١٩ - ١٠٤ •

- توماس ارنولد :الدعوة إلى الإسلام • ترجمة د• حسن ابراهيم حسن ، د•عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ص ٢٤٨ - ٢٧٥•

- M. G. Hogdson : op . cit. , pp 410 - 417 .

زعيم مغول فارس كما ساعد بركة خان بيبرس فى حربه مع الامارات الصليبية فى الشام وكان يعادى القوى والممالك الافرنجية.

٣ - مثلت الدولة الايلخانية أى مغول فارس (والتى أسقطت الخلافة فى بغداد) العدو الرئيسى للمماليك ، واستمر الصدام بينهم وتكرر حتى بعد اسلامهم وإن لم يصل إلى معارك حاسمة ومصيرية مثل عين جالوت . كذلك تعاون مغول فارس مع الصليبين ومع الممالك الافرنجية ضد المماليك ولقد انهارت دولتهم بعد أكثر من ثلاثة أرباع قرن من نشأتها .

٤ - أما المملكة المغولية الثالثة فى آسيا الصغرى فكانت الأقل فى التأثير المباشرعلى العلاقات الدولية للعالم الإسلامى إلا فيما يتعلق بحدث جلل وهام وهى أنها كانت موطن تيمور لنك المغولى المسلم الذى أعاد توحيد المملكة بعد تفككها ثم اجتاح العالم الإسلامى مرة أخرى بعد مايزيد عن المائة وخمسين عام من بداية زحف جنكيز خان وأبنائه . وبقدر ماكان للزحفة المغولية الأولى آثارها العميقة المباشرة وطويلة الأجل ، كما سنرى لاحقا ، بقدر ماكان أيضا للزحفةالمغولية الثانية أيضا آثارها العنيفة على توازن القوى الإسلامية وعلى العلاقات الإسلامية المسيحية .

خلاصة القول إن القوى المغولية الثلاث كانت أعداء تتنازع على حدود الأقاليم بينهم (بين مغول فارس وبين مغول آسيا الصغرى ، وبين مغول فارس وبين مغول القبيلة الذهبية) كما تبنت سياسات خارجية متنافسة الامر الذى أثر على أنماط تفاعلاتهم مع المماليك والقوى المسيحية - كما سنرى .

المطلب الثانى : الآثار الطويلة المدى للهجمة المغولية :

تنقسم هذه الآثار إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى هى الآثار على أسس التوازن العام بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى فى حين أن المجموعة الثانية تتصل بالآثار على توازن القوى الإسلامية ذاتها ومن هنا يتضح مغزى تأثير الطرف المغولى على العلاقات الإسلامية - المسيحية العاجلة (أى خلال النصف الثانى من القرن ٧ هـ) والآجلة أى خلال القرون الثلاثة التالية .

ويبرز التصدى للمجموعة الأولى من الآثار اختلاف التحليلات والتقويمات حول أثر هذه الهجمة المغولية على وزن الحضارة الإسلامية بالمقارنة بوزن الحضارة الغربية التى اينعت بعد ذلك . فبالرغم من أن معظم التحليلات الغربية التى تصدت لدراسة هذه الآثار قد أجمعت على الوقع الشديد لأثر هذه الهجمة على مستقبل وتكوين المنطقة إلا أنها اختلفت حول تكييف درجة سلبية أوايجابية هذا الأثر بالنسبة للقدرات الإسلامية فى مواجهة الغرب المسيحى فى القرون التالية على الهجمة .

ويمكن أن نميز بين اتجاهين أساسيين :اتجاه لايرى أثر المغول إلا أثرا مدمرا لقوة دفع الحضارة الإسلامية حيث أنهى الحضارة الإسلامية العظمى للقرون الأولى . أما الاتجاه الآخر فهو يعترف بأوجه عديدة فى هذا التاثير ولقد قال بالاتجاه الأول ، الذى يبالغ فى تقدير أضرار المغول - مستشرقون أوروبيون ولقد نقل عنهم عدد من المؤرخين الاعتذار بين من دول الشرق الاوسط وذلك لتفسير عصرهم الذهبى بالمقارنة بتخلفهم الحالى[٤] . ومن نماذج مقولات هذا الاتجاه مايلى :من ناحية أن المغول وان لم يعتنقوا الديانة المسيحية الا أنهم ساعدوا الغرب المسيحى ولو بطريقة غير مباشرة لأن غزوهم العالم الإسلامى لم يجعل حضارة الشرق تضىء العالم كما كان وضعها من قبل [٥] .

ومن ناحية اخرى أن الإسلام لم ينهض أبدا من هذه المأساة التى دمرت كل مابناه المسلمين فى وسط وغرب آسيا خلال ستة قرون ومن ثم فان غزو المغول هو المسئول عن التدهور النسبى للحضارة الإسلامية بالمقارنة بحضارة أوروبا المسيحية وذلك بسبب انهيار الرخاء الاقتصادى وبسبب الجمود وشلل الجهد الفكرى حيث أن الجهود الفكرية للمسلمين بعده قد تركزت على اعادة الاستكشاف والحفاظ على ماتبقى ومن ثم تقيد الابداع [٦] .

وإذا كانت بعض الدراسات الحديثة النقدية التراكمية لتطور اتجاهات البحث والتفكير الغربى حول التدهور الإسلامى قد بينت أن أحد اتجاهات تفسير هذا التدهور الذى ظهر خلال القرن ٢٠م تركز على أثر المغول ، الا ان تعدد وتنوع اسس الاتجاهات المعروضة فى هذه الدراسة لتبين أن أثر المغول ليس العامل الوحيد الحاسم المجمع عليه[٧] . هذا ويجدر الاشارة إلى انه اذا كان الاتجاه الذى يبالغ فى الأضرار السلبية قد سيطر لفترة الا أن تحليل المستشرق الروسى ف. بارتولد فى كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية الذى نُشر ١٩١٧م [٨] كان البداية لظهور وتطور أسانيد الاتجاه الثانى - فيرى بارتولد أنه ولعديد من الاعتبارات من الخطأ القول بأن "الفتح المغولى" للبلاد الإسلامية كان أهم أسباب تدهورها أو أن نتائجه كانت شديدة السوء ومن أهم هذه الاعتبارات الجهود التى بذلها المغول بعد اسلامهم واستقرارهم لانهاض حياة المدن وترقية الصناعة والتجارة وانشاء مدن جديدة وجمعها تحت سلطان أسرة واحدة

٤- Bernard Lewis : Islam in History . Alcove Press.,London . PP 179 - 180 .

٥- Landan Rom : Islam and the Arabs . George Allen , London. 1958 . pp 88 - 89 .

٦- Edward Mortimer : op . cit . P 82 .

٧- J.Saunders : The Proplem of Islamic Decadence . Journal of World History, Vo 7. N 3 . 1963 . p 701 - 718 .

٨) ف . بارتولد :تاريخ الحضارة الإسلامية . ترجمة حمزة طاهر . دار المعارف . القاهرة . ج ٢ . ١٩٥٢ ، ص ص ٩٢ - ٩٥ .

مما ساعد على ازدهار التجارة بين الصين والشرق الأدنى كما انتفع تجار أوروبا بطرق التجارة هذه.

وفي هذا السياق ، فان البعض [٩] يورد ضرورات أخرى لعدم المبالغة في الأضرار التي لحقت بالعالم الإسلامي من جراء الغزو المغولي ومن هذه المبررات أن سقوط الخلافة العباسية لم يكن إلا تحصيل حاصل وذلك لأن التدهور كان قد أصابها قبل فترة كافية من الهجمة المغولية ، كذلك اعتنق المغول الإسلام مما أدى إلى اتساع رقعة الأراضي الإسلامية ومن ثم أضحى المغول باعتبارهم ثاني أضخم هجرة بعد الأتراك عنصر تقوية وليس عنصر اضعاف للقوة السياسية والعسكرية للاسلام . ومن أهم الأسانيد التي تسوقها هذه الآراء للدلالة على صحة مبراراتها مقولة المؤرخ بن خلدون بأن دور الأتراك في الإسلام كان برهانا على عناية الله بالمسلمين في وقت ضعفت فيه الخلافة وعجزت عن رد هجمات الاعداء .

أما المجموعة الثانية من الآثار فهي المتصلة بتوازن القوى الإسلامية أي اعادة تشكيل وتوزيع القوة بين الدول الإسلامية ، فبعد عملية الصدام متعددة الأبعاد السابق توضيحها استقرت الحدود الفاصلة بين مغول ايران وبين المماليك وأضحت منطقة العراق منطقة عازلة أصابها الدمار وظلت آسيا الصغرى منطقة نفوذ مغولي وأضحت ايران ومايتبعها تؤلف نطاقا متميزا عن الدولة المملوكية في مصر والشام ، وبذا تم استقطاب العالم الإسلامي في المشرق حول مصر وسوريا في ظل المماليك الذين هيمنوا أيضا على الحجاز، وحول المغول في ايران وغرب الأناضول وشرق أوروبا ووسط آسيا [١٠] بعبارة أخرى فانه في حين أضحى المماليك يمثلون القوة العسكرية الإسلامية الأساسية في هذه الفترة والعدو الأساسي لايلخانات فارس فقد العراق مركزه السابق في قيادة الإسلام عسكريا واقتصاديا وهو المركز الذي انتقل للقاهرة ثم استانبول بعد ذلك [١١] فلقد ترتب على الغزو المغولي انقطاع وادي الفرات عن خطوط المواصلات عبر الاراضي المتوسطية وذلك بسبب النزاع المملوكي المغولي فلم تعد أراضي هذا الوادي تمثل ممرا للتجارة بين الشرق والغرب حيث تحولت هذه التجارة إلى طريقين آخرين : الطريق الشمالي عبر الاناضول وفارس ، والجنوبي عبر مصر والبحر الاحمر ، الأول سيطر عليه المغول والثاني سيطر عليه المماليك وبذا وقع العراق ولمدة قرون فريسة الاهمال والجمود بعد أن كان مركز وحاضرة الخلافة

---

٩) - Bernard Lewis : op . cit. pp 181 - 184 .

– برنارد لويس :مرجع سابق ، ص ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

١٠) كلود كاهان : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام وحتى بداية الامبراطورية العثمانية ، دار الحقيقة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣، ص ٢٦٣ .

١١- - B.Lewis : op . cit. PP 183 - 184

العباسية فهو لم يعد الا مجرد تابع فى فارس الجديدة تحت نفوذ المغول فى نفس الوقت الذى أخذت تتبع دويلات تركمانية فى الأناضول كانت تحت الهيمنة المغولية حتى بداية ظهور العثمانيين (١٢) .

بعبارة أخرى فان هذه الآثار تقترن بقوة بالاتجاه الذى يرى (١٣) أن الآثار المباشرة للغزو المغولى على العالم العربى قد تركزت فى العراق الذى فقد دوره المركزى ولم يعد الا تابع للدولة الايلخانية التى كان مركزها فارس فى حين أن الدمار الذى أحاط بالأراضى المغزوة كان مبالغا فيه وانتهى بعد عمليات الغزو حيث بدأت فترة جديدة من التطور الاقتصادى والثقافى ٠

المبحث الثانى : معضلة العلاقات المملوكية المغولية – المسيحية : أنماط التفاعلات بين مركز القوة الإسلامية ومصدرى التحدى للإسلام :

استطاع قطز ثم بيبرس ثم قلاوون توظيف سلسلة من التحالفات والمعاهدات مع مصدرى التحدى :المغول والقوى المسيحية وفى مواجهتهما فى نفس الوقت وذلك من أجل تحجيم الأثر السلبى للاول (مغول فارس) ومن أجل تصفية بقايا الوجود الصليبي٠ فالعقود الأخيرة للقرن (٧هـ – ١٣م) والتى تداخلت فيها بقوة الحروب المملوكية – المغولية ، والمملوكية – الصليبية تعد من أخصب الفترات التى تبين لنا أبعاد السياق الزمنى والمكانى للتفاعلات التى قام بها طرف اسلامى سواء مع أطراف اسلامية (مغول القبيلة الذهبية) أو أطراف غير اسلامية (الدولة البيزنطية وبعض ممالك الفرنجة) فى مواجهة طرف وثنى (مغول فارس) أو مسيحى (صليبو امارات الشام) وذلك من أجل صالح الأمة الإسلامية وخدمة لأصل الجهاد وليس التراجع عنه ولو اقتضى الأمر التحالف مع طرف غير مسلم (ولكن أساسا فى مواجهة طرف آخر غير مسلم) . اذن كيف تبلورت هذه الانماط وماهى العوامل التى ساعدت على نجاحها فى تحقيق أهداف المماليك ؟ ٠

المطلب الأول : أنماط التفاعلات المملوكية – المغولية – المسيحية

يمكن أن نميز بين نمطين أساسيين من هذه التفاعلات :

الأول : يظهر فيه تحالف مملوكى – مغولى مسلم فى مواجهة تحالف مغولى وثنى صليبى ، أما النمط الثانى فيظهر فيه تعاون أو تحالف مملوكى – مسيحى بيزنطى أو

١٢- Goel Carmichael : The Shaping of the Arabs . George Allan and Unwin Ltd. London . 1967. p 246 .

١٣- B. Lewis : Arabs in History . p 154 - 155 .

افرنجي فى مواجهة نفس التحالف المغولي الصليبي . وهما نمطان متداخلان ومتزامنان ظهرا فى ثلاث مراحل متتالية قبل الهجوم على حاضرة الخلافة العباسية فى بغداد وفى نفس الوقت الذى كان يجرى فيه تدعيم السلطة المملوكية فى مصر (٦٤٨هـ -٦٥٩هـ) وخلال مرحلة المواجهة الحاسمة بين المغول والمماليك والتى توجتها عين جالوت ، ثم بعد ارساء وتدعيم أركان السلطة المملوكية . هذا ويعكس هذان النمطان ثلاث مجموعات متداخلة من التفاعلات عبر هذه المراحل من ناحية :نجد التحالف المغولي الوثني – المسيحي ، ومن ناحية اخرى نجد التحالف المملوكي – المغولي المسلم ، ثم المملوكي – المسيحي فى مواجهة التحالف الأول .

أولاً: عن التحالف المغولي الوثني ـ المسيحي ضد المماليك[١٤] :

فلقد تحالف مغول فارس (الايلخانيون) مع عدة أطراف مسيحية وقد كان لكل من الجانبين دوافعه ومصالحه التي يخدمها هذا التحالف فى مواجهة المماليك والمسلمين بصفة خاصة . والأطراف المسيحية هي مملكتا أرمينيا والكرج المسيحيتان والامارات الصليبية بالشام وبعض الممالك الأوروبية وخاصة مملكة فرنسا والبابوية . وبعبارة أخرى تحالف هولاكو وابنه ابقا من بعده (١٢٦٥م – ١٢٧٨م)مع مسيحيىّ الشرق والغرب على حد سواء فى مواجهة المماليك . فمن ناحية لقد كان ملك ارمينيا المسيحي هو الذى أقنع المغول بارسال الحملة التى دمرت بغداد بقيادة هولاكو ثم اتجهت نحو الشام ومصر حيث ظلت تصطدم مع المماليك طوال فترة هولاكو (١٢٥٦م – ١٢٦٥م) وابنه من بعده ولقد ساهمت قوات أرمينية مع قوات امارة الكرج الصليبية فى حملة هولاكو فى بغداد والشام ، وبارك البطريرك الأرمنى الحملة المغولية – الأرمنية على بلاد الشام مما أعطاها طابعاً مسيحياً وبدا أن العالم المسيحى كله على استعداد لأن يغض الطرف عن جرائم المغول ضد أبناء دينهم فى روسيا طالما أن التعاون معهم سيؤدى إلى تدمير مابقى من قوة الإسلام ، ومن ناحية أخرى جرت الاتصالات بين المغول وبين ملك فرنسا لويس التاسع لتحقيق مصالحهم المشتركة فى

---

١٤) انظر :برتولد شبولد :مرجع سابق ، ص ص ٦١ – ٦١ ، ٦٧ ، ٧٤ .

– توماس أرنولد :مرجع سابق ، ص ص ٢٥٢ ، ١٥٩ – ١٦٣ .

– د. نظير حسان سعداوى :الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ص ١١٨ – ١٢٩ .

– د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مصر فى عهد دولة المماليك البحرية ، النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٩ ، ص ص ٣٣-٣٤ ، ٣٩ ، ٥٢ – ٥٣ ، ٥٤ – ٥٩ – د. رجب محمد عبد الحليم :مرجع سابق ، ص ٢٤٢.

– د. محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٤٧ ، ص ص ١٦٣ – ٢٠٠ .

– عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، د. ت . ج١٣ ، ص ٣٨ .

مواجهة المسلمين منذ عهد الأيوبيين ومنذ ماقبل سقوط بغداد بنحو عقد من الزمان تقريبا ولقد تجددت واستمرت هذه الاتصالات بعد فشل حملته على مصر فى نفس الوقت الذى ظهر خلاله اتجاه خان المغول الأعظم فى الصين لتوجيه جيوشه نحو غرب آسيا الإسلامية . واذا كان مسيحيو الغرب قد نظروا إلى المغول كمادة خام يمكن تحويلها إلى الديانة المسيحية بسهولة وكسبهم إلى جانب المعسكر الصليبى لكسر شوكة الإسلام إلا أن التعاون معهم كان سبيلاً أيضا لحماية الاماراتين الصليبيتين الباقيتين فى الشام وهما طرابلس وعكا وذلك حتى يمكن احتواء الهلال الخصيب من الشرق للمغرب . فلقد كانتا تعتمدان اعتمادا كليا على تأييد البابا وفرنسا . ولهذا فلقد أصبح الصليبيون فى الشام ومن ورائهم حماتهم الفرنسيون الأصدقاء الطبيعين للايلخانيين لأنهم يتحدوا فى عدائهم لمصر وازداد احتياجهم لهذه الصداقة بعد ان اتجه بيبرس عقب فترة هدنة مع الصليبيين (١٢٤٨م –١٢٦٠م) لمحاربتهم واخراجهم بعد أن تمكن من تحجيم التهديد المغولى . ولقد استمر التعاون المسيحى – المغولى بعد هولاكو مع ابنه ابغا(١٢٦٥م –١٢٨١م ، ٦٦٤هـ –٦٨١هـ) الذى استمر فى مراسلة ملوك وأمراء أوروبا (ملك فرنسا – ملك صقلية –ملك ارجون) . ولقد شارك الفرنج والكرج والأرمن فى المعارك التى تجددت بين بيبرس وبين أبقا فى الشام طوال فترة حكم الأخير هذا ولقد كان اعتلاء غازان للعرش ١٢٩٥م ، بعد سقوط عكا التى كانت نقطة النهاية فى تصفية الوجود الصليبى فى الشام ، نقطة فاصلة فى تاريخ مغول ايران وفى علاقاتهم مع الدول الأوروبية ومع المماليك على حد سواء . فلقد تأثرت العلاقات مع أوروبا بشكل تدريجى بعد تحول غازان إلى الدين الإسلامى وبعد أن تعاقب بعده سلاطين من المغول المسلمين ومن ثم اتضح جليا أن باباوات وملوك فرنسا قد بالغوا فى تصور امكانية تحول المغول إلى المسيحية ثم بدأت العلاقات المملوكية المغولية مع نهاية القرن تدخل مرحلة الهدوء النسبى (كما سنرى فى الفصل التالى) .

ثانياً : وعن التحالف المملوكي – المغولي المسلم : (١٥)

فإذا كان مغول ايران قد ادركوا ان أمنهم يتحقق مع المسيحيين ضد المماليك فان مغول القبيلة الذهبية رأوا أن أمنهم يكمن فى التحالف مع مصر . ولقد كان ركن أساسى من أركان السياسة المملوكية هو التحالف مع هذه القبيلة لموازنة تحالف

---

١٥) محمود شاكر : مرجع سابق ، ص ص ٤٧ –٥٣ ، ١٤٤ – ١٤٧ ، ١٤٧ – ١٥١ .
– برتولد شبولر :مرجع سابق ، ص ص ٩٤ – ٩٧
– د. فايد حامد عاشور : العلاقات السياسية بين المغول والمماليك فى الدولة المملوكية الأولى . دار المعارف. القاهرة ١٩٧٤ .ص ٧٥ – ٨٤ – د. رجب محمد عبد الحليم: مرجع سابق ، ص ص ١٤٦–١٧٠. – د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مرجع سابق ، ص ٤٢ .

الصليبيين مع مغول ايران . ويتبلور ذلك بوضوح في التحالف بين بركة خان وقطز وبيبرس بين خلفاء بركة خان وبيبرس ثم قلاوون . ولقد كان لكل من الطرفين دوافعهما ومصالحهما المشتركة فلقد كانت العلاقات السياسية الطيبة مع مصر نتيجة طبيعية للنزاع بين بركة خان وهولاكو ، كما كانت تحقق مصالح اقتصادية وروابط ثقافية ودينية هامة للقبيلة الذهبية حيث لم تقف العلاقات بين الطرفين عند حد التنسيق والتعاون العسكرى فى مواجهة مغول ايران والصليبيين بل شملت جوانب اخرى علمية وثقافية كان من شأنها دعم وتعميق تحول المغول إلى الإسلام وهو الأمر الذى كان يهتم به بركة خان . ولقد ساند هذا التحالف المماليك فى التصدى لمغول ايران بأكثر من طريقة قبل وبعد عين جالوت كان من أهمها شن بركة خان هجمات فى أوروبا الشرقية حتى ينشغل أهلها عن تدعيم اخوانهم من الصليبين فى بلاد الشام والذين كانوا يحالفون المغول فى ايران وكذلك شن بركة خان هجمات على مغول ايران حتى يشغلهم عن بلاد الشام . ولقد كانت هذه الهجمات من أهم العوامل التى ساعدت المماليك فى معركتهم الحاسمة فى عين جالوت . كما أدى اهتمام بركة خان ببث الفرقة فى دولة المغول الوثنية الثانية (فى آسيا الوسطى) إلى شد انتباه هولاكو إلى الشرق واستنفاذ طاقة كبيرة منه فى وقت حاسم من المواجهة مع المماليك . ولقد ظل قائما هذا التنسيق والتعاون بين القوتين الاسلاميتين فى جهاد أعداء الإسلام وهو الجهاد الذى اعترف به قادتهم كدافع للتنسيق بينهم [(١٦)] حتى تغيرت فى نهاية القرن الأوضاع التى أبرزت من قبل ضرورته وكذلك ظهرت أوضاع جديدة حالت دون استمراره بنفس القوة والحيوية منذ نهاية القرن ١٤م . فمن ناحية تم تصفية الامارات الصليبية ، ومن ناحية أخرى تحول مغول ايران إلى الإسلام مع غازان وهو الأمر الذى كان نقطة تحول فى علاقاتهم مع المماليك (كما سنرى) حيث أنه بعد ابقا ابن هولاكو أى منذ ١٢٨٢م تعددت الاتصالات الايجابية بين المماليك والدولة الايلخانية وتزايدت هذه الاتصالات وضعف الخلاف كلما تزايد اقتراب مغول ايران من الإسلام . كما أن انصراف المماليك فى العقدين الأخيرين من القرن ٧هـ إلى قتال الصليبيين قد خفف من حدة القتال مع الايلخانيين وسمح عند نهاية القرن بالبحث عن امكانات التصالح بينهم وبين السلطان قلاوون [(١٧)] فى حين استمر عداء وصدام غازان مع المماليك ولم يتحقق التصالح إلا عام ١٣٢٠م وهو الذى يعد نقطة التحول فى

---

١٦) انظر على سبيل المثال نصوص بعض الرسائل المتبادلة بين السلطان المملوكى وبركة خان وبعض خلفائه والتى تبرز غاية الجهاد المشترك بين الطرفين . انظر :

- بدر الدين محمود العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . تحقيق : محمد محمد امين ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ ، ج ١ ، ص ص٨١ - ٨٢ ، ٣٦٠ - ٣٦٣ ، ج٢، ص ص ١٠٠ - ١٠١ .

١٧) أنظر نص بعض الرسائل التصالحية المتبادلة بين قلاوون وبين خان مغول ايران ٦٨١ هـ - ٧٠٣هـ فى :القلقشندى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٤٢ - ٢٤٤ (الجزء السابع) .

العلاقات بين الطرفين (كما سنرى) . ومن ناحية ثالثة تغيرت صورة التحديات التى تواجهها القبيلة الذهبية منذ بداية نمو امارة عثمان(مع بداية القرن ٨ هـ - ١٤م) والتى أضحت تهدد هذه القبيلة ومغول ايران على حد سواء .

ثالثاً: التحالف المملوكي مع أطراف مسيحية[١٨]

اتسمت سياسة المماليك فى بداية دولتهم (١٢٤٨م - ١٢٥٩م ، ٦٤٨هـ -٦٥٥هـ) بالطابع السلمى تجاه الصليبيين فى الشام وذلك لانصرافهم لمعالجة عدم استقرار الأوضاع الداخلية (النزاع فيما بينهم) ومنازعات الامراء الايوبيين فى الشام واقتراب خطر المغول والذى تزايد مع سقوط بغداد. وبالرغم من أنه بدا يظهر بوادر المصلحة المشتركة والتعاون بين الصليبيين ومغول ايران -كما بينا - إلا أنه كان لزاما على المماليك التركيز على الخطر الأكبر أولا -أى المغول- ولكن لم تكن المهادنة والمصالحة لتكفى المماليك عند ادارة صراعهم مع الصليبيين نظرا لتداخله مع الصراع المغولى وخاصة بعد ١٢٦٠م - ٦٥٨ هـ .

ولذا كان طبيعيا أن يحالف المماليك أعداء الصليبين مثلما حالفوا أعداء مغول فارس ، ومن هنا بدأ بيبرس يسعى للتقارب مع الامبراطورية البيزنطية وهى العدو التقليدى للصليبيين فى الشام منذ قيام الحروب الصليبية فى نهاية القرن ١١هـ . كذلك استمر هذا التقارب بعد عهد بيبرس أيضا وذلك فى نفس الوقت الذى لم تتغير فيه سياسة الدولة البيزنطية تجاه المماليك (وحتى بدأت أوضاع جديدة مع ظهور الأتراك العثمانيين) ، كذلك تحالف بيبرس ومن بعده مع ممالك متوسطية أى صقلية ونابولى والبندقية التى تسعى وراء مصالحها التجارية . وكان هدف المماليك من هذه العلاقات هو قطع الدعم عن الصليبيين وعدم مساندتهم فى وقت كان مازال خطر التتار قائما وفى وقت قرر فيه بيبرس العمل ضد الصليبيين والتتار فى وقت واحد نظرا للتعاون بينهم . والجدير بالذكر أنه توافر لدى هذه الأطراف الأوروبية دوافعها أيضا للدخول فى هذه التحالفات التى كانت تحقق مصالحها (كما سنرى فى المطلب التالى) .

---

١٨) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : مرجع سابق ، ص ص ٣٣ - ٣٤ ، ٥٧ - ٦١ .
- العصر المماليكى فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ط٢ ، القاهرة ١٩٧٦، ص ص ٢٧١ - ٢٧٨ .
- برتولد شبولر :مرجع سابق ، ص ص ٦٢ - ٦٣ ، ٩٦ - ٩٧ .
- محمود شاكر : مرجع سابق ، ص ص ٤٧ - ٥٠ .
- د. نظير حسان سعداوى :مرجع سابق ، ص ص ١٤٥ - ١٥٢ .
وحول نصوص بعض الاتفاقات المملوكية - المسيحية (ارمينيا ، جنوة ، ارجون ، البيزنطية) على التوالى :
- انظر : محمد ماهر حمادة :الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكى ، (٦٥٦ هـ - ٩٢٢ هـ). مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢، ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣م . ، ص ص ٤٧٢ ، ٤٨٠، ٤٨٥ ، ٤٩٨ .

ولقد اقتصرت جهود بيبرس حتى ١٢٦٣م على مجرد الهجمات والمناوشات المتقطعة ثم انتقل إلى الحملات الكبرى المنظمة التى كان يفصل بينها صلح أو هدنة سرعان ماكانت تنتهى بعمل عسكرى جديد . هذا ولقد امتدت واستمرت عملية التصفية فى عهد قلاوون وابنه الأشرف حيث تم تصفية أخر المعاقل الصليبية فى عكا وصيدا وصور ٦٩٠هـ - ١٢٩٢م [١٩]. هذا ولقد حققت التحالفات المملوكية الأوروبية ضد الصليبين أهدافها من حيث احكام الحصار حولهم ، كما أثرت على علائق مغول فارس بهذه الدول الاوروبية. فكيف ؟ ولماذا ؟ وما مدلولاها؟

المطلب الثانى: أسباب نجاح التحالفات المملوكية ومدلولاتها :

قد ساعد على نجاح هذه الأنماط من التحالفات المملوكية فى تحقيق أهدافها طبيعة العلاقة بين الأطراف المغولية ، وطبيعة العلاقة بين الصليبيين والمغول ، وطبيعة العلاقة بين الصليبيين وبين الممالك الأوروبية هذا فضلا بالطبع عن القدرة الذاتية للمماليك بعد تركيز السلطة فى أيديهم مع القضاء على منازعة الامراء الأيوبيين فى الشام ومع التغلب على ارهاصات اتصالات الأيوبيين بالتتار ومع احتواء منازعات المماليك فيما بينهم [٢٠]، وبعد عملية بناء الدولة التى قام بها بيبرس واستكملها قلاوون . ولقد سبق الاشارة فى المبحث السابق إلى وضع العلاقة بين الأجنحة المغولية، أما عن طبيعة العلاقة بين أوروبا والمغول [٢١] فهى تجيب عن التساؤل التالى :لماذا فشل التحالف بين الطرفين ؟ هل أضاعت أوروبا فرصة ملائمة للقضاء على الإسلام بفشلها فى التحالف ايجابيا مع مغول فارس (وهو السؤال الذى سيبرز مرة أخرى مع تيمور لنك) فلقد كان

---

١٩) حول مزيد من التفاصيل عن الجهود العسكرية والدبلوماسية (الهدنات) فى مواجهة الامارات الصليبية فى الشام وحتى تصفيتها ، راجع المصادر الثانوية التالية التى تعتمد وخاصة المرجعين الاخيرين على المصادر الأولية التاريخية حول هذه الفترة :المقريزى ، ابن تغرى بردى ، ابو الفداء، ابن اياس .

- د. وفاء محمد على :جهود المماليك الحربية ضد الصليبية والمغول ، القاهرة ، ط١ ١٩٨٥. ، ص‌ص ١٩ - ٦٢ .
- د. نعمان الطيب سليمان : جهود المماليك فى تصفية الوجود الصليبى والمغولى ، مطبعة الامانة، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ص ٦٤ - ٦٥ .
- وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ١٢٦ - ١٥١٧، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مطبعة المعارف بالفجالة ، مصر - ط١ ، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤ م .
- د. احمد مختار العبادى ، د. السيد عبد العزيز سالم :تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢٩٥ - ٣٠٩ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ص ص ٢٣١ - ٢٣٦ ، ٢٥٢ - ٢٦١ .

٢٠) - حول نماذج من هذه النزاعات الايوبية - المملوكية ، المملوكية - المملوكية خلال عملية مواجهة التيار . انظر على سبيل المثال :

- ابن كثير :مرجع سابق ، ج ١٣ ص ٢١٨ ، ص ٢٣٨ ، ص ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

٢١) برتولد شبولد :مرجع سابق ، ص ص ٦٤ - ٦٦ .

- توماس ارنولد :مرجع سابق ، ص ص ٢٥٣ ، ٢٦٩ .

الهدف من تحسين أوروبا العلاقات مع المغول هو تحويل تلك الكتلة الشرقية الوثنية إلى المسيحية كي تنحصر الأراضى المقدسة بين أوروبا وآسيا المسيحيتين حتى تطبقا على المسلمين كفكي كماشة ولكن انتهت هذه المحاولات وحكم عليها بالفشل مع تحول المغول فى فارس إلى الإسلام فى نهاية القرن ١٣م أو فى ١٢٩٥م وهو تاريخ اعلان الإسلام دينا رسميا لمغول ايران أثر اعلان غازان حفيد هولاكو إسلامه .

ولقد فسرت التحليلات الغربية الاستشراقية هذا التحول باعتبارات المناخ السياسى . فبالرغم من اعتراف توماس ارنولد [٢٢] أن الاختلافات الدينية بين المسيحيين من اللاتين والاغريق والنسطوريين والأرمن قد أمتدت إلى وسط المغول إلى حد جعل الأمل صعبا فى احراز نجاح أكبر فى تحويلهم إلى المسيحية الا أنه يرى أن الكفاح الذى احتدم بين الديانات المتنافسة لجذب المغول قد حسمته الاعتبارات السياسية التى وجهت هذا الكفاح لمصلحة المسلمين حيث أن انتصارات بيبرس على الصليبيين وتحالفاته مع بركة خان والممالك الأوروبية قد دفعت ايلخانات فارس وجهة جديدة تحمى مصالحهم . كذلك يشير البعض الآخر [٢٣] إلى أن تحول المغول إلى الإسلام ، والذى كان وراء انتهاء أمل المسيحية فى نصر جديد يدعم صفوفها ، قد ارتبط بتحول مواقف المغول من التحالف مع الصليبيين بعد انتصارات المماليك على الطرفين حيث أن سقوط عكا ١٢٩١م كان نقطة تحول المغول نحوالاسلام.

ولقد اكتملت فرص نجاح أهداف المماليك نظرا لطبيعة العلائق بين الأطراف المسيحية :الصليبية، البيزنطية ، اللاتينية ، أوالممالك الأفرنجية [٢٤]، فلقد حدث نصر سياسى هام فى أوائل الستينيات من القرن ١٣م قدم فرصة هامة لبيبرس ، وهو أن السلطة البيزنطية عادت إلى القسطنطينية بعد قضاء أحد أباطرتها على النفوذ اللاتينى الذى قوض الحكم البيزنطى منذ الحملة الصليبية الرابعة . ولقد ساعد هذا التغيير بيبرس على تعبئة مساندة أحد الأعداء التقليديين للصليبيين واللاتين . وفضلا عن العداء التقليدى بين البيزنطيين والصليبيين فى الشام او المسيحيين اللاتين فى غرب أوروبا فان الصليبيين فى الشام لم ينتبهوا إلى حقيقة الخطر المحدق بهم على يد

---

٢٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٥٣ - ٢٦٩ .

٢٣) J.Thayer Addisson : The Christian Approach to the Muslim . Colombia University Press . New York . 1942 . pp 50 - 51.

٢٤) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

- د. نظير سعداوى :مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

- وليم موير : مرجع سابق ، المقدمة .

- أنظر أيضا لمزيد من التفصيل عن حالة العلاقات أو التوازنات الأوروبية - الأوروبية فى هذه المرحلة فى: هـ. أ. فيشر ، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، ١٧٨٩ -١٩٥٠ ، تعريب أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

بيبرس حيث استمروا غارقين فى منازعاتهم الداخلية ولقد دعم من التأثير السلبى لهذه المنازعات التى ميزت تاريخ النصف الأخير من القرن ١٣م من حياة هذه الامارات ، عدم وجود حاكم قوى يجمع صفوفهم ويوحد كلمتهم ويحقق وحدتهم ويتغلب على تضارب واستقلال مصالحهم . ومن ناحية أخرى تمكن بيبرس وقلاوون من تحقيق حياد ملوك أوروبا عند هجومه على الشام وذلك نظرا لتصدع وحدة الصف الاوروبى واشتعال نيران الحروب الأهلية فى أوربا الأمر الذى صرفها عن ارسال نجدات إلى بقايا الصليبيين فى الشام .

وإذا كان الانجاز المملوكى فى التصدى للمغول وفى تصفية الوجود الصليبى فى الشام من أهم أركان الاقرار للدولة المملوكية بدور مركزى فى السياسات الإسلامية والدولية بصفة عامة ، وبالرغم من أن أحد أهم اسباب تحققه كان نجاح المماليك وبراعة فى ادارة علاقاتهم مع الفواعل الدولية المحيطة ، الا أن تقويم بعض التحليلات الغربية لهذه الممارسات يفسح أمامنا المجال لمناقشة اشكالية هامة وهى مدى ابتعاد أوقرب هذه الممارسات ، التى احتوت جانباً كبيراً من الاتصالات السلمية التجارية والعلاقات الدبلوماسية مع أطراف غير اسلامية عن مفهوم الجهاد ومقتضياته . ولقد خلصت بعض هذه التيارات من التحليلات الغربية إلى نتيجة (٢٥) هامة عن هذه المرحلة ، أى النصف الثاني من القرن ٧هـ -١٣م (والتى امتدت أيضا لتغطى المرحلة التالية كما سنرى) وهى أن تحليل مضمون وسبل عقد الاتفاقيات بين المماليك (فى عهد بيبرس وقلاوون) وبين الامارات الصليبية : وأرمينيا الصغرى ، والامبراطورية البيزنطية ، والجمهوريات الايطالية ، وارجون وقشتالة ، انما يبين أنه مع بداية القرن ٨هـ - ١٤م، أضحت أفكار الجهاد تلعب دورا صغيرا فى العلاقات الدولية بين الدول الإسلامية وبين الدول المسيحية حول حوض المتوسط لأن السلطنة المملوكية ، وهى أكبر قوة اسلامية فى المنطقة ، قد اقامت اتفاقيات دبلوماسية وتجارية نشطة مع دول مسيحية متعددة ، وأن هذه الاجراءات والأهداف الدبلوماسية قد ورثتها وطورتها الدولة العثمانية والتى تعد بصورة أو باخرى وريثة السلطنة المملوكية .ولمناقشة هذه النتيجة يمكن أن نسجل الأمرين التاليين:

الأمر الأول : خاص بالاتفاقيات مع الامارات الصليبية فهى كانت من قبيل الهدنة والصلح ، وبالنظر إلى تسجيل المصادر الثانوية والأولية عن تاريخ هذه المرحلة لقيام بيبرس وقلاوون بخرق الهدنة ونقض الصلح ، يمكن القول إن هذه الممارسات لاتعكس الا تمسكا بروح الجهاد حيث كان بيبرس أو قلاوون ، كما يقول البعض (٢٦) يعاودون الهجوم عندما يظهر الصليبيون المكر والخديعة. كذلك يساعد تحليل نصوص هذه الاتفاقات وملابسات عقدها ونقضها على توضيح أسباب هذا العقد وهذا النقض ،

---

٢٥) - P. M. Holt : op . cit . p 160 .

٢٦) د. نعمان الطيب سليمان :مرجع سابق ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

ولعل من أهمها لدى المماليك هو الرغبة فى التقاط الأنفاس والاستعداد لضربة أكبر - حيث أن هذه الاتفاقات لم تكن متزامنة مع جميع الأطراف الصليبية أو كانت تهدف للتفرغ لاحدى مناوشات المغول التى لم تنقطع بعد عين جالوت .

الأمر الثانى : هو ان الاتفاقات مع الممالك الأوروبية وان كانت تحقق هدفا استراتيجيا - سبق توضيحه - وهو احكام الحصار حول المغول والامارات الصليبية حتى يمكن القضاء عليهم (الصليبيين) أوتحجيم خطرهم وابعاده (المغول) فهو هدف يكمن فى صميم حماية الإسلام ومن ثم فان هذه الاتفاقات تخدم أهداف الجهاد والدفاع عن الإسلام بالأساليب التى تتفق ومقتضيات الفترة التى عقدت فى ظلها . كما أنها تخدمها على نحو أخر وهى أنها - أى بعض أهم هذه الاتفاقات - كان سبيلا مباشرا لتدعيم عناصر القوة العسكرية المملوكية اللازمة لدرء الخطر المغولى الوثنى . فلقد كانت العلاقات المملوكية البيزنطية ، والمملوكية مع جنوة بصفة خاصة تقع ، كما توضح بعض التحليلات لهذه العلاقات [٢٧] ، فى صميم العلاقات المملوكية المغولية ، ذلك لأن تأمين الطريق بين البحر الأسود والبحر المتوسط والذى تسيطر عليه الدولة البيزنطية كان يعد ضرورة حتمية لأنه الطريق الذى تمد من خلاله القبيلة الذهبية السلطنة المملوكية بعنصر قوتها الأساسى أى المماليك ، خاصة وان الطريق الآخر الذى يسلكه المماليك المجلوبة من مصادر أخرى كان يقع تحت سيطرة مغول فارس . ومن ناحية أخرى كانت المصالح الاقتصادية لجنوة تملى عليها التعاون مع المماليك فى هذا الصدد أيضا . أما الاتفاقات مع مملكة ارجون (والتى تمت مع قلاوون) [٢٨] فكانت تضم إلى جانب عقود حماية التجار والضمان المتبادل لأمن أقاليم كل طرف والسماح بتصدير المعادن والاخشاب للموانى المسلمة بنوداً أخرى يلتزم بمقتضاها ملك اسبانيا وأولاده بمساندة قلاوون فى البحر والبر فى حالة أى هجوم ضده من البابا أو أى امارة صليبية أو جنوة أو البندقية أو الدولة البيزنطية ، كما يلتزموا أيضا بعدم تقديم مساندة لأى امارة صليبية فى الشام بل وأن يحذروا السلطان من أى هجوم مسيحى أو مغولى عليه . ومما لاشك فيه أن هذه البنود الأخيرة وان كانت ذات مغزى خاص حيث انها تعكس تعبئة المساعدة من طرف غير مسلم وإن كان فى مواجهة طرف أخر غير مسلم ولكنها فى نفس الوقت تثير تساؤلاً آخراً حول العلاقة بين هذا الاتفاق وماكان يجرى فى الاندلس خاصة وان الاتفاق استمر بعد قلاوون لفترة طويلة (٦٩٩هـ - ٧٣٠هـ ، ١٣٠٠م - ١٣٣٠م) تصاعدت فيها عمليات الاسترداد المسيحى للاندلس (كما سنرى) .

---

٢٧) P. M. Holt : op. cit. pp 159 - 162 , 165 - 167 . - وانظر أيضا :
- Andrew Ethrenkreutz : "Strategic Implications of the Slave Trade between Geneoa and Mamluk Egypt in the Second Half of the Thirteenth Century", in: A.L.Udawitch (ed) . The Isalmic Middle East, 700 - 1900 , Studies in Economic and Social History. The Darwin Press, Princeton, 1981 , pp335 - 345 .

٢٨) - P. M. Holt : op . cit . pp .165 - 167 .

الفصل الثانى

تطورات العلاقات المملوكية الافرنجية وبداية الموجة الثانية من الفتوح الإسلامية الكبرى مع الفتوح العثمانية فى أوروبا

الفصل الثانى

تطورات العلاقات المملوكية الافرنجية وبداية الموجة الثانية من الفتوح الإسلامية الكبرى مع الفتوح العثمانية فى أوروبا

مقـدمـة :

أضحت الدولة المملوكية ومنذ القرن ٧هـ /١٣م – ولمدة ثلاثة قرون تقريبا – مركز الخلافة الإسلامية وان لم تكن تهيمن على كل الأنساق الفرعية الدولية الإسلامية . ولقد ظلت ولمدة مايقرب من القرنين تمثل القوة العسكرية الأولى فى العالم الإسلامى وأكثر النظم التى عرفتها مصر منذ الفتح العربى الإسلامى قوة ونفوذا [١] ولقد قادت الدولة المملوكية علاقات ذات طابع خاص ومتجدد مع الممالك المسيحية حول حوض المتوسط طوال القرنين السابع والثامن الهجريين (١٤ و ١٥م) وفى المقابل كانت تغيرات جذرية تنمو فى أماكن أخرى من العالم الإسلامى وأفصحت مع قرب انتهاء القرن الثامن الهجرى عن تغيرات فى توازن القوى الإسلامية ومن ثم فى العلاقات الدولية الإسلامية (من حيث أطرافها وموضوعاتها) . ولقد ازدادت هذه التغيرات عمقا وتأثيرا خلال القرن التاسع الهجرى (كما سنرى فى الفصل الثالث) . وكان لهذه التغيرات شقان أحدهما سلبى والآخر ايجابى . أما الشق السلبى (أى على مصالح أطراف اسلامية ولصالح أطراف غير اسلامية) فكان امتدادا لتطورات بدأت فى المرحلة السابقة فى الشرق وفى آسيا الصغرى المسلمة وفى حوض الفولجا فلقد تعددت الامارات التركمانية والمغولية التى كانت فى تصارع دائم فيما بينها منذ أن ضعفت ثم تجزأت الدولتان المغوليتان الأساسيتان أى القبيلة الذهبية والايلخانية فى فارس ، ولقد أخذت هذه الامارات تواجه منذ بداية القرن ١٤ الميلادى بداية صحوة امارة موسكو المسيحية والتى تمكنت وبعد عملية تدريجية تصاعدية ولمدة أكثر من قرنين اتمام السيطرة على المنطقة شمالها وشمالها الشرقى قبل أن تبدأ بعد ذلك فى التوجه جنوبها مع نمو دولة روسيا الحديثة . وفى الغرب أيضا أى فى بلاد الاندلس استمرت المسيرة الهشة لامارة غرناطة الكيان الإسلامى الوحيد الباقى فى الاندلس.

وكان لمركز القوة الإسلامية – أى الدولة المملوكية – علائقها وتفاعلاتها مع هذه الفواعل الإسلامية وذلك فى ظل تأثيرات الفواعل غير المسلمة المعنية بهذه المناطق والتى تدخل فى علاقات متنوعة مباشرة مع الدولة المملوكية .

---

١) من الصعب التوقف هنا عند تحليل تفصيلي لمؤشرات عناصر القوة المملوكية كفاعل مركزى اسلامي ، ولكن من خلال تحليل الدور المملوكى فى تفاعله مع الأطراف الخارجية ستتضح لنا هذه العناصر وكيف كانت موضع هجوم متصل خلال القرنين ١٤م ،١٥م وحتى تبلور الضعف والسقوط .

أما الشق الايجابى فكان بمثابة نقطة الانطلاق نحو تحول هام فى تاريخ التفاعلات الدولية الإسلامية. ولقد تمثل فى مولد امارة عثمان والتى كانت نواة الدولة ثم الامبراطورية ثم الخلافة العثمانية . ولقد مثل هذا المولد ونموه علامة صحوة جديدة للاسلام بعد أن تم درء الخطر المغولى الوثنى وتحول المغول إلى الإسلام وبعد أن تم تصفية الوجود الصليبى (كما سبق أن رأينا) فلقد تزامن هذا المولد مع هذين التحولين المتزامنين اللذين أعلنا بوضوح أمرين هامين :من ناحية اتمام انهيار الوجود المسيحى الغربى فى قلب العالم الإسلامى ، ومن ناحية أخرى انتهاء الأمل الأخير فى أن تكسب القوى المسيحية دعما جديدا ضد الإسلام من بين صفوف المغول .

ولقد تمكنت هذه الامارة العثمانية وخلال القرن الثامن الهجرى من تدعيم أركان دولتها وأركان دورها الاقليمى فى آسيا الصغرى وفى شرق أوربا على حساب سلاجقة الروم والامبراطورية البيزنطية والامارات البلقانية . وكانت الهجمة المغولية الثانية مع تيمور لنك على قلب العالم الإسلامى . والتى بدأت فى أواخر القرن ٨هـ وشغلت السنوات الأولى من القرن ٩هـ ، نقطة تحول هامة فى مسار التطورات التى جرت طوال القرن الثامن الهجرى وماكان يمكن أن يسفر عن استمرارها من نتائج بالنسبة لميزان القوى الإسلامية (وخاصة المملوكية العثمانية) وميزان القوى الاسلامية – المسيحية (الآثار على الفتح العثمانى فى أوروبا وعلى قدرة المماليك على مواجهة موجة جديدة من الخطر الصليبى). ومن ثم فإذا كان التحليل فى هذا الفصل يبدأ من٦٨٨هـ -١٢٩١م بالنسبة لتفاعلات المماليك ، ومن ٦٩٩هـ – ١٢٩٩م بالنسبة لامارة عثمان ومن ١٢٩١م – ١٢٩٥م بالنسبة للمغول ومن ٦٨٨هـ تاريخ انهيار الموحدين بالنسبة للاندلس وشمال أفريقيا فإنه ينتهى بالنسبة لنفس المحاور على التوالى كالآتى : ٧٨٤هـ بداية المماليك الشركس ، و ٧٨٩ هـ بداية بايزيد الأول / معركة نيكوبوليس ، ٧٩٥ هـ دخول تيمور لنك لبغداد [٢] .

والمحصلة الكلية للتفاعلات فى كل نسق فرعى اسلامى وفيما بينها عبر هذه البدايات والنهايات هى التى تعكس المسار العام للتطورات فى هذه المرحلة كلها والتى تختلف عن نظيرتها فى المرحلة التالية (القرن ٩هـ ، ١٥م) .

وبالنظر إلى الفاعل المركزى الإسلامى ثم القوة الفاعلة الثانوية (العثمانيين) فى هذه المرحلة يمكن أن نبحث فى أنماط التفاعلات الإسلامية الدولية التى انطلقت منها وحولها . وهنا يجدر الاشارة إلى أن أنماط تفاعلاتهما فيما بينهما من ناحية وانعكاسات سياسات كل منهما على التفاعلات الدولية لأنساق فرعية اسلامية من

---

٢) ولقد سبق فى مقدمة هذا الباب وفى الباب الأول المنهاجى أيضا التنويه إلى مشكلة ومعايير التقسيمات الزمنية للتطورات الكبرى .

ناحية أخرى ، محدودة المساحة في الأدبيات الثانوية العربية والأجنبية التي درست تاريخهما ، وعلى العكس فلقد كانت علاقات كل منهما المباشرة مع أطراف غير مسلمة موضع اهتمام شديد ومن ثم كان التركيز على العلائق المملوكية الافرنجية (العسكرية والسلمية) وعلى أعمال الفتح العثماني ومحورها آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، اذ كانت الدولة المملوكية هي محور الدبلوماسية الإسلامية ازاء دول الغرب المسيحي في حين كانت الامارة العثمانية هي محور موجة الفتح الإسلامي الجديد .

ولذا فان هذا الفصل يحاول الاجابة عن الأسئلة التالية :ماهي أبعاد تفاعلات كل من هذين الفاعلين الاسلاميين مع الطرف الآخر ؟ وماهي العوامل التي تفسرها وما مدلولاتها بالنسبة لنمط العلاقات المسيحية الإسلامية في القرن الثامن الهجري ؟ . وماهو نمط العلاقات فيما بين هذين الفاعلين ومدلولاتهما بالنسبة لوضع فواعل اسلامية أخرى (المغول ، الاندلس)؟

وتنقسم الاجابة بين ثلاثة مباحث :المبحث الأول حول تطورالعلاقات المملوكية الافرنجية (٦٨٨هـ - ٧٨٤هـ /١٢٩١م -١٣٧٨م)، والمبحث الثاني حول مولد الدولة العثمانية وتطور دورها الاقليمي في الأناضول والبلقان (٦٩٩هـ - ٧٨٩هـ /١٢٩٩م - ١٣٨٩م)، أما المبحث الثالث فيقدم نماذج ثلاثة لنظم التفاعلات الإسلامية - الإسلامية ، المملوكية - العثمانية ، المملوكية - العثمانية - المغولية ، المملوكية - الاندلسية في ظل التفاعلات الأوروبية حول هذه الأنساق الفرعية الإسلامية في آسيا والاندلس وشمال أفريقيا .

المبحث الأول : تطورات العلاقات المملوكية - الافرنجية : توجه وأساليب جديدة :

من النتائج الهامة والبارزة في دراسة وتحليل المصادر الغربية لتاريخ الدولة المملوكية تلك التي تقوم الممارسات الدولية المملوكية بأنها أحدثت تطورا بعيدا عن أركان النظرية الإسلامية التي تحكم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، أي بعيدا عن مفهوم الجهاد ونحو اقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع الفواعل الأوروبية . لقد سبق وناقشنا في نهاية الفصل السابق السياق الزماني والمكاني لبداية هذه الممارسات التي امتدت بعد ذلك في القرن ٨هـ /٩هـ ولكن في ظل سياقات متطورة. ومن ثم فان دراسة تطورات العلاقات المملوكية - الافرنجية تتطلب النظر إلى الاطار أو التوجه العام لهذه العلاقات والعلاقات المسيحية - الإسلامية بصفة عامة والمؤثرات

عليها[٣]، وهذا هو موضوع المطلب الأول وعلى نحو يلقى الضوء على الوجه الآخر للعملة المشار إليه عاليا وهو هل تخلى الغرب عن صليبيته ؟ كما تتطلب البحث فى أساليب ادارة هذه العلاقات من الجانبين المملوكى والافرنجي على النحو الذى يمكننا مرة أخرى من تقويم هذه النتيجة المشار اليها عاليا بوجهيها (هل تخلى المماليك عن الجهاد ؟ وهل تخلى الغرب عن صليبيته؟) وذلك على ضوء أنماط هذه الأساليب وما أسفر عنها من تفاعلات . وهذا هو مضمون المطلب الثانى .

المطلب الأول : الاطار والتوجه العام للعلاقات الإسلامية – المسيحية والمؤثرات عليها :

شهدت الأوضاع العالمية وأوضاع كل من الطرفين المملوكى والافرنجى تغيرات هامة مع نهاية العصور الصليبية التقليدية (نهاية القرن ٧هـ) ولقد برز من ثنايا هذه التغيرات وزنٌ متزايد الأهمية للعلائق الدبلوماسية والتجارية إلى جانب أنماط العلائق الصراعية – العسكرية التقليدية وعلى نحو عكس تطورا فى مضمون وأهداف العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحى .

بعبارة أخرى مع انتهاء الصورة التقليدية للحروب الصليبية فى وسط العصور الوسطى الأوروبية بدأت أوضاع متغيرة ولدت أفكارا ومعطيات جديدة لدى الأطراف المسيحية ولدى الطرف المملوكى أدت إلى ظهور نمط جديد من العلاقات لم ينه الصراع السياسى والعقيدى القائم بين العالمين المسيحيين ولكنه أفرز أدوات جديدة لادارته . حيث أن المرحلة الزمنية التى تبدأ منذ القرن ٨هـ (والتى عرضنا لجذورها منذ منتصف القرن ٧هـ فى الفصل السابق وسنعرض لباقى تطوراتها فى الفصول التالية) قد شهدت وعلى عكس العصرين الأموى والعباسى تطورا فى طبيعة العلاقات السلمية بين مراكز القوة الإسلامية والطرف الآخر وتطورا فى قنواتها والدوافع اليها . فلقد أخذت هذه العلاقات السلمية دفعة قوية مع نهاية الحروب الصليبية واتسمت بطابع وسمة خاصة مع الطرف المملوكى ثم العثمانى . فما هى الأسباب التى أفرزت هذا النمط وكيف تم تقويمه ؟ .

فعلى حين رأى البعض أن هذا النمط وأدواته الجديدة هى نهاية فعلية للروح الصليبية فان البعض الآخر لم ير فيها الا مجرد قناع جديد لهذه الروح ، وفى حين رأى البعض فيها انتهاءً للجهاد الإسلامى لدى المماليك فان البعض الآخر رأى فيه جهادا بأساليب جديدة فما هى اذن الأسباب التى أفرزت هذا النمط ؟ وكيف تم تقويمه ؟ .

---

٣) ويعكس هذا الاطار والتوجه العام مدلولات مناظرة بالنسبة للعلاقات العثمانية الأوروبية أيضا .

(١) تتعدد الاسهامات عند الاجابة عن الشق الأول من هذا السؤال ، ويمكن أن نقدم النماذج التالية لها ٠ فمن ناحية يقوم منظور البعض [٤] على أن فهم أبعاد التطورات فى نمط التفاعل ، والذى لم يعد يقتصر فى نظر الأوروبيين والمسلمين على الأداة العسكرية فقط نظرا لاتساع نطاق الاتصالات التجارية والدبلوماسية والشخصية ، يقترن مباشرة بالتطور فى درجة اهتمام كل طرف بمعرفة أحوال الطرف الآخر ٠ فبالرغم من متاخمة حدود العالمين الإسلامى والمسيحى لمدة أربعة قرون أو يزيد فان معرفة كل فريق بالآخر كانت ضئيلة غاية الضآلة وخاصة فى مايتصل بتاريخ الشعوب وطبيعة حكومات ونظم كل من الفريقين [٥] . ولكن الالتحام الجديد بين شعوب أوروبا والشعب العربى الإسلامى سواء فى "حركة الاسترداد الاسبانية "أو فى ميادين القتال الصليبية دفع الطرفين إلى محاولة جدية للتعرف على أحوال خصمه وعقائده ونظمه وتاريخه [٦]، ومن ثم بدأت حركة الاهتمام الأوروبى بالتاريخ الإسلامى ليس بدافع البحث العلمى فقط ولكن بداوفع دينية ثم بدوافع سياسية مختلفة ٠ ولقد مهد لهذا الاهتمام وسايره بعد ذلك خطوات متعددة مترابطة تمثل ركناً ركيناً من حركة التبشير أولا ثم حركة الاستشراق بعد ذلك والتى كان يحركها دوافع سياسية أيضا [٧] ، واقترن بهذا التزايد فى المعرفة المتبادلة عبر هذه القنوات سمة جديدة فى حالة الطرف الاوروبى هى خبو الحماسة الدينية (والتى سبق ودفعت الصليبية الأولى) نظرا لضعف شأن البابوية بعد صراعها الطويل مع الامبراطورية ، ونظرا لانفصام عرى الوحدة الدينية والسياسية ، على نحو أثر على أساليب المواجهة مع العالم الإسلامى بعد انتهاء مرحلة النضال الصليبى العسكرى [٨] .

ومن ناحية أخرى :يقوم منظور البعض الآخر على أن فهم أبعاد التطورات فى نمط التفاعل بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى خلال مايسمى الجزء الأخير من العصورالوسطى الأوروبية [٩] انما يرتبط بالتطور فى طبيعة فهم كل طرف للطرف الآخر ٠ وتفيض أدبيات غربية عديدة فى شرح أسباب وأبعاد اختلاف رؤية الغرب للاسلام بعد حروب الجزء الأخير من العصور الوسطى عن رؤيته قبل

---

٤) د٠ جمال الدين الشيال :التاريخ الإسلامي وأثره فى الفكر التاريخى الأوربى فى عصر النهضة ، دار الثقافة ، بيروت ، د٠ ت٠

٥) المرجع السابق ، ص ١٣

٦) المرجع السابق ، ص ١٦ ٠

٧) المرجع السابق ، ص ٩ ٠

٨) المرجع السابق ، ص ٧٩ ٠

٩) " Later Middle Ages " -

– وهو يتطابق وفق تقسيم التاريخ الإسلامي مع العصر المملوكى ٠

هذه الحروب واثنائها . فعلى سبيل المثال يبين البعض [١٠] أن الطاقة التى بذلتها أوروبا فى هذه الحروب وفى بداية استعادة الاندلس لاتقارن بالطاقة التى بذلتها فى الصراعات الداخلية والاقليمية بحيث بدت أوروبا منذ نهاية القرن ١٣م أقل خوفا من الغزو الإسلامى لها . ومن ناحية اخرى بين كيف أن الصليبية لم تكن الابمثابة رد فعل لفهم العصور الوسطى للاسلام والمسلمين والذى كان يعكس طبيعة أوروبا فى هذه المرحلة أى أوربا المسيحية اللاتينية التقليدية وكانت هوية أوروبا ترتبط بقوة بهذه المسيحية حيث أن أوروبا فى هذه المرحلة لم تكن تتميز اقتصاديا وثقافيا عن باقى أجزاء العالم بل لم تكن درجة رخائها العام وقدر مواردها أو قدراتها التكنولوجية أو تطور مدنها يقارن بنظائرها الإسلامية . وفى نفس الوقت لم يكن الإسلام فى نظر أوروبا إلا "بدعة وهرطقة ". ولقد تغيرت هذه الأوضاع بعد ذلك مع التطور فى سبل معرفة كل طرف للآخر حيث زادت معرفة أوروبا بالإسلام مع تزايد التجارة وقنوات الاحتكاك وكان المبشرون والتجار أول صور الامبريالية – بالمعنى الحديث – بل أن الحروب بين أوروبا والترك قد زادت ، وفق هذا المصدر ، من التجارب المشتركة بين العالمين الإسلامى والمسيحى .

(٢) ولكن كيف يمكن تقويم مغزى ظهور هذا النمط :هل هو انتهاء للصليبية وانتهاء للجهاد الإسلامى فى هذه المرحلة ؟ . هنا يمكن أن نميز بين اتجاهين :

أ – اذا كان أحد رواد الدراسات الاستشراقية بصفة عامة (والعثمانية بصفة خاصة) وهو برنارد لويس قد بين كيف أن أحد أهم آثار الحروب الصليبية هو التزايد فى أهمية العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع أوروبا والاتصالات التجارية والشخصية بين المسلمين والمسيحين الأوروبيين والتى كانت من قبل ضيقة النطاق وقليلة الأهمية لدرجة لم تجذب اهتمام المؤرخين المسلمين الأوائل الا أنه أثبت هذا[١١] بعد أن اشار إلى أمرين [١٢] وهما : من ناحية أن أوروبا قد فقدت اهتمامها بالصليبيات وكانت مشغولة بأمور أخرى بالرغم من أن دافع بعض الحملات الفاشلة ضد سلطنة المماليك وضد القوة الجديدة التركية العثمانية كان بقاء شيء من الروح الصليبية فى أوروبا . ومن ناحية أخرى أشار إلى أنه بينما نسي المسيحيون الحرب الصليبية تذكر المسلمون الجهاد ومرة أخرى شنوا حرباً مقدسة ومن أجل الدين أولا ومن أجل استعادة ما

---

١٠) Norman Daniel : Islam, Europe and Empire . The Universty Press Edinburgh Co Ltd , 1966 . pp 7 - 10 .

١١) برنارد لويس :السياسة والحرب فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

١٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

استولى عليه الغزاة الكفار والدفاع عنه، ثم فى حالة النصر ادخال رسالة الإسلام وسلطته إلى أراضى جديدة وشعوب جديدة لم يسبق لها أن عرفتهما من قبل .

ب – وفى مقابل الاتجاه السابق الذى يبرز انتهاء فكرة الصليبية فى نفس الوقت التى تجددت فيه روح الجهاد المقدس يمكن أن نشير إلى اتجاه آخر (١٣) لايقول بانتهاء الصليبية ولكن بتغير طبيعتها وأدواتها تحت تأثير عدة أوضاع جديدة . ويدور هذا الاتجاه حول محورين أساسيين . من ناحية :انه اذا كانت الحرب المقدسة هى تعبير عن روح العصر الوسيط الأوروبى حيث كانت هى السياسة الخارجية للبابوية ومحور دوافع السياسات الأوروبية فى نفس الوقت فانه مع التغير فى علاقات القوى بين البابوية وبين السلطات السياسية ومع تزايد أهمية الاعتبارات القومية والتجارية حدثت تطورات سياسية ودينية واقتصادية على جانب الطرف الأوروبى أدت ليس إلى انتهاء الصليبية ولكن إلى تغير طبيعتها فى القرن ١٤م بالمقارنة بما كانت عليه فى القرن ١١م . فلم يعد بمقدور البابوية اعداد حملة صليبية جديدة كذلك لم تعد الحالة السياسية للدول الاوروبية تمكنها من المشاركة فى هذا السبيل حيث وقعت فرنسا وبريطانيا فى براثن حرب المائة عام التى امتصت واستنزفت مواردهما التى طالما عبئتاهما للحروب الصليبية . هذا ناهيك عن المشاكل الداخلية فى كلتا الدولتين والتى استنزفت جزءاً آخر من طاقة حكوماتهما، كذلك ابتعدت كل من اسبانيا وايطاليا عن فكرة الحرب المقدسة فى الشرق أيضا نظرا لقيام الأولى بمهمتها الصليبية ضد الإسلام فى الاندلس فى حين كانت الجمهوريات الايطالية المتنافسة على أسواق التجارة فى الشرق تعادى فكرة الحرب التى تنال من مصالحها التجارية ولكن لاتمانع فى المشاركة اذا كانت تخدم هذه المصالح. ومن ناحية أخرى خلص هذا الاتجاه إلى أنه فى مقابل الاتجاه الذى رأى فى سقوط عكا نهاية الحرب المقدسة يجب الاعتراف بأن الصليبية استمرت قرنين بعد ذلك تعددت خلالهما مشروعات الهجوم الجديد والتى كان ورائها قوى جديدة وأهداف جديدة حافظت على حياة الصليبية ولو فى صورة جديدة ، ولقد تفاعلت كل من مصر وتركيا مع هذه المشروعات وكان لكل منهما دوره فى فشلها مرة أخرى .

---

١٣) Aziz Surial Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages. Methuen . London . 1938 . pp 3 - 10.

وبالنظر إلى والمقابلة بين هذه التحليلات حول أسباب ظهور النمط الجديد من العلاقات وحول مغزاه بالنسبة لطبيعة هذه العلاقات يمكن ان نخلص إلى أنه فى ظل الأوضاع السياسية والاقتصادية للطرف الأوروبى فى نهاية العصور الوسطى كان بامكان الفاعلين الاسلاميين الأساسيين ، المماليك ، والعثمانيين توظيف هذه الأوضاع لخدمة وحماية الإسلام حيث أن التغير فى طبيعة الصليبية لم يكن يعنى انتهاء الصراع السياسى بين المسيحية والإسلام وبقدر ماأفرزت المرحلة الجديدة من الصراع أساليب وادوات صليبية جديدة بقدر ماواجهتها القوى الإسلامية بنمطين من الجهاد الإسلامي :الفاتح والذى ترجمته الدولة العثمانية والجهادالإسلامى الحامى والذى ترجمته الدولة المملوكية ولو بأساليب سلمية إلى جانب القتالية . فلم تكن تعنى ، كما سنرى . انتهاء للجهاد المملوكى ولكن متابعتة بأساليب جديدة • فما هو اذن نمط علاقات كل من هذين الفاعلين الاسلاميين مع أوروبا على ضوء سياساتهما المتفاعلة مع هذا الاطار العام الذى أثر على تشكيل مسار سياسات أوروبا والذى ترتب بدوره على التطورات على صعيد رؤية وادراك وأوضاع هذا الطرف الأوروبى •

المطلب الثانى : العلاقات المملوكية الافرنجية : بين الدوافع والاساليب الصليبية الجديدة وبين تطور أبعاد الدور المملوكى البرجى (٦٨٨هـ - ٧٨٤ هـ / ١٢٩١م - ١٣٨٤ م) :

على ضوء تحليل التوجه والاطارالعام للعلاقات الإسلامية - المسيحية بصفة عامة ، والمملوكية - الافرنجية بصفة خاصة بعد حلقة تصفية الامارات الصليبية فى الشام نجد أمامنا عملة ذات وجهين، فمن ناحية لم تكف أوروبا عن التفكير فى الاخذ بثأرها من الإسلام وهو الأمر الذى أخذ صورا عدة حتى بداية ونجاح حركة الكشوف الجغرافية ، ومن ناحية أخرى خلفت الحروب الصليبية بين الأوروبيين والمسلمين لونا آخر من العلاقات غير الحرب والعداوة وهو التجارة وتبادل المنافع والاتصالات الدبلوماسية [١٤]، ولقد تداخل الوجهان فى العلاقات المملوكية - الأفرنجية فكانت دولة المماليك فى مصر والشام هى الهدف الأول أمام أوروبا وليس باقى القوى الإسلامية فى حوض المتوسط أو الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى حيث بدأ العثمانيون • ولقد تناوب المبادرة خلال هذه التفاعلات على الصعيد العسكرى والاقتصادى كل من الطرفين كما كانت هذه التفاعلات أما مباشرة مجالها الأساسى هو حوض المتوسط وهذا هو موضع اهتمامنا ، وأما غير مباشرة بمعنى أنها تدور حول أو تتصل ببعض الأنساق الفرعية الدولية الإسلامية الأخرى وخاصة دول المغول فى أقصى الشرق الإسلامى ، وفى الاندلس فى أقصى الغرب الإسلامى وهذا هو موضع اهتمامنا فى المبحث الثالث من هذا الفصل •

---

١٤) د . حسين مؤنس : مرجع سابق ، ص ص ٣٩ ، ٤٠ .

أولا : الأساليب الصليبية الجديدة في مواجهة الدولة المملوكية :

تذكر الدراسات الاستشراقية (١٥) أن المبشرين ورجال المال والاقتصاد ورجال الحرب اجتمعوا على أساليب صليبية جديدة مهدت جميعها لحركة الكشوف الجغرافية التي بدأت منذ نهاية القرن ١٥م وكانت نقطة تحول في التاريخ .

فلقد شهد القرن ١٤م فكر وأدوات جديدة أوروبية لتوجيه ضربات هامة للمسلمين في حوض المتوسط وكانت دولة المماليك هي الهدف الأول ، فلقد تلخص الادراك الأوروبي الغربي في هذه المرحلة (١٦) حول ضرورة ضرب مصالح النشاط التجاري المصري الذي يمثل المصدر الأول لغنى دولة سلاطين المماليك وقوتها بعد احتكار مصر لطريق التجارة الوحيد والآمن والمستقر والبعيد عن سيطرة وتهديد المغول بين الشرق والغرب . ولقد خُطط لتنفيذ هذه الضربة أسلوبين : الأسلوب الأول هو فرض حصار اقتصادي على مصر يحاربها في أعظم موارد ثروتها وقوتها في هذه المرحلة وهي التجارة . ولهذا صدرت المراسيم البابوية لتحريم التجارة مع المماليك وهددت البابوية بتوقيع قرار الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أوامرها من تجار الأفرنج ، وكان اعتقاد البابا قويا بأن حرمان مصر المملوكية من أهم موارد ثرائها سيسهل القضاء عليها عسكريا . ولكن لم يقدر لهذه الخطة البابوية النجاح بسبب تعارض مصالح المدن الايطالية مع هذه الخطة فلقد ظلت جنوة مثلا ، والتي وطدت علاقتها بالدولة البيزنطية بعد انهاء النفوذ اللاتيني والبندقي ، فيها هي المحرك الأساسي لتجارة العبيد التي تدعم الجيش المملوكي بعناصره البشرية الأساسية ، ومن ثم استمرت العلاقة التجارية بين مصر المملوكية وبين ممالك اوروبية عدة ، ولقد اتسم المماليك بقدر من الوعي بضرورة وأهمية توطيد هذه العلاقات (١٧) .

– أما الاسلوب الثاني فهو شن حرب سافرة على الموانئ والسفن المصرية والشامية وانطلق هذا الأسلوب من احياء فكرة مهاجمة مصر عسكريا لاصابة التجارة

---

١٥) المرجع السابق ، ص ص ٣٨ – ٤٠ . (نقلا عن المستشرق أرنست باركر في آثار الحروب الصليبية (في) شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ، مرجع سابق (الجزء الاول)، ص ص ١٤٤ – ١٤٦ .

(١٦) انظر حول تفاصيل هذا الادراك :

– د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مصر في عهد المماليك ، مرجع سابق ، ص ص ٦٩ – ٧٠.

– أحمد دراج :المماليك والافرنج في القرن ٩ هـ – الخامس عشر الميلادي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ص ٧ – ٨ .

– د. عبد العزيز محمود عبد الدايم :الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه المتوسط . في : رؤوف عباس (محرر) : مصر وعالم البحر المتوسط ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٦ ، ص ص ٢٠٥ – ٢٠٧ .

١٧) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

- A. S. Atiya : op . cit . p 8 .

المصرية بالاضطراب بعد أن فشل الأسلوب الأول أى الحصار . وكانت قبرص هى منطلق وقاعدة تنفيذ هذا الأسلوب . فلقد اتخذها مقرا لهم كثير من الصليبيين بعد تصفية اماراتهم فى الشام ولقد ظلت قبرص هى وارمينيا الصغرى مقرا للوجود المسيحى فى الشرق الإسلامى بعد سقوط عكا وحتى استردها المماليك بعد ذلك . ولقد تزعمت قبرص تنفيذ المشروعات الصليبية العدوانية - الاقتصادية والحربية على حد سواء - على مصر والشام بحكم موقعها الجغرافى بين شواطىء المسلمين فى مصر والشام وشواطئهم فى آسيا الصغرى وكذلك بحكم مصالحها الخاصة كمركز تجارى هام وسوق متوسطية للممالك الصليبية الغربية [(١٨)] .

وبالرغم من تعدد المناوشات بين السفن وبين الموانئ والتى تذخر بها المصادر الأوليـة لتاريخ هذه المرحلة ، الا أن هذا الأسلوب تبلور بوضوح فى حادثة غزو الاسكندرية (٧٦٨هـ -١٣٦٥م) [(١٩)]، ولقد أجمعت الدراسات التاريخية على أنه يمثل أهم صور المواجهة العسكرية المملوكية الافرنجية خلال القرن١٤م .

ولقد كان للحملة على الاسكندرية دوافعها العميقة التى تتعدى مجرد اتمام عمل الحصار الاقتصادى ، فهى تعتبر آخر محاولة صليبية لتنفيذ الفكرة الفرنسية التقليدية القائلة بوجوب الاستيلاء على مصر أولا وتحطيم قوتها تمهيدا لهدم القوى الإسلامية فى الشرق واسترجاع بيت المقدس . بعبارة أخرى كانت مصر ، فى ادراك قادة الافرنج، هى مفتاح بيت المقدس ومن ثم فانه مع الاستيلاء عليها لايبقى أى مانع للاستيلاء على بيت المقدس لان مصر ليست دولة غنية فحسب بل لأن المسلمين لن يستطيعوا الحفاظ على أسطولهم فى شرق البحر المتوسط بدونها . ولهذا فقد كان الاستيلاء على الاسكندرية ، المركز الاقتصادى الكبير للتبادل التجارى بين المماليك ودول البحر المتوسط ، هو السبيل لحرمان مصر من مواردها المالية الضخمة ولتدعيم مبدأ الحصار الاقتصادى . ولقد نجح ملك قبرص فى تعبئة مساندة الممالك الأوروبية والبابوية للقيام بحملته على مصر .

ولم تنجح الحملة على الاسكندرية فى تحقيق أهدافها البعيدة . فبالرغم من الدمار والتخريب الكبير الذى وقع فى المدينة إلا أن الملك - بطرس الأكبر - ملك قبرص الذى

---

١٨) محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ٦٦ .

- د. احمد مختار العبادى ، د. السيد عبد العزيز سالم :مرجع سابق ، ص ٣٠٩ .

١٩) أنظر تفاصيل هذا الحدث ودوافعه ونتائجه فى :

- المرجع السابق ، ص ص ٣١٠ - ٣١١ .

- د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الايوبيون والمماليك فى مصر ، مرجع سابق ، ص ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

- د. وفاء محمد على :مرجع سابق ، ص ص ٧١ - ٧٨ .

- د. نظير حسان السعداوى :مرجع سابق ، ص ص ١٦٢ - ١٦٣

- د. عبد العزيز محمود عبد الدايم :الصراع بين القوى المسيحية ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

قاد الحملة انسحب منها بمجرد اقتراب القوات المملوكية منها بعد أن خالفه شركاؤه في الحملة في الرأى حيث قرروا ضرورة الانسحاب حفاظا على المغانم وخوفا من وصول جيش النجدة المصرى .

وكان من أهم نتائج هذه الحملة توتر شديد فى العلاقات بين المماليك والفرنج انعكس على وضع المسيحيين من أهل الذمة والتجار الافرنج فى البلاد الخاضعة للمماليك . ولقد أوضح ابن كثير فى مؤلفه "البداية والنهاية "استنكاره لتحصيل ربع أموال النصارى فى مصر لازالة آثار الحرب التى شنها الفرنج ضد الاسكندرية وقال "ولم تكن هذه الحركة شرعية ولايجوز اعتمادها شرعا وهذا لايجوز اعتماده فى النصارى مادامو باقين على الذمة يؤدون الينا الجزية ملتزمين بالصغار والذلة وأحكام الملة قائمة لايجوز أن يؤخذ منهم درهم واحد فوق مايبذلونه من الجزية" [٢٠]، كذلك أدت الحملة إلى الاضرار بحركة التجارة الدولية حيث فرضت أقطار اسلامية حظر الاتجار مع البنادقة والجنويين فلقد رفض سلطان الدولة المغولية فى فارس والعراق التجارة معهم طالبا منهم أن يثبتوا دخولهم تحت طاعة ملك مصر أولا [٢١]، كذلك اصيبت المصالح التجارية للبنادقة الذين اشتركوا فى الحملة بأضرار بالغة بعد ذلك على عكس الجنويين الذين لم يشتركوا فيها . ولم تتوقف الأعمال العدوانية لملك قبرص على موانى الشام التي فشلت فى إجبار سلطان المماليك على الصلح . ولقد ظل المماليك يرفضون ابرام هذا الصلح حتى بعد موت بطرس الاكبر ، فأمام استمرار سياسة بطرس العدوانية على الموانى والسفن المصرية والسورية استمر اصرار المسلمين على الانتقام وهذا ماتم بعد ذلك على يد المماليك الشراكسة [٢٢] (كما سنرى) .

ثانيا : أبعاد الدور المملوكي فى مواجهة القوى المسيحية الشرقية والغربية :

اختلفت أبعاد هذا الدور وخاصة فى التصدى للأساليب الصليبية الجديدة باختلاف حالة الطرف المملوكى خلال القرن الثامن الهجرى . وكان النصف الأول من هذا القرن هو عصر المماليك العظام وعلى رأسهم الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩هـ - ٧٤١هـ /١٣٠٩م - ١٣٤١م)، أما مايزيد عن الربع الثالث من هذا القرن فهو عصر ضعف ونهاية المماليك البرجية ، وحتى بداية عصر قوة جديد مع المماليك الشراكسة منذ ٧٨٤هـ . ولقد انعكست هذه الاختلافات على الأبعاد العسكرية والاقتصادية للسياسات المملوكية .

---

٢٠) أنظر تفاصيل حادثة الاسكندرية ورد فعل السلطان المملوكي ضد نصارى مصر ورأى ابن كثير فى :
- عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير :مرجع سابق ، ج ١٤ ، ص ص ٣١٤ - ٣١٧ .

٢١) انظر نص هذه الواقعة نقلا عن احد مخطوطات النويرى فى :
- د. مختار العبادى ، د. السيد عبد العزيز سالم :مرجع سابق . ص ٣١٨ - ٣١٩ .

٢٢) المرجع السابق ، ص ص ٣٢٦ - ٣٢٨ .

ويعد عصر الناصر محمد(٣١سنة) من أعظم عصور التاريخ المصرى المملوكى وأكثرها ازدهارا ورقيا واستقراراً حيث تنوعت سياسته مابين الفتح والتحالف والدفاع ومن أهم الأحداث الخارجية فى عهده توجه مصر المملوكية نحو الجنوب ، ثم كانت حملاته المتوالية الأربعة على مملكة النوبة المسيحية والتى تمكنت من اقامة أول ملك مسلم على تلك البلاد [٢٣] . واذا كان التلاحم المباشر بين حدود الدولة المملوكية ومملكة النوبة المسيحية قد أدى إلى صدام مباشر بينهما إلا أن الوضع كان مختلفا بالنسبة لدولة الحبشة المسيحية ومع ذلك فلقد أدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية فى أوائل العصور الوسطى إلى وجود قدر كبير من الاتصالات بين الدولتين ولم تخل هذه الاتصالات من التوترات حيث كان سلاطين المماليك فى مصر يرتابون أحيانا فى العلاقة بين بطاركة الاسكندرية وملوك الحبشة . ولهذا أصروا على أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصالا مباشرا [٢٤] . واذا كانت قوة المماليك فى أواخر النصف الثانى من القرن ٧هـ، ١٣م قد اقترنت بحرص ملوك الحبشة ومطارنتها على كسب ود سلاطين المماليك (بيبرس وقلاوون) [٢٥]، واذا كانت مملكة الحبشة قد انحطت فى القرون الوسطى الأولى فانها لم تلبث أن قويت وازدهرت خلال النصف الأول من القرن ١٤م فى ظل حكم عمدا صهيون الأول (١٣١٢م — ١٣٤٤ م) الذى تزامن تقريبا مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون . ولقد توجه هذا الملك الحبشى باحتجاج شديد اللهجة إلى السلطان الناصر ١٣٢٥م ينعى اليه اضطهاده للأقباط فى مصر ويهدد باتخاذ أجراءات مماثلة ضد العرب المسلمين فى الحبشة وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء ليجيع مصر . غير أن الناصر لم يعبأ بهذا الاحتجاج وطرد السفارة الحبشية [٢٦] . ومن ثم فإذا لم يكن لهذا التطور فى وضع الحبشة من تأثير على العلاقة المباشرة بين الحبشة ومصر فى هذه الفترة حيث ظل حرص البطاركة على كسب ود السلطان وظل السلطان المصرى يهدد ملوك الجبشة بعدم التعرض لجنوب مصر [٢٧] الا أنه كان لعلاقة هذا الملك الحبشى

---

٢٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مرجع سابق ، ص ٢٧٧ .

- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٥٩ — ٦٢ .

٢٤) حول العلاقات بين الحبشة والمماليك فى هذه المرحلة وجذورها السابقة أنظر :

- د. سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥٣ — ٢٥٨ .

٢٥) أنظر رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس ٦٧٣ هـ ونص رسالة بيبرس اليه ، كذلك انظر نص طلب ملك الحبشة من قلاوون الموادعة والصلح فى :

- د. محمد ماهر حمادة :الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكى(٦٥٦هـ — ٩٢٢هـ) ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م ، ص ص ٤٦٨ — ٤٧٠، ٤٨٧ — ٤٨٨ .

٢٦) د. ابراهيم على طرخان " :الإسلام والممالك الاسبانية بالحبشة فى العصور الوسطى "المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ١٩٥٩ ، ص ص١٥-٥٢

٢٧) على سبيل المثال أنظر نموذجا على هذه المراسلات فى نهاية عهد المماليك البرجية مع السلطان برقوق فى:

- ابن حجر العسقلانى :انباء الغمر بأنباء العمر ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، ١٩٦٧ ، الجزء الأول (٧٧٣هـ — ٧٩٩هـ) ، ص ص ٢٣٣ ، ٣١٦ .

بمسلمي الحبشة صدى لعلاقته مع مصر وفي علاقة هؤلاء المسلمين بمماليك مصر أيضا (كما سنرى) .

هذا وفي ظل الضعف الذي أصاب الدولة المملوكية بعد ذلك ، خلال النصف الثاني من هذا القرن ، سنحت الفرصة لملوك الاحباش للاستفادة من البابوية ومن أصحاب المشاريع الصليبية من الافرنج الذين فكروا في الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى أي الحبشة في محاربة المسلمين ولذلك تردد أن ملوك الحبشة قد أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها فيه بطرس الأكبر ملك قبرص ١٣٦٥م [٢٨] ولم تنتـه هذه المحـاولات بل تكررت وبصـورة أوضح ووقع في صميمها العلاقة بين الممالك الإسلامية في شرق أفريقيا وبين الحبشة المسيحية (كما سنرى) .

ومن ناحية اخرى ، وفي مواجهة القوى المسيحية في الشمال الشرقي من مصر والغربي منها كان للناصر محمد سياسته أيضا . فلقد استمر على توطيد علاقاته بالدولة البيزنطية وكان محور العلاقات الهامة بين الطرفين هو سؤال الامبراطور البيزنطي للناصر باعادة كنيسة في بيت المقدس إلى أصحابها بعد تحويلها إلى مسجد في عهد بيبرس ، والتسامح مع أهل الكتاب والسماح لهم بإنشاء عدة كنائس . ولقد كانت استجابة الناصر محمد لطلبات الامبراطور البيزنطي تقترن برفض الامبراطور المشاركة في المشروعات الصليبية الجديدة من أجل خنق دولة المماليك اقتصاديا تمهيدا لاحتلالها حربيا ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة [٢٩] . وإذا كان السلطان الناصر قد إستجاب لمطالب امبراطور بيزنطة فهو على العكس رفض مطالب مناظرة من جانب القوى الغربية التي تناصب دولة المماليك العداء . فلقد سعت هذه القوى أحيانا إلى مسالمة المماليك إما رغبة في التخفيف عن أهل الذمة في مصر أو طمعا في تحقيق سياسة الصليبيين في السيطرة على الأراضي المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم . ومن أهم هذه المساعي لدى السلطان الناصر مراسلات البابا وملك فرنسا شارل الرابع ١٣٢٧م ومن قبله فيليب السادس ملك فرنسا أيضا ١٣٢٠م [٣٠].

ومن بعد الناصر محمد وفي عصر أولاده وأحفاده ، تدهورت أحوال البلاد وعانت بدرجة كبيرة من الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار التي تركت آثارها الواضحة على الحياة السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية وحتى سقوط المماليك البرجية

---

٢٨) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مرجع سابق ، ص ٢٦٠.

٢٩) المرجع السابق ، ص ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

٣٠) المرجع السابق ، ص ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

٧٨٤هـ . ففي ظل هذه الأحوال الداخلية فقدت مصر هيمنتها التي كانت لها في ظل السلطان الناصر وأضحت هذه الأحوال هي شغل الحكام[٣١] ووقعت في ظلها حادثة الاسكندرية المشار اليها سابقا . والمبادرة الخارجية الأساسية للمماليك البرجية قبل سقوطهم كانت اتمام ضم ارمينيا ، فهذه المملكة المسيحية والتي كانت تمثل آخر وجود مسيحي في الشرق كانت على وشك الانهيار في بداية القرن ١٤م وبدلا من أن ينقذها الغرب فلقد تم ضمها نهائيا بواسطة أمير حلب ١٣٧٥م [٣٢] وذلك بعد أن تعرضت منذ بداية هذا القرن وفي عهد بيبرس وقلاوون وطوال عهد الناصر محمد لحملات متعددة لضربها تعاون خلالها المماليك مع مغول الشمال . كما تعرضت لبعض حملات مغول فارس بعد دخولهم الإسلام وبعد أن كانت حليفا لهم ضد المماليك [٣٣] ولقد حركت هذه الحادثة غضب أوروبا وحفزتهم نحو مزيد من الصليبية خاصة وأن هذا الاستيلاء المملوكي قد أدى إلى اغلاق أسواق ارمينيا المسيحية أمام التجارة الغربية على نحو كان له تأثير على تدعيم احتكار مصر لطرق التجارة بين الشرق والغرب. وهذا يقودنا إلى المحور التالي للمبادرات المملوكية .

– اذا كانت المبادرة البابوية بالمقاطعة الاقتصادية لمصر قد فشلت بسبب المصالح الاقتصادية للجمهوريات الايطالية ، فان السلطات المملوكية قد بذلت من جانبها جهودا لاجهاض هذه المقاطعة أو الحصار لتدعيم سيطرتها على طرق التجارة بين الشرق والغرب التي تمر بأراضيها والتي تعد الأقصر والأكثر سهولة ورخصا بالمقارنة بالطرق الأخرى وخاصة البرية عبر آسيا . وبقدر مامثلت هذه الجهود تطويرا لأوضاع سابقة خاصة بتنظيم حقوق وواجبات التجار المسيحيين من ناحية بقدر ما أثارت من ناحية أخرى تساؤلات حول مغزى هذه العلاقة بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية. فمن ناحية :نجد أن مصر المملوكية في القرن ١٤م أي في الوقت الذي لم تكن فيه قد أتمت فيه بعد سيطرتها على تجارة البحر الاحمر ومرافيء الشام كما حدث بعد ذلك في القرن ١٥م ومن ثم بدأت سياسات الاحتكارات المصرية ، نجد أن مصر في هذه الفترة منحت الكثير من الامتيازات التجارية التي تضمنتها المعاهدات التي عقدت بينها وبين الدول التي ينتمي اليها التجار[٣٤] . ولقد عكست هذه الامتيازات تبلورا في

---

٣١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الايوبيون .. ، ص ص ٢٧٧ – ٢٨٢ .

٣٢) د . حسين مؤنس : مرجع سابق ، ص ص ٣٠ – ٣١ .

A.S. Atyia : op . cit . p . 11 .

– د . أحمد علي طرخان : مرجع سابق .

– د . وفاء محمد علي : مرجع سابق .

٣٣) وأنظر على سبيل المثال حول بعض هذه الحملات المتكررة :

–ابن كثير :مرجع سابق ، ج١٣، ص ص ٣٢٧ – ٣٢٨ . ج ١٤ ، ص ص ٩٦ ،١٠٢، ١٥٦ ، ٢٥٢ .

٣٤) د. احمد دراج :مرجع سابق ، ص ٨ .

– د. حسين مؤنس :مرجع سابق ، ص ص ٢٧ ، ٣٠– ٣١

اتجاه تطور كيفية تنظيم العلاقات التجارية بين مصر وبين هؤلاء التجار من دول المتوسط غير الإسلامية . فلقد توسعت مصر فى اعطاء حق اقامة الفندق وهو الحق الذى أضحى يمثل دعامة المعاهدات بين مصر والدول الافرنجية التى تتاجر معها . فقبل هذه الامتيازات وابتداء من القرن ٩م حتى منتصف القرن ١٢م لم تكن التجارة بين مصر وهذه الدول الا تجارة ساحلية حيث تكونت جاليات تجارية فى مدن وسواحل وبنادر البحر المتوسط دون أن تتمكن من الحصول على حق اقامة فندق . وكان ينظم مقام هؤلاء التجار عقد أمان اسلامى للفرد أو الجماعة وبالرغم من أن استمرار هذه العلاقات كان يدل على وعى سلاطين مصر بأهمية توطيد العلاقات التجارية على نحو يخدم ولايضر مصالح مصر السياسية والعسكرية الا أنه لم تظهر جماعات اجنبية مستقرة تتمتع بحقوق مؤسسية الفندق ، ولكن ومنذ منتصف القرن ١٢م تراجعت تدريجيا السياسة الإسلامية التقليدية فى قصر نشاط التجار الاوروبيين على السواحل حيث تطورت ثم اكتملت أبعاد المؤسسة الفندقية حتى أصبحت تمثل ذروة المؤسسات التجارية والمعاملات الدولية والعمود الفقرى للمعاهدات التى عقدتها مصر مع الممالك الأوروبية المتوسطية فى القرنين ١٤ ، ١٥م . ولقد صاغت بنود هذه المعاهدات التصريح للتجار القادمين من دار الحرب بمزاولة أعمال التبادل باعتبار أنها لاتضر الإسلام والمسلمين ، كما صاغت حدود هذه الاعمال التى تحكمها القوانين الإسلامية والشروط التى طالبت بها دول هؤلاء التجار . وكان من أهم تلك المعاهدات تلك التى عقدت مع البندقية والتى ترجع إلى القرن ١٣م – كما سبق الاشارة – ثم تلتها ست معاهدات أخرى فى القرن ١٤م (١٣٠٢ ، ١٣٤٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٦ ، ١٣٧٥) وثلاث معاهدات فى القرن ١٥م (١٤١٥ ، ١٤٢٢ ، ١٤٤٤) وذلك نظرا لازدهار العلاقات التجارية بين مصر والبندقية أواخر القرن ٨هـ ، ١٤م وأوائل القرن ٩هـ ، ١٥م [٣٥] .

ومن ناحية أخرى : فان لطبيعة هذه العلاقات مدلولات هامة بالنسبة لفهم ماكان لمصر يومئذ من شأن فى الشئون الدولية الاقتصادية والسياسية . وبالنسبة لتكييف طبيعة علاقاتها كطرف مسلم مع أطراف مسيحية أوروبية . بعبارة أخرى فان تحليل هذه المدلولات يفرض الاجابة على سؤال هام يعد امتدادا واستكمالا لسؤال سبق طرحة حول مرحلة تصفية الامارات الصليبية [٣٦] وهو هل تعد هذه العلاقات الجديدة نقطة تحول فى العلاقات الدولية الإسلامية – المسيحية بعيدا عن السياسة الإسلامية

---

٣٥) د. صبحى لبيب :الفندق ظاهرة سياسية واقتصادية قانونية . فى :
– د. رؤوف عباس (محرر)مرجع سابق ، ص ص ٢٨٦ – ٢٩٨ .

٣٦) أنظر نهاية المبحث الثانى من الفصل الأول وكان السؤال خاص بمدلول مغزى التحالفات مع أطراف غير مسلمة وكان جزءاً أساسياً من بنود اتفاقاتها يتعلق بتنظيم التجارة .

التي كانت دعامتها فكرة الجهاد والتقسيم إلى دار حرب ودار اسلام ؟ أم أنها ظلت تعبر عن نفس هذه السياسة ولكن بأدوات جديدة لاتنفى طبيعتها السلمية استمرار تفوق وهيمنة دور الطرف الإسلامى ؟

وإذا كان البعض [٣٧] قد رأى أن معاهدات القرنين ١٤ ، ١٥م (كما سبق ورأى البعض) [٣٨] فى معاهدات المماليك خلال النصف الثانى من القرن ١٣ تشتمل على بدايات "الامتيازات الاجنبية "التى وردت فى معاهدات الباب العالى (السلطان العثمانى مع البلاد الصديقة)، وإذا كان البعض الآخر [٣٩] قد أشار فى معرض تقويمه لأبعاد قوة المماليك العسكرية والاقتصادية والدينية أنه من الأمورالمشكوك فيها بقوة أن المماليك قد رأوا مبدأ الحرب المقدسة (الجهاد)بنفس طريقة الإسلام البدائى Primitive Islam الا أنه بالنظر إلى السياق الزمانى والمكانى لهذه المعاهدات ولحالة الطرف المملوكى وأهدافه من ورائها يمكن القول [٤٠] إن هذه الممارسات المملوكية على صعيد العلاقات السلمية التجارية انطلقت من وضع القوة والمناورة وليس الضعف والخضوع ، كما انها كانت تخدم وتدعم المصالح السياسية والعسكرية المصرية فى مواجهة الأعداء من الشرق والغرب على حد سواء ويتضح هذا على ضوء النتائج الثلاث التالية المستخلصة من واقع التحليل التاريخى .

الأولى : تعد هذه الممارسات وغيرها (وخاصة الاتصالات بين المماليك والممالك الاوروبية حول أوضاع الكنائس والأديرة ببيت المقدس ، شئون الأسرى المسيحيين ، أهل الذمة فى مصر) مراعاة للسياسة التى اقتضتها حالة مهادنة الممالك الأوروبية . وبفضل هذ السياسة السلمية قضى المماليك على خطر شديد ربما كان تجدد باتحاد بعض الممالك التى كان لها مصالح أساسية مع المماليك مع غيرهم ممن تحركهم بالدرجة الأولى المشروعات الصليبية [٤١] . بعبارة أخرى اختبرت الدولة المملوكية العلاقات الإسلامية الافرنجية السلمية بميزان استبعاد الخطر الصليبى فى مقابل منح تجارية جديدة وصلت إلى ذروتها مع الفندق ، وكان ذلك تطويرا لتقليد فى السياسة المصرية منذ ماقبل المماليك . فعلى سبيل المثال أضحت البندقية أكبر شريك تجارى

---

٣٧) د. صبحى لبيب :مرجع سابق ، ص ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

٣٨) - P. M. Holt : op . cit . p 166 .

٣٩) - A. S. Atiya : op . cit . pp 20 - 21 .

٤٠) يثور هنا تساؤل حول الرابطة بين هذا النموذج ونموذج الامتيازات العثمانية (كما سيرد فى الباب الرابع) وبين الأصل الإسلامى حول ضوابط العلاقات السلمية التجارية بين المسلمين وغيرهم (الجزء الثانى من المشروع) وهل مثل هذه العلاقات تعنى سقوط فكرة الجهاد ؟ وماهى اذن ضوابطها الشرعية ؟ .

٤١) د . عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ط١ . ١٩٦٦ ، ص ص ٢٠٥ .

لمصـر منذ ان نجـحت فى تحـويل الحـملة الصليـبيـة الرابعـة من الاسكندرية إلى القسطنطينية ١٢٠٤م[٤٢] وهكذا كانت مصر المملوكية تستخدم الأداة التجارية لتحجيم أو القـضـاء على الأسـاليب الصليـبيـة الجـديدة وذلك من خـلال المناورة بالمصـالح الاقتصادية المتضاربة لبعض الأطراف الأوروبية .

أما النتيجة الثانية :فهى أن مصر ، وان كانت تعد واحدة من أغنى الدول فى القرن ١٤م ، ١٥م ، فـان سـر هذا الثـراء لم يكن مكمنه فى داخل مـصـر أى فى عناصـر وموارد النشاط الاقتصادى الداخلى مثل الزراعة . كما لم تتوافر لديها الموارد الأولية اللازمة لاقامة وتدعيم الجيوش فى هذه المرحلة أى الخشب والمعادن والعبيد . ولم تكن أمـوال هذه التجـارة تنفق على اللهو والبذخ فقط وخاصـة فى عصـر السلاطين الأقوياء ولكن كان الجزء الاعظم ينفق من أجل الحفـاظ علـى مسـتوى تدريب الجيش وتسليحه حتى يواجه العدوان الصليبى من الغرب والخطـر المغولى من الشرق (حين كان لايزال قائما حتى منتصف القرن ١٤م) . ولقد كانت هذه التجارة أيضـا سبيل حصـول هذا الجيش على عناصـره الأساسية ، العنصـر البشـرى من المماليك ، والحديد والخشب والمعدات الحـربية والمعادن الثـمينة مـثل الذهب والفضـة والاقتـصـادية مـثل النحـاس والرصـاص والقصدير . ولقد سـاهم التـجار المسـيحيون – وخاصـة الجنوبيون - فى توفير هذه العناصـر مـتحدين بذلك أوامر البابا التى تمنع الاتجار مع مصـر فى هذه العناصر [٤٣] .

أما النتيجة الثالثة : فهى أن امتيازات التجـار المسيحيين الاوروبيين لم تكن مطلقة أو ثابتة ولكنها كانت تتعرض لتقلبات عنيفة مع تغير مـجال العلاقات بين المماليك وبين الدول الأوروبية المسـيحية . ففى حالة اندلاع حرب بين مصـر وبين هذه الدول كانت تغلق الفنادق ويسـجن التـجار والقناصل [٤٤] . وكـان الحـرص على عودة الامـتيازات وانتظام التـجـارة يدفع بعض الأطراف الأوربيـة ذات المصـالح للوسـاطة لدى السلطة المملوكية والتى كان يتـوقف على ارادتهـا عودة الامور إلى ماكانت عليه . فلقد كانت الأداة الاقتـصـادية ذات وزن هـام فى ادارة عـلاقـاتها مع الأطراف الأوروبيـة المتنافسـة المصـالح وبرز ذلك واضـحا عقب الغـارة على مـيناء الاسكندرية ١٣٦٩م حيث احـدثت اضطرابا شديدا فى مصـالح الجمهوريات الايطالية . ولهذا سـارعت البندقية وجنوة لتؤكدا عدم اشـتراكهـما فى الحـملة ولكن السلطان رفض ان يسمح لهـما بالعـودة إلى المتاجـرة الا اذا أعـاد ملك قبرص الأسـرى المسلمين ، ولم يسـتجب السلطـان المملوكى لطلب عقد صلح حتى بعد اطلاق الاسرى [٤٥] .

---

٤٢) د. صبحى لبيب :مرجع سابق ، ص ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

٤٣) - A. S. Atiya : op . cit . pp 18 - 20.

٤٤) د. صبحي لبيب :مرجع سابق ، ص ص ٢٩٩ – ٣٠٠.

٤٥) احمد مختار العبادي ، د. السيد عبد العزيز سالم :مرجع سابق ، ص ٣٢٦ .

المبحث الثاني : مولد الدولة العثمانية وتطور دورها الاقليمى فى الاناضول والبلقان (٦٩٩هـ - ٧٩١ هـ (٨٠٤هـ) / ١٢٩٩م - ١٣٨٩م (١٤٠٥م) :

بعد أن شهدت مصر خلال النصف الأول من القرن ٨هـ /١٤م عصر السلاطين المماليك العظام وفى حين أخذت بعد ذلك خلال النصف الثانى من القرن تلقى هجمات جزئية ومتقطعة من أوروبا المسيحية كانت موجة جديدة من الفتوحات الإسلامية قد بدأت فى شرق أوروبا على يد الدولة العثمانية التى بدأ مولدها كامارة تخوم مع أوائل هذا القرن . ولقد استطاعت هذه الدولة مع نهاية هذا القرن أى بعد أقل من مائة عام من بدايتها أن تستكمل شروط دور قوة اقليمية نشطة وفاعلة لتصبح إلى جانب مصر المملوكية الفاعل الإسلامى الثانى على ساحة التفاعلات الإسلامية الكبرى.

ويقدر ماتثير نشأة هذه الدولة ودوافع توجهها نحو الفتوح والعوامل التى ساعدتها عليها اهتماما خاصا بقدر مايعلن دورها هذا عن بداية العصر الثانى للدولة الإسلامية والذى قادته العناصر التركية المسلمة بعد أن قادت العناصر العربية الموجة الأولى من الفتوح الإسلامية . ومن ثم فان دراسة التفاعلات الإسلامية - المسيحية حول هذا النسق الفرعى الإسلامى المتميز انما تتضمن دراسة الفتوح العثمانية ودوافعها ، عوامل نجاح هذه الفتوح ، والتحول من امارة إلى قوة اقليمية .

المطلب الأول: الفتوح العثمانية :تطورها ودوافعها :

تأسست امارة عثمان فى أقصى الشمال الغربى من الأناضول باعتبارها واحدة من امارات التخوم التركمانية (الترك المسلمين) التى قامت فى مواجهة الامبراطورية البيزنطية المتداعية منذ منتصف القرن ٧هـ أى بعد تفكك سلطة سلاجقة الروم تحت تأثير الهجمة المغولية . ولقد تولى عثمان الامارة بعد وفاة أبيه أرطغرل ٦٨٨هـ وكان قد استقر فى هذه الامارة كمقابل لمساعدته الامير علاء الدين السلجوقى - أخر سلاطين السلاجقة - ضد البيزنطيين . وبدون الدخول فى أصل نشأة وبداية هذه الامارة والذى اهتمت به العديد من الأدبيات [٤٦] يكفى القول بأن عثمان من أصل العنصر المسلم التركى (التركمان) الذى تحرك غربا من وسط آسيا أمام توغل الموجات المغولية ثم استقر فى الاناضول التى تزايدت فيها كثافة هذا العنصر فى هذه

---

٤٦) انظر على سبيل المثال :

- محمود شاكر :مرجع سابق ، ج٨ ، ص ص ٥٩ - ٦٠.
- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي ، دار النفائس ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٨ - ١٩٨٨.
- محمد جميل بيهم :فلسفة التاريخ العثماني ، مطبعة مكتب صادر ، بيروت ، ١٩٥٢ .

الفترة من اعادة تشكيلها السياسى والاجتماعي والعسكرى أى فى ظل ضعف وتفكك سلطة سلاجقة الروم تحت عواقب الزحف المغولى (٤٧) .

ولقد ظلت مسألة نشأة الدولة العثمانية وتطورها فى أقل من مائة عام من امارة تخوم إلى امارة قوية تحكم البلقان وجزءاً كبيراً من أناضول السلاجقة مسألة تثير التساؤلات وتجرى المحاولات لتوضيحها(٤٨) . واذا كان جوهر هذه المحاولات يقع فى صميم اهتمامات دارسى النظم المقارنة وجذورها التاريخية ، فان السلوك الدولى لهذا الفاعل الدولى الجديد هو الذى يجذب اهتمامنا هنا ، حيث كان هذا السلوك هو التعبير الخارجى عن نمو الامارة واتساعها كما انه كان نتيجة دوافع متعددة ، فما هى مراحل هذا التطور وماهى دوافعه ؟

١ - مراحل تطور التوسع والفتوح العثمانية :

تحقق نمو واتساع الدولة العثمانية فى طورين أساسيين :طور التوسع الاقليمى فى آسيا خلال النصف الأول من القرن ٨هـ وطور التوسع عبر الاقليمى نحو أوروبا

---

٤٧) وعن أصل العناصر التركية في وسط آسيا وتطور وضعها في الأناضول منذ عصر السلاجقة وحتي منتصف القرن ٧ هـ أنظر :

- محمد فؤاد كوبريلي :قيام الدولة العثمانية ، ترجمة وتقديم :د. أحمد السعيد سليمان :دار الكاتب العربي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٦ ، المقدمة .

٤٨) انظر تحليل المؤرخ التركي كوبريلي والذي يعد تحليلا أساسيا رائدا حول هذه المسألة حيث ينطلق من عرض ونقد النظريات الاستشراقية التي سادت حول نشأة الدولة العثمانية وتطورها ثم يقدم تحليله ورؤيته الخاصة التي تقوم علي تحليلات اجتماعية اقتصادية دينية لوضع التركمان في الأناضول في القرنين ١٣م و١٤م كما اعتمد علي مصادر لاتقتصر علي كتب الوقائع التاريخية بل تبحث في مشكلات التاريخ الاجتماعي والسياسي علي أساس أنه لن يمكن فهم كيفية قيام الدولة العثمانية في القرن ١٤م بدون دراسة التاريخ الاجتماعي للأناضول في القرن الثالث عشر للوقوف علي منشأ القوي المادية والروحية التي أظهرت الدولة العثمانية وهيأت لها أسباب التطور السريع ، ولقد بنت عديد من الدراسات العربية تحليلاتها علي هذا العمل نقدا أو تعليقا عليه منذ صدوره في شكل ثلاثة محاضرات ١٩٢٤ انظر :

- محمد فؤاد كوبريلي :المرجع السابق .

وحول اضافة اخري في تاريخ دراسة هذه النشأة التي تركز علي كيفية تحول المجتمع إلي كيان سياسي وكيف نجح عثمان في أن يصبح قائداً سياسياً ومؤسس دولة جديدة . أنظر دراسة المؤرخ التركي الشهير :

- Halil Inalcik : The Question of the Emergence of the Ottoman State . Jorunal of Turkish Studies Vo. pp . 21 - 79 .

وحول طبيعة الدولة الناشئة ومدي جمعها بين تقاليد بيزنطية واسلامية تركية وفارسية تتعدد المقولات في ادبيات غربية عديدة . أنظر علي سبيل المثال رؤية أرنولد توينبي في :

- Arnold Toynbee : The Ottoman Empire's Place in World History .(in) Kemal Karpat (ed).The Ottoman State and its Place in World History . Leiden, E. G. Brill . 1974 .

خلال النصف الثاني من القرن. فعند بداية العقد الأخير منه وحين بدأ تيمور لنك تحركه نحو الأناضول ومصر والشام كانت امارة عثمان قد أضحت دولة تحكم سيطرتها على آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان . بعبارة أخرى فان التوسع الاقليمي العثماني قد اتخذ اتجاهين :آسيا الصغرى والبلقان وذلك على حساب الدولة البيزنطية والامارات التركمانية وريثة الدولة السلجوقية المتهاوية ، والممالك البلقانية . ولقد مر هذا التوسع بثلاث مراحل فرعية : (٤٩) .

المرحلة الأولى تمتد خلال النصف الأول من القرن ٨هـ وفي ظل امارة عثمان (٧٢٦هـ) ثم ابنه مراد (٧٦١هـ) واقتصرت فيها الفتوح على الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى حيث سقطت في يد العثمانيين مدن هامة مثل بورصة(٧٢٦هـ – ١٣٢٦م)، ازنيك (٧٣١هـ – ١٣٣١م) وكانت من أمهات المدن في الامبراطورية . وبسقوطها سقط نفوذ الروم في آسيا وسهل امتصاص ماتبقى من الأناضول البيزنطي (ماعدا أزمير) . وفي نفس الوقت لم يكن بمقدور بيزنطة التحرك بفاعلية ضد العثمانيين بسبب انشغالها بالفتن والقلاقل المستمرة في العاصمة وفي البلقان .

وشهدت المرحلة الثانية بداية الفتوح في أوروبا منذ ٧٤٨هـ حين حدث أول عبور للدردنيل. وحتى ٧٥٨هـ تم فتح شبه جزيرة جاليبولي من الجنوب وحتى بحر مرمرة في الشمال وبذا اقام العثمانيون أول قاعدة لهم في أوروبا للزحف منها إلى جنوب شرقي أوروبا (أو الروملي كما كانت تسمى) وهو الأمر الذي أثار مخاوف البيزنطيين والدول المسيحية في غرب أوروبا .

أما المرحلة الثالثة فلقد شهدت خلال العقود الأخيرة من القرن الفتوح في الأناضول وفي أوروبا معا ، وفي أوروبا لم تكن الفتوح على حساب الدولة البيزنطية فقط ولكن الامارات المسيحية البلقانية أيضا ، أما الفتوح في الاناضول فكانت هذه المرة على حساب الامارات التركمانية الإسلامية .

ففي أوروبا استمر فتح وضم املاك الدولة البيزنطية في أوروبا فسقطت أدرنة (٧٦٢هـ –١٣٦١م) وكانت ثان اكبر مدينة بعدالقسطنطينية ، وتم نقل العاصمة

٤٩) تم استخلاص هذا التصور المرحلي من واقع التفاصيل التاريخية في :
- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٦٠- ٧٤ .
- محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١١٧- ١٤٤ .
- د. عمر عبد العزيز :تاريخ المشرق العربي (١٥١٦م – ١٩٢٢م) ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٤. ، ص ص ٣٨- ٤٢ .
- د. احمد عبد الرحيم مصطفي :في أصول التاريخ العثماني ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٢ .
- الشيخ ابراهيم بن عامر بن علي المالكي :قلائد العقيان في مفاخر آل عثمان طبع بمصر ، ١٣١٧هـ.
- تلخيص التاريخ العثماني ، تعريب شاكر الحنبلي ، المكتبة الهاشمية ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ .
Halil Inalcik : The Emergence of the Ottomans .in: P.M. Holt et. al (eds.) : op . - cit . Vo .1 , pp. 266 - 269 , 274 - 277 .

العثمانية اليها لتقرب من ساحة الجهاد فى أوروبا ، ثم توإلى سقوط المدن حتى تم حصار القسطنطينية من جهة الغرب ومن ثم فصلت عن باقى الامارات المسيحية الصغيرة التى تتكون منها شبه جزيرة البلقان ، وبذلك أضحت القسطنطينية منذ ٧٧٣هـ - ١٣٧٢م مجرد تابع للدولة العثمانية تدفع الجزية لها . وبعد أن تلاحمت أملاك العثمانيين فى أوروبا مع املاك الصرب والبلغار والبانيا اضحت هذه الامارات (وخاصة الامارة الصربية وهى الاقوى بينهم والتى سبق ومارست ضغوطها ضد الدولة البيزنطية) الأعداء الرئيسيين للعثمانيين .

ولقد فشل أول رد فعل أوروبى مضاد بقيادة الصرب والبلغار ٧٦٥هـ -١٣٦٤م ومن ثم قبلوا دفع الجزية واستمر هذا الوضع حتى ١٣٨٠م - ٧٨٢ هـ . حتى بدأ السلطان مراد بعد ذلك أى منذ ١٣٨١م - ٧٨٣هـ فى الفتح التدريجى لبلاد الصرب والبلغار بعد جولات عسكرية متتالية . ومع معركة سهل كوسوفو الشهيرة ٧٩١هـ - ١٣٨٩م والتى مازالت ذكراها باقية فى أذهان أوروبا حتى الآن انتهى استقلال الصرب والبلغار نهائيا . ومنذ هذا الانتصار الذى حقق سيطرة وهيمنة العثمانيين على البلقان جنوب الدانوب بدأ صراع عثمانى مع طرف أوروبى مسيحى أخر وهو المجر. كما تصاعدت ردود الفعل الصليبية الجماعية والتى تبلورت فى الاعداد لما عرف بحملة "نيكوبوليس "والتى انتصر فيها بايزيد الأول ١٣٩٦م على نحو مكن من السيطرة على البلقان بأكمله .

ولقد تداخلت هذه الانتصارات العثمانية فى أوروبا مع انتصارات أخرى فى الأناضول ولكن هذه المرة على حساب الامارات التركمانية الإسلامية وريثة الدولة السلجوقية . لقد تم مد النفوذ والسلطة العثمانية بصورة تدريجية استخدمت فيها وسائل متعددة ابتداء من التهديد إلى المصاهرة إلى الضغط وأخيرا الحرب . وكان الصدام العسكرى الأساسى بين امارة عثمان وبين هذه الامارات - التى وصل عددها إلى ست عشرة امارة - هو الصدام مع امارة كراميان أقوى هذه الامارات . فمنذ استيلاء مراد على انقرة ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م والذى كان بمثابة التوسع من منطقة النفوذ المغولى -السلجوقى استمرت التوسعات العثمانية حتى تمكن بايزيد فى نهاية القرن ٨هـ (٧٨٩هـ - ١٣٨٧م) من إحكام السيطرة على الامارات التركمانية فى الاناضول (ماعدا قرة رمان) وفى نفس الوقت استطاع أن يؤمن خطوطه الخلفية من أى بقايا وجود بيزنطية فى الاناضول وذلك بسقوط أزمير آخر مدينة رومية فى المنطقة.

خلاصة القول إن متابعة تطور التوسع العثمانى عبر هذه المراحل وفى هذه الاتجاهات ليوضح لنا عدة أمور وهى :من ناحية أن الهدف الأول للدولة العثمانية فى بداية طور نموها الأول كان اسقاط الدولة البيزنطية وفتح القسطنطينية وكان هذا

الهدف يقتضي تحقيق أمرين : التوسع في أوروبا لاحتواء وحصار القسطنطينية والحيلولة دون أية فرصة لدعمها أو مساندتها من جيرانها والسيطرة على الامارات التركمانية في الاناضول وذلك توحيدا لجهود المسلمين ولقطع الطريق على الروم اذا ماحاولوا التحالف مع هذه الامارات ضد الدولة العثمانية . ومن ناحية أخرى خرجت الدولة العثمانية من هذه المرحلة من التوسع كالقوة الاقليمية الأولى في المنطقة وحل سلاطينها محل سلاجقة الروم باعتبارهم سلاطين الروم . ولقد أوشك هذا التطور أن ينطلق نحو مرحلة أخرى وهي الامبراطورية والهيمنة العالمية لولا غزوة تيمور لنك التي جمدت هذه الانتفاضة لفترة طويلة لما كان لها من آثار متعددة كما سنرى .

٢- دوافع الفتوح العثمانية بين الجهاد والمصالح :

إذا كانت بعض التحليلات تتناقض حول ماإذا كان ارطغرل أبو عثمان هو وقبيلته التي استقرت في شمال غرب الاناضول ٦٨٨هـ كان وثنيا ثم أسلم ابنه عثمان من بعده(٥٠) أم ان هذه القبيلة كانت مسلمة منذ نزوحها من وسط آسيا أمام جحافل المغول في الربع الأخير من القرن ١٣م (٥١)، إلا أن هناك قدراً كبيراً من الاتفاق بين تيارات متنوعة من التحليلات حول الوظيفة الجهادية لهذه الامارة منذ نشأتها ، ومن ثم تلقب زعيمها بلقب الغازي أي المجاهد في سبيل الله . ورغم ذلك ، تتعدد مبررات هذه الوظيفة ، فيبرز البعض تأثير ومغزى (٥٢) الرؤية التي جاءت لعثمان تبشره وتخبره بدوره الجهادي والتي ذكرتها المصادر التاريخية القديمة في حين ينطلق البعض الآخر من تأثير الموقع الجغرافي حيث كانت إمارة عثمان أقرب امارات التخوم إلى الغرب وإلى الحدود مع الامبراطورية البيزنطية ومن ثم (٥٣) توافرت فيها أفضل فرص "الحرب المقدسة "حيث جذبت المتطوعين من جميع أنحاء الاناضول وبذا تمكن العثمانيون حين استجابوا لهذه الفرصة من اقامة امبراطورية عظيمة ذات سلطان هائل (٥٤) أو أن هذا الموقع الجغرافي جعلها تتحمل عبء الكفاح ضد البيزنطيين والذي رأته باقي الامارات جهادا دينيا .

---

٥٠) - J. Glubb : The Lost Centuries : From the Muslims Empires to the Renaissance of Europe (1142 - 1453) , Holder and Stoughton , pp 411 - 421 .

٥١) حول نظرية جيبونز الاستشراقي (الذي اخذ عنها غيره من الاستشراقين) بصدد أن قبيلة عثمان لم تكن مسلمة حين قدمت إلي غرب الأناضول وانها أسلمت بعد ذلك حين استقروا في هذه المنطقة وحول مناقشة محمد كوبريلي التي تدحض هذه النظرية . أنظر :

- محمد فؤاد كوبريلي :مرجع سابق ، ص ص ١٢ . ٢٤ .

٥٢) محمود شاكر :مرجع سابق .

- محمد فريد :مرجع سابق .

٥٣) برنارد لويس :السياسة والحرب ، مرجع سابق ، ص ٢٨٥ .

٥٤) د . عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ص ٣٦ - ٣٧ .

هذا ويرى اتجاه ثالث [٥٥] أنه كان على الاتراك العثمانيين من منطلق اسلامى واجب التصدى للدولة البيزنطية ليدرأوا عن أمتهم الإسلامية الخطر ويخلصوا ثغور الإسلام في كل مكان من السيطرة الاستعمارية الاستيطانية ويطهروا بحار الإسلام من القراصنة الأوروبيين ، وأكثر من ذلك توصيل الإسلام إلى قلب أوروبا .

وفى مقابل هذه التيارات المتنوعة الأسانيد فى تبرير الوظيفة الجهادية نجد اتجاها أخر يبرز دوافع استراتيجية واقتصادية للتوجه العثمانى نحو أوروبا [٥٦] على أساس أن الاتجاه العثمانى نحو أوروبا، والذى استمر ثابتا نحو مايزيد على القرنين قبل أن يتحول نحو الجنوب ، هذا الاتجاه ، الذى يبرز السمة الأوروبية للتوسعات العثمانية ، انما يشير إلى ارتباط الدولة العثمانية من نشأتها بأوروبا . وهو الارتباط النابع من نمو تفاعل عدة عوامل من أهمها العامل الاقتصادى ، حيث تعتبر سهول الدانوب الغنية مطمحا مغريا وعامل جذب لايمكن ان تنافسه بوادى الشام أو هضاب ايران ، كذلك كانت البلقان مصدرا أساسيا لعنصر من عناصر الجيش العثمانى وهو "القوات الانكشارية "ذلك لأن الصقالبة شديدى البأس والمراس كانوا يعدون نواة لجيش قوى تعتمد عليه الدولة الناشئة فى توسيع رقعتها .

بعبارة أخرى [٥٧] لايمكن انكار أن العوامل التى دفعت عثمان ليصبح قائد غزاة هى نفس العوامل التى حركت كل أنشطة التخوم والحملات marches فى غرب الأناضول وهى الحاجة للتوسع والنابعة من ضغوط حركة الهجرة من وسط الأناضول تدهور وضعف نظم الدفاع عن حدود الدولة البيزنطية والاضطرابات الاجتماعية والدينية فى مناطق هذه الحدود فضلا عن رغبة اتراك الأناضول فى الهروب من المغول والبدء فى حياة جديدة .

ومما لاشك فيه أن التفسير الإسلامى " البسيط والتقليدى " لهذا الحدث لايأخذ بعين الاعتبار هذه العوامل المادية فى حين أن "التفسير الإسلامى الرشيد "وان لم ينكر اولوية الاعتبارات العقيدية إلا أنه لايمكن أن يلغى العوامل المادية[٥٨] .

المطلب الثانى : عوامل نجاح الفتوح وتطور الإمارة إلى قوة اقليمية :

تداخلت تأثيرات مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية بحيث أدت إلى تطور الامارة العثمانية لتصبح قوة اقليمية تملأ الفراغ السياسى والعسكرى فى المنطقة

٥٥) محمود ثابت الشاذلي :المسألة الشرقية دراسة وثائقية في الخلافة العثمانية (١٢٩٩ -١٩٢٣م) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ ، ص ٣٩ .

٥٦) محمد عبد المنعم الواقد :الغزو العثماني لمصر ونتائجه علي الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، د . ت ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .

٥٧) - H. Inalcik : op . cit . pp 267 - 269 .

٥٨) أنظر المطلب الأخير من الباب الأول (المدخل المنهاجى) لهذا الجزء من المشروع .

والناجم عن تهاوى الدولة البيزنطية والدولة السلجوقية الرومية . ولم تكن العوامل الخارجية والنابعة من الأوضاع الاقليمية فى الاناضول وأوروبا لتحدث تأثيرها بدون توافر العوامل الداخلية أى توافر عناصر القوة التى اجتمعت لدى امارة عثمان والتى ساهمت فى تطورها على نحو ميزها عن ماعداها من الامارات الإسلامية المحيطة ثم ميزها عن غيرها من الدول الإسلامية الكبرى . ولقد مارست هاتان المجموعتان من العوامل [٥٩]، وخاصة العوامل الخارجية ، تأثيراتها - كما سنرى - باعتبارها اما عوامل محفزة ومسهلة توفر فرصا وامكانيات أو عوامل معقدة وضاغطة . ولقد استمر تأثير هذه العوامل - ولو فى صور وأشكال مختلفة - خلال المراحل التالية من تطور الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية سواء التى شهدت هيمنة ومركزية الدور العثمانى فى النظام الدولى أو المراحل التى انتقلت فيها الدولة العثمانية إلى حالة الضعف والتدهور وحتى السقوط [٦٠] .

أولا : العوامل الداخلية : عناصر القوة الذاتية : [٦١]

كانت ترجمة دوافع التوسع والفتح فى أوروبا إلى واقع ملموس تقتضى قوة متعددة الأبعاد تحقق الأهداف وتوصل للغايات ، وتبلورت القوة العثمانية فى عدة عناصر . وبقدر ماكانت هذه العناصر هى مبعث الصعود خلال القرون الثلاثة الأخيرة من عمر هذه الدولة كذلك أضحت تدريجيا مبعثا للهبوط التدريجى خلال القرون الثلاثة من عمرها وحتى السقوط فى بداية القرن ٢٠م. وكما جمعت الدوافع بين العوامل العقيدية والمادية فأن عناصر القوة أيضا قد عكست هذه الرابطة . وتتلخص هذه العناصر فى الآتى :

٥٩) من الجدير بالملاحظة أن المصادر الثانوية العربية قد ركزت علي مصادر القوة الذاتية وروح الجهاد في حين ركزت المصادر الثانوية الغربية علي العوامل الخارجية وخاصة الاختلافات والانقسامات الأوروبية . وهذا تعبير عن نوع من الثنائية التي انقسمت بينها المصادر وخاصة فيما يتصل بوزن العوامل العقيدية بالمقارنة بالعوامل المادية .

٦٠) وكما بدأناها بالتوقف عند عناصر القوة الذاتية وراء الصعود العثماني فسنقف في الفصل الثاني والثالث من الباب الرابع عند عوامل الضعف والسقوط الداخلية - أما العوامل الخارجية المؤثرة علي الصعود والهبوط فهي تشغل محور التحليلات نظرا لتركيزنا علي الأبعاد الدولية للسياسات . والجدير بالملاحظة أيضا أن الأدبيات التي تناولت عناصر قوة ونجاح الدولة العثمانية تتسم بالاطلاق حيث لاتحدد أقصي مراحل القوة أو الضعف في حين أن الأدبيات التي تعرض لتطور تاريخي للسياسات العثمانية الداخلية والخارجية فهي تشير إلي عناصر القوة والضعف في صورة متناثرة بين تفاصيل الأحداث التاريخية بحيث يمكن من خلال المتابعة التراكمية لهذه العناصر أن نصل في مواضع معينة في نهايات الباب الرابع إلي تقديم رؤية حول مرحلة الضعف، كما نقدم هنا رؤية حول مرحلة بداية القوة .

٦١) حول العوامل الداخلية وراء نشأة وتأسيس الدولة وتحديد طبيعتها انظر :

- محمد فؤاد كوبريلي :مرجع سابق ، ص ص ١٨٢ - ١٩٢ .

١ - قوة روح الجهاد وخدمة الإسلام :

كان التمسك بالجهاد منطلق الجهود العثمانية ومبعث نجاحها . فلقد جذب اقدامهم عليه عددا غير قليل من المتطوعين من مختلف الامارات التركمانية الذين عبأهم شعور اسلامي دافق وعاطفة متأججة [٦٢]، ومن ثم توافر للقيادة العثمانية موارد بشرية هامة وعبئت طاقات اضافية أكبر من طاقاتها الاصلية [٦٣] ولقد جسدت هذه العملية لدى البعض [٦٤] ثقافة مناطق التخوم أي الثقافة التي سيطر عليها مفهوم الجهاد الإسلامي أو الغزو . فلقد كان الجهاد هو حجر الزاوية في سياسة الدولة العثمانية التي سيطر تقليد غزاة التخوم على كل تاريخها ومثل المبدأ الأساسي وراء كل سياساتها وتنظيماتها . وكان مفهوم "الغزو "يثير حماسة ومبادرة الفرد والمجتمع ولذا قام العثمانيون بنجاح وجدية بواجب حماية ونشر الإسلام .

٢ - نظام الجيش

كان الجيش العثماني القوي ، تدريبا وتنظيما ، هو أداة الجهاد . وكان عماده هو نظام الانكشارية، فلقد ابتكر العثمانيون في عهد اورخان -ابن عثمان- سبيلا يضمن لهم جيشاً دائماً يحسن الحرب والجهاد مستغلين في ذلك أرض الروم التي يعتبرونها من الوجهة الشرعية دار حرب وجهاد ويسوغ فيها الاسترقاق . فقام العثمانيون باسترقاق الاطفال الصغار من الأراضي المسيحية والذين أودعوهم مؤسسات خاصة لتنشئتهم تنشئة عسكرية واسلامية وعرف هذا النظام بالانكشارية والذي يعتبره بعض المؤرخين أول جيش دائم عرفه التاريخ [٦٥] . وفضلا عن خدمة غاية الجهاد والحرب أساسا كان هذا النظام الجديد يضمن عدم انفصام عرى الوحدة العثمانية حيث لاتحزب لفريق من الجند إلى القبيلة التابع لها لأن افراده لايعرفون أبا الا السلطان ولاحرفة الا الجهاد، وبقدر ما ارتقى هذا الجيش وزاد عدده حتى صار لا يعول الا عليه في الحروب وأضحى من أهم وأكبر عوامل امتداد سلطة ونفوذ الدولة العثمانية ، بقدر ماكان بعد ذلك سببا من أهم أسباب تأخر الدولة وتقهقرها [٦٦] .

ومن ناحية أخرى أهتم العثمانيون بمسألة التدريب وتعليم فنون الحرب والمهارات الحربية والتكتيكات المتميزة للانكشارية وذلك في وقت كان فيه فن الحرب قد تلاشى من

---

٦٢) د. محمد مصطفي رمضان :العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، الجزء الاول ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، ١٤٠٥ - ١٩٨٦ ، ص ص ٥٨ - ٥٩ .

٦٣) - M. G. Hugdson : op . cit . o 4 - 283 .

٦٤) - H. Inalcik : op . cit . p 269 - 270 , p 283 .

٦٥) د. محمد مصطفي رمضان :مرجع سابق ، ص ٦٠ .

- ساطع الحصري :البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين ، بيروت . ط٢ ، ١٩٦٠، ص ص ٦١ -٦٧ .

٦٦) محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

أوروبا . كذلك بادر العثمانيون باستخدام المعدات الحربية الحديثة وظهر ذلك جليا فى المراحل التالية من الفتوح ، ولقد كان اهمال العثمانيون لهذه الأمور جميعها بعد ذلك من أهم عوامل التأخير وتراجع القوة بالمقارنة بأوروبا خلال القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الدولة [٦٧] .

٣ - الروح العسكرية وضوابط الشريعة الإسلامية لاعمال الفتح ومعاملة أهل الذمة :

اجتمع للعثمانيين إلى جانب العاطفة الدينية الجياشة روح عسكرية طاغية تجلت كسمة بارزة للاتراك العثمانيين ، ولقد استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الرعوية الأصلية فى سهول وسط آسيا [٦٨] واذا كان البعض قد وصفوها بالقسوة والغلظة المستمدة من الخصائص الوراثية لشعوب الرعاة، الا أن مصادر أخرى - من بين المؤرخين المسلمين والمسيحيين على حد سواء- قد نظرت اليها فى ضوء تأثير المعتقدات الدينية عليها ، وهو التأثير الذى سهل من ودفع بالفتح العثمانى فى البداية .

فلقد اقترنت الروح العسكرية العثمانية والسلوك الحربى بالسلوك الاخلاقى المستمد من الشريعة الإسلامية وظهر ذلك بصفة خاصة فى مسلك العثمانيين خلال الفتوح من ناحية وفى معاملاتهم لأهل الذمة من ناحية أخرى .

فمن الناحية الأولى ، ووفقا لمؤرخ مسلم [٦٩] ، فان اخلاقيات الحرب عند العثمانيين قد استلهمت روح القرآن وأعمال السنة عند قتالهم اعدائهم مما رخص الموت فى أعينهم من ناحية وجعلهم فى نفس الوقت يطيعون الضوابط الشرعية فكانوا يراعون الرفق بالأسرى والنساء والاطفال ولايغدرون بالايمان ويحترمون ويرعون العهود الممنوحة لغير المسلمين.

ومن الناحية الثانية ، ووفقا لمؤرخ تركى [٧٠] ، فان الأتراك قد نهجوا نهج الراشدين فى الحكم والفتح حيث كانوا اذا نزلوا للفتح يخيرون العدو بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، فمن أمن كان له مالهم وعليه ماعليهم ، ومن رضى بالجزية ضموهم إلى جسم الامبراطورية مع احتفاظهم بالحرية الدينية والاستقلال فى الشئون الدينية ولايؤدون لقاء حمايتهم إلا الجزية عن الانفس والخراج عن الأرض . ولم يكن هذا التسامح مقصورا على الذين يرضون بالجزية طوعا وانما كان يشمل أيضا الأمصار المفتوحة قسرا بعد رفضها الإسلام والجزية ودخولها الحرب . ومن أبرز الامثلة على ذلك عملية فتح القسطنطينية . هذا وكان الفاتحون من آل عثمان يقنعون بالسيادة والجزية

---

٦٧) محمد جميل بيهم :فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .

٦٨) د. محمد مصطفى رمضان :مرجع سابق ، ص ٦٠ .

٦٩) حسن لبيب :تاريخ الاتراك العثمانيين ، مطبعة الواعظ ، القاهرة ، ١٩١٧ ، ص١٨.

٧٠) محمد جميل بيهم :مرجع سابق ، ص ١١٩ - ١٢٧ .

ويتركون أحيانا لحكام البلاد المفتوحة أمرها بما فيه استقلالها السياسي . فعلى سبيل المثال ترك السلطان مراد الأول أسيره ملك البلغار أميرا على نحو نصف مملكته ، وكذلك نصب بايزيد الأول -ابن مراد الاول- ابن ملك الصرب مكان أبيه على مملكة الصرب .

ولقد أكدت عدة مصادر غربية تاريخية هذه التوجهات فأبرز البعض [٧١] كيف كانت ممارسات اورخان ومراد تشجع التحول إلى الإسلام بكل الطرق السمحة التي تعيد التذكرة بمسلمي القرون الأولى الهجرية وليس بالمذابح والحرائق التي كان يقترفها المماليك ، وكيف سعى مراد إلى اكتساب ولاء الخاضعين له بحيث أن اعداداً كبيرة من المسيحيين الارثوذكس من البلقان انضمت للقتال في صفوفه ، وكيف كان يظهر احترامه للكنيسة الكاثوليكية . كذلك أشار البعض الاخر [٧٢] إلى أن التزام الغزاة العثمانيين بالقواعد الإسلامية التي تحضهم على قتال الكفار حتى يسلموا أو يصبحوا ذميين فيتمتعون بالحماية العثمانية ، كيف أن هذا الالتزام قد ساعدهم على توسيع امبراطوريتهم حيث اختار سكان الأراضي المفتوحة الدخول تحت حمايتهم والتخلي عن الحماية غير الفعالة للدول المسيحية . ولقد فصل المستشرق توماس ارنولد [٧٣] في بيان أسس التسامح في علاقات الاتراك برعاياهم المسيحيين والجهود التي بذلها الاتراك في نشر الإسلام والعوامل التي ساعدتهم في ذلك وادت إلى تحول الارقاء المسيحيين إلى الإسلام .

واذا كانت بعض المصادر الغربية والمصرية[٧٤] قد أبرزت الاختلاف بين العثمانيين والمماليك من حيث التفاعل مع أهل الذمة على أساس أن المماليك كانوا أكثر قوة واساءة وكان التسامح لديهم هو الاستثناء ،فلقد ظلت قضية مدى تسامح وتعصب العثمانيين ضد أهل الذمة (مدى الالتزام بالقواعد الإسلامية في أعمال الفتح) موضع اهتمام الأدبيات المختلفة وخاصة في مرحلة الضعف العثماني والتي ثارت فيها ماعرف بالمسألة الشرقية . وعند الوصول بالتحليل إلى هذا الموضوع سيمكن لنا مناقشة المقولة المشار اليها عاليا عن هذا الاختلاف بين المماليك والعثمانيين [٧٥] .

٤ - توافر أركان نظام سياسي قوي :

فمن ناحية قدم البيت العثماني طيلة مايزيد على الثلاثة قرون - وهو ماعجزت عنه كثير من الأسر الحاكمة في دول أخرى - مجموعة من الحكام الأقوياء الذين نجحوا

٧١) - J. Glubb : op . cit . pp 418 - 419

٧٢) - H. Inalcik : op . cit . p 283 .

٧٣) توماس ارنولد :مرجع سابق ، ص ص١٧١ - ٢٠٠ .

٧٤) - A.S. Atyia : op . cit . p 275 .

.- J. Glubb : op . cit . p 416

٧٥) انظر الباب الرابع الفصل الثالث ، المبحث الأول ، العلاقات الأوروبية الشرقية .

فى جمع أحسن العناصر لتنفيذ سياساتهم [٧٦] ، ومن ناحية اخرى احتفظت الامارة العثمانية - خلال فترة نموها وبناء دولتها - بوحدتها السياسية . فإذا كانت امارات التخوم قد اظهرت حركتها المشتركة اثناء الغزو روح الوحدة والمساعدة فيما بينهم إلا أن هذا لم يمنع الانقسامات داخل كل امارة حيث أن التقاليد التركية القديمة تقتضى تقسيم الأمير لامارته بين اولاده على أن يحتفظ هو بالحكم فى المركز، وعلى العكس فان العثمانيين ونظرا للمخاطر العديدة التى واجهتم بحكم موقعهم المتقدم فى مواجهة العدو، حافظوا على وحدتهم [٧٧] . ومن ناحية ثالثة نهج السلاطين العثمانيون الأوائل تنظيما محكما لترتيب واقرار الأوضاع بعد الفتح ، فقد اعتاد عثمان واورخان ومراد العودة إلى مقر السلطنة بعد فتح عدة مدن حتى يتم تنظيم مافتح ويعيد تنظيم جيوشه[٧٨] . بعبارة اخرى [٧٩] فان العثمانيين - بخلاف باقى الغزاة الآسيويين - لم يتابعوا الحروب ابتغاء الانتصارات المتوالية والغنائم فقط ولكن حرصوا على تنظيم وترتيب الأقاليم المفتوحة بحيث أضحى لها أساس وطيد مشترك ولم تكن مجرد مجموعة متفرقة من الاقاليم .

ومن ناحية رابعة اتسم السلاطين الاوائل بالمهارة السياسية والدبلوماسية فى توظيف الظروف السياسية للعدو والأراضى المفتوحة ، فعلى سبيل المثال [٨٠] قاموا عند الضرورة بنقل وتحريك السكان المسلمين لبعض الأماكن لتوفير الكوادر الإسلامية كما حدث فى بداية العبور لأوروبا ، كذلك استطاع مراد الأول الذى تحقق فى عهده التوسع الأساسى فى شرق أوروبا أن يستغل بمهارة النزاع بين امراءالأسرة الحاكمة البيزنطية والعداء المتبادل بين الصرب والبلغار ، وبين جنوة والبندقية [٨١] وهذا يقودنا إلى العوامل الخارجية .

ثانياً : العوامل الخارجية : الأوضاع فى أوربا وآسيا الصغرى :

ساعدت مجموعة من العوامل الخارجية على نجاح توظيف الدولة العثمانية لعناصر قوتها الذاتية لخدمة أهداف الجهاد الإسلامى . وتنقسم هذه العوامل إلى محورين : احدهما يتصل بأوضاع أسيا الصغرى المغولية والتركمانية ، والآخر يتصل بأوضاع أوروبا (البيزنطية / البلقانية / الغربية / اللاتينية)

---

٧٦) د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ٢٨

٧٧) - H. Inalcik : op . cit . p 272 .

٧٨) محمد فريد :مرجع سابق ، ص ١٣١ .

٧٩) حسين لبيب :مرجع سابق ، ص ١٤ .

٨٠) - M. G. Hudgson : op . cit . p 425 .
- J. Glubb : op. cit . p 416 .

٨١) - Ibid . p 420

١ - أوضاع آسيا الصغرى :

تتصل هذه الأوضاع بطرفين أساسيين :المغول من ناحية والامارات التركمانية من ناحية أخرى ، ولقد كان لهذه الاوضاع تأثيرها الايجابي أي المساعد لنجاح لتوسع العثماني ، كما كان لها تأثيرها السلبي المعاكس في أحيان أخرى ٠

أ- ولقد ارتبط التأثير المغولي (مغول فارس) بحقيقة الوجود المغولي في هذه المرحلة في هذه المنطقة، اذ وقعت بلاد سلاجقة الروم منذ نهاية النصف الأول من القرن ٧هـ ، ١٣م تحت سيطرة مغول فارس الذين بدأوا الاستيطان في الأناضول إلى جانب الأغلبية التركية واستمرت هذه السيطرة حتى تدهورت الدولة الايلخانية (مغول فارس) التي أسسها هولاكو منذ منتصف القرن ١٤م٠

ولقد تمثل التأثير الايجابي للوجود المغولي في أمرين : أولهما أن الزحف المغولي نحو وسط آسيا ثم الأناضول والذي ترتب عليه موجات من هجرات القبائل التركية نحو الأناضول قد وفر أرضية ملائمة لنمو غزاة التخوم الذين زحفوا على أوروبا بعد ذلك[٨٢] وكانت حركتهم تجاه السواحل الغربية للاناضول حرة بدون تدخل من أمراء المغول حيث لم تستطع الادارة المغولية بالرغم من توالي حملاتها أن تحكم قبضتها على مناطق الحدود البعيدة [٨٣] . أما الامر الثاني فهو أن استمرار الدولة المملوكية في مقاومة مد نفوذ مغول ايران إلى مصر والشام قد دفعهم إلى استمرار توجههم نحو الاناضول حتى تمكن غازان من القضاء نهائيا على علاء الدين السلجوقي آخر سلاطين الروم السلاجقة ١٢٩٩م - ٦٩٩هـ ٠ ولذا انفتح المجال أمام تحرك عثمان بحرية ومن ثم نمت القوة العثمانية الوليدة بدون قيود من سلطة أعلي[٨٤].

أما التأثير السلبي للمغول فلقد تمثل خلال العقدين الأول من القرن ٨هـ، ١٤م مع اتجاه أمراء الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى - الذين بدأ عثمان ثم ابنه يتوسعان على حسابهم - إلى الاستعانة بالمغول ٠كذلك تمثل مع اتجاه الامبراطور البيزنطي في نفس الفترة ايضا لعقد تحالف مع غازان خان مغول ايران ومع خليفته من بعده حتى يحرك الجيش المغولي في مواجهة امارة عثمان والتي أخذ يشعر ببداية خطورتها ٠ ومع ذلك فلقد كان هذا التأثير السلبي محدودا ولم يستمر حيث ضعفت سلطة خانات مغول فارس على الأناضول وانهارت بعد ذلك [٨٥] .

٨٢) - Ibid . p 420 .

٨٣) محمد فؤاد كوبريلي :مرجع سابق ، ص ٦٠ ٠

٨٤) محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١١٨ - ١١٩ ٠

- محمد جميل بيهم :مرجع سابق ، ص ص ١٨٠- ١٨٢ ٠

٨٥) محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١١٨ -١١٩ ٠

- د، محمد انيس :الدولة لعثمانية والمشرق العربي ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، صص ١٧ -١٨ ٠

- H. Inalcik : op. cit . pp 268 - 269 .

ب – ولقد قدمت احوال الامارات الإسلامية التركية فى الاناضول فرصا وامكانيات للنمو العثمانى على حسابهم بقدر ماكانت تمثل قيدا وضغوطا على الفتح العثمانى فى أوروبا مما استلزم ضمها والسيطرة عليها لتقليص هذه القيود حتى لو اقتضى الأمر استخدام القوة العسكرية ضد مسلم ·

فمن ناحية فلئن كانت هذه الامارات قد ظهرت تدريجيا فى النصف الثانى من القرن ١٣م مستفيدة فى ذلك من تراخى قبضة الادارة الايلخانية ، ثم تبلورت فى أوائل القرن ١٤م على انقاض الدولة السلجوقية وفى ظل استمرار الضعف فى قبضة المغول ، إلا أنها كتشكيلات سياسية واجتماعية، فهى لم تحز فرص النمو والتطور التى حازتها امارات الحدود مثل امارة عثمان ، حيث كانت الأخيرة أوفر نصيبا من هذه الفرص ، كذلك كانت هذه الامارات متنافسة مع بعضها البعض مما مكن الدولة العثمانية من القضاء عليها فى أوقات متفاوتة وبأدوات متباينة[٨٦] .

ومن ناحية أخرى : وبقدر ماساعدت هذه التجزئة وهذا التنافس العثمانيين فى مهمتهم ، بقدر ماكانت مبعث قيود جديدة أثرت على توجه الفتوح العثمانية فى أوربا· فلقد انتهزت دائما بعض هذه الامارات فرصة الانشغال العثمانى فى أوربا لتوجيه ضربة لنفوذهم ، وحاولت هذه الامارات التجمع لقتال العثمانيين (٧٦١هـ) خلال الانشغال بموجة العبور الأولى إلى أوروبا ، ولقد استغل الأوربيون فرصة انشغال العثمانيين فى هذا القتال لتوجيه أول ضربة جماعية ردا على فتح أدرنة وأجزاء أخرى من شبه البلقان ، ولقد تكرر مثل هذا التحرك بواسطة أمير القرمان (٧٨٧هـ – ١٣٨٧م) فى الوقت الذى كان مراد يستعد فيه لاتمام الاجهاز على الصربيين والبلغار ولكن العثمانيين واجهوا هذا التحرك عسكريا [٨٧]، وكانت هذه الحرب أول حرب يخوضها العثمانيون ضد المسلمين بعد مائة عام تقريبا كانت كل الحروب العثمانية فيها ضد غير المسلمين · ولقد أثار القتال ضد مسلمين ومن جانب العثمانيين الذين رفعوا راية الجهاد انتقادا لسمعتهم كغزاة حيث أن الإسلام يمنع المسلم الغازى من استخدام السلاح ضد مسلم آخر· ولقد تلخصت الردود على هذه الانتقادات فى شقين : أولهما أن هدف السلطان العثمانى كان دائما التخلص من هذه الامارات المحدودة والصغيرة حتى لايظل تصارعها مجالا للتدخل فى شئونها من القوى

---

٨٦) حول تطور ظهور هذه القوى التركية الجديدة وحول طبيعتها والعلائق بينها أنظر :
محمد فؤاد كوبريلي :مرجع سابق ، ص ص ٦٠– ٧٧ ·
وأنظر أيضا :
–محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٥٩ – ٦٨ ·
٨٧) أنظر التفاصيل في :
المرجع السابق ، ص ص ٦٦ ،٦٩ ، ٧٠– ٧٢ ·

الاوروبية ومجالا لاستغلالها ضد العثمانيين وحتى تتفق وتتحد لتجاهد يداً واحدة .
ولقد تعامل معها تدريجيا وبسبل متنوعة مابين الزواج والضغط والتهديد والاجبار على التنازل(88) .

وثانيهما : أن القتال قد جاء فى مرحلة متأخرة نسبيا مع أقوى هذه الامارات وأكثرها تحديا وتهديدا بالتعاون مع الاوروبيين . ولهذا فان العثمانيين اهتموا باستصدار فتاوى حينما ارادوا شن حرب ضد هذه الامارة (قرمان)، ولقد بينت هذه الفتاوى شرعية هذا القتال ضد هذا الطرف المسلم الذى يهاجم الدولة وهى منغمسة فى غزوة ضد الكافرين ومن ثم فهو يعد خارجاً على الدين (89)، واذا كان العثمانيون قد أصروا على أن هذه الامارة تتعاون مع المسيحيين ضدهم فهذه حقيقة أكدتها الكثير من المصادر التاريخية الغربية والإسلامية على حد سواء . ولم يتم للعثمانيين الانتصار الحاسم على هذه الامارة - التى تكرر قتالها - الا فى نهاية القرن ٨ هـ بعد اتمام السيطرة العثمانية على شبه جزيرة البلقان ٧٩١ هـ .

٢ - الأوضاع فى أوربا :

اذا كان الاطار والتوجه العام للعلاقات المسيحية - الإسلامية خلال القرن ٨هـ ، ١٤م قد انعكس على نمط الحرب الصليبية ضد المماليك - كما رأينا سابقا - فقد مارس هذا الاطار تأثيره على التفاعلات العثمانية مع البيزنطيين والبلقانيين والممالك الافرنجية ، وفيما بين هذه الاطراف الاوروبية وذلك خلال الفتوح العثمانية . ويتبلور هذا التأثير على صعيدين :

الأول : عدم قدرة القوى البيزنطية والصربية والبلغارية على مواجهة القوات العثمانية وذلك نتيجة الاختلافات فيما بينهم من ناحية ، ونتيجة تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى الامبراطورية البيزنطية وفى الامارات البلقانية من ناحية أخرى ، مما مكن العثمانيين من النجاح فى توسعاتهم من خلال الاستفادة من هذا العجز الجماعى عن الحركة بل ومن خلال المناورة بالتحالف مع طرف ضد طرف آخر.
فمن ناحية نجد أن طلب امبراطور بيزنطة مساعدة اورخان ضد امبراطور الصرب الذى تحالف مع البندقية والامارات الصربية للهجوم على القسطنطينية هو الذى أعطى الفرصة لأورخان للعبور لأول مرة إلى الضفة الغربية من الدردنيل استعدادا للتقدم فى أوروبا (90) . كذلك وبعد فتح أدرنه ٧٦١هـ وفى الوقت الذى كان يستعد فيه

---

٨٨) المرجع السابق ، ص ٧٠.

٨٩) - H. Inalcik : op . cit . pp 289 - 290 .

٩٠) محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٦٤ - ٦٥ .

- محمود ثابت الشاذلي :مرجع سابق ، ص ص ١٠١ - ١٠٣ .

مراد للتوسع على حساب الصرب والبلغار كان يثور تهديد الصرب للبلغار ومن ثم سعى البلغار للتحالف مع العثمانيين [٩١] . ومن ناحية أخرى كانت الأراضى البيزنطية والبلقانية أسيرة الانقسامات ليست السياسية فقط ولكن الاجتماعية والدينية . فلقد تنازع أفراد الأسرة الحاكمة البيزنطية على العرش واستعان بعضهم ضد البعض الآخر بالعثمانيين انفسهم ، كما لم يتمكن الصربيون بعد أن تم احتواء القسطنطينية بالعثمانيين من قيادة المقاومة ضدهم بسبب التنازع أيضا بين أمرائهم [٩٢] . وعلى الصعيد الاجتماعي والمذهبى كان عدد سكان الامبراطورية فى تناقص مع تردى أوضاع ادارتها القانونية والمدنية وانهيار معنويات العرق اليونانى [٩٣] ، ويرتبط هذا الانهيار بعواقب معاناة السكان البيزنطيين من آثار الحملة الصليبية الرابعة وخبرة الحكم اللاتينى لهم منذ ١٢٠٤م وحتى ١٢٦١م اذ تمكن ملاك الارض اللاتين بسبب غياب سلطة محلية قوية والحروب الأهلية من احكام قبضتهم على الأراضى والسيطرة على الفلاحين المنتمين للارثوذكسية اليونان . وكان الشعور بالخوف والاضطهاد من اللاتين الكاثوليك هو الذى جعل سكان الامبراطورية البيزنطية يفضلون العثمانيين حيث تغيرت نظرتهم للغزو العثمانى على أساس أنه اذا كان العثمانيين سيحلون مكان سادتهم اللاتين الكاثوليك فهذا أفضل لسماحتهم الدينية [٩٤] .

الثانى : ويتصل بالانقسام المذهبى لأوروبا بين شرق أوروبا الارثوذكسى وغرب أوروبا اللاتينى ، والذى أثر إلى جانب اعتبارات سياسية على درجة مساندة غرب أوروبا للامبراطورية البيزنطية والبلقانيين فى مواجهة العثمانيين . فمن ناحية : أدى الصراع المذهبى الأرثوذكس - الكاثوليكى إلى توحيد جهود المسيحيين فى الغرب ليس ضد العثمانيين المسلمين بل ضد المسيحيين الشرقيين لاخضاع الكنيسة الشرقية لنفوذ البابوية ، ومن ثم فان الفشل طوال هذه الفترة (وحتى ١٤٣٩م بعد ذلك) فى الجمع بين الكنيسة الشرقية وكنيسة روما مع اتجاه اليونانيين الارثوذكس إلى تفضيل الترك على اللاتين قد أتاح الفرصة لنجاح ضغوط العثمانيين لاستغلال هذه الاختلافات كى لاتتم

---

٩١) - H. Inalcik : op . cit . p 276 .

٩٢) - J. Glubb : op . cit . p 413 - 420
- محمد جميل بيهم :مرجع سابق ، ص ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .

٩٣) احمد عبد الرحيم مصطفى :مرجع سابق ، ص ص ٦٠ - ٦١ .

٩٤) - A.S. Atyia : op . cit . p 22 - 23 .
- J. T Addison : op . cit . p 60 .
- M. G. Hogdson : op . cit . p 426 .
- H. Inalcik : op . cit . p 286 .

تعبئة رد فعل صليبي موحد ضدهم [٩٥] . الا أنه بعد أن زاد الخطر العثماني (بعد فتح ادرنه واتمام الاحاطة بالقسطنطينية) حاولت أوروبا ان توحد جهودها نتيجة استنجاد امبراطور القسطنطينية وأمراء الصرب والبلغار بالبابا للاعداد لحملة صليبية جديدة حفاظا على المسيحية ولاخراج المسلمين من أوروبا قبل أن يصل توسعهم إلى حد لايمكن ايقافه بعد ذلك . ولكن فشلت هذه المحاولة حيث لم يشترك امراء وملوك أوروبا الغربية في المعركة التي هزم فيها العثمانيون الصرب والبلغار وحلفائهم من امراء البلقان في (٧٦٦هـ - ١٣٦٣م) والتي أعقبها خضوعهم وقبولهم للجزية حتى تم ضم أراضيهما نهائيا عقب معركة كوسفو الشهيرة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) ولم ينجح البابا في دعوته إلى حرب صليبية بعد هذه المعركة[٩٦] ويرجع هذا للأسباب التالية : أن الحروب الصليبية بالمعنى التقليدي لم يعد لها بريقها وجاذبيتها السابقة كما كانت الدول الأوروبية مستنفذة القوى في صراعات داخلية وفي صراعات فيما بينها . فكانت فرنسا على سبيل المثال أسيرة حرب المائة عام (١٣٤٠م - ١٤٥٢م) [٩٧] . كذلك أدى صراع المصالح بين القوى الأوروبية إلى مساعدة بعضها للعثمانيين . فان العداء والتنافس الشديد بين جنوة والبندقية حال دون اتحادهما لمنع العثمانيين من العبور إلى جاليبولي ، بل ان جنوة تحالفت مع اورخان ضد الاسطول البيزنطي [٩٨] .

أخيرا ومن واقع تحليل تأثير أوضاع أوروبا يجدر تسجيل ملاحظة هي أن هذا التحليل يكشف عن وضع من الضروري متابعة تطوره عبر المراحل التالية من تطور التفاعلات العثمانية - الاوروبية ويتلخص هذا الوضع في أن الدولة العثمانية ومنذ بدايتها في الاناضول ثم توسعها في شرق أوروبا اضحت عاملاً مؤثراً في وطرفا يتأثر بالتوازنات الاوروبية - الاوروبية ، ولقد اختلفت طبيعة هذا التأثير المتبادل ونتائجه نتيجة باختلاف مرحلة قوة أو ضعف الدولة العثمانية والأطراف الأوروبية المقابلة .

---

٩٥) توماس ارنولد :مرجع سابق ، ص ص ٢٢١ - ٢٢٤ .
- د. محمد انيس :مرجع سابق ، ص ص ٥٢ - ٥٣ .
- A.S. Atiya : op . cit . pp 260 - 270 .

٩٦) محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص١٣٠-١٣٧ .

٩٧) محمد جميل بيهم :مرجع سابق ، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٥ .
- J.T. Adisson : op . cit . pp 60 - 61
- A.S. Atiya : op . cit . p 260 - 270 .

٩٨) - J. Glubb : op . cit . p 414 .

المبحث الثالث :العلاقات الإسلامية – الإسلامية وتأثير المتغير الأوروبى على الأنساق الفرعية الإسلامية :

على ضوء ضوابط وأهداف تناول العلاقات الإسلامية – الإسلامية فى هذا الباب فانه سيتم تحليل ثلاثة أنماط من العلاقات بين الدولة المملوكية . وثلاثة فواعل اسلامية ان لتفاعلاتهم مع أطراف أوروبية مدلولاتها بالنسبة لتفاعلاتهم مع القوة المملوكية ، وهذه الأنماط هى نمط العلاقات المملوكية العثمانية الذى أرسى فى هذه المرحلة جذور الأدوار المتصارعة والمصالح المتنافسة خلال القرنين التاليين بين مركزى قوة اساسيين فى العالم الإسلامى . ثم نمط العلاقات المملوكية المغولية الذى ابرز فشل أوروبا فى احد أهم اساليبها الصليبية الجديدة ضد المماليك وهو تنصير المغول . ثم نمط العلاقات المملوكية الاندلسية الذى بين حدود فاعلية مركز الخلافة الإسلامية فى تقديم النصرة والنجدة . وكان لكل من هذه الانماط الثلاثة انعكاسه الكبير على موازين القوى الشاملة بين العالم الإسلامى والمسيحى فى مرحلة مابعد الحروب الصليبية التقليدية ، كما كان لكل منها مغزاه بالنسبة لدرجة تأثير المتغير الأوروبى فى نفس المرحلة على تشكيل مسار العلاقات الإسلامية – الإسلامية ، وهو التأثير الذى وصل إلى ادنى درجاته خلال القرن ٨هـ –١٤م ثم أخذت هذه الدرجة تتصاعد تدريجيا حتى بدأ هذا التأثير بدوره منذ اوائل القرن ١٦م يأخذ انماطا متطورة وصلت الى اقصى صورها السلبية فى حالة التجزئة والتفكك التى تعرض لهاالعالم الإسلامى مع الاستعمار التقليدى (كما سنرى فى الفصول التالية) .

المطلب الأول : نمط العلاقات المملوكية العثمانية : جذور تنافس الغد وانعدام التأثير الأوروبى :

اذا كان كل من الدورين العثمانى والمملوكى فى العلاقات الإسلامية –المسيحية قد تبلور على هذا النحو السابق توضيحه فى المبحثين السابقين، واذا كانت الدولة المملوكية بحكم كونها مركز للخلافة العباسية كانت تعد بمثابة الفاعل المركزى الإسلامى ، فمما لاشك فيه أنه يصبح لدراسة نمط العلاقات المملوكية العثمانية فى هذه المرحلة من ازدهار قوة الأول وبداية نمو قوة الثانى جاذبية خاصة لعدة اعتبارات ذات مدلول هام بالنسبة لبعدين :حالة ومستقبل هيكل العلاقات الدولية الإسلامية من ناحية وتداخل علاقات الطرفين بالنظام التدخلى الخارجى من ناحية أخرى . ومع ذلك فلقد اتسمت دراسة هذين البعدين بصعوبة خاصة ، فخلال عملية التوثيق فى المصادر الثانوية العربية والأجنبية فى مجال التواريخ العامة أو الجزئية لوحظ عدم التعرض

العثمانية بصورة مباشرة وشاملة فى نفس الوقت إلا منذ أحداث الضم العثمانى لمصر والشام أوعلى الأكثر منذ الصدام بين الطرفين حول ذى القادر ، وبالمثل لم يمكن رصد الا شذرات متناثرة فى هذه المصادر أو فى بعض المصادر الأولية حول رد فعلهما تجاه غزوة تيمور لنك أو حول فتح القسطنطينية . والجدير بالذكر أن هذه الملاحظة العملية قد تأكدت من واقع تقويم واحد من الرواد فى مجال دراسة نشأة وبناء الدولة العثمانية حيث يشير ، بين امور منهاجية اخرى تتصل بكيفية تحقيق مشكلة هذا التأسيس [٩٩] ، إلى أن فهم نشأة الدولة العثمانية لايتوقف على فهم العوامل الخارجية التى يسرت تطور القوة العثمانية فى شبه جزيرة البلقان ولكن يتوقف على فهم العوامل الداخلية المتعلقة بالاثنوجرافيا وبتاريخ الديانات والقانون والتاريخ الاقتصادى ، وكذلك فهم ظروف الشرق الادنى التاريخية فى القرن الرابع عشر وهى عوامل خارجية لاغنى عنها لفهم تطور الامبراطورية . وبين هذه العوامل الخارجية يشير إلى دور القبيلة الذهبية والدور الذى لعبته الامبراطورية التركية فى مصر والشام ويبرز أن مايتصل بهذه العوامل الخارجية الاخيرة (وعكس مايتصل ببيزنطة والبلقان) يعد من المجهولات التى زادت من صعوبة مهمة دراسة نشأة الدولة العثمانية ، ذلك لأنه – ووفقا لقوله أيضا– فان كل الأعمال الخاصة بتاريخ العصر الوسيط الشرقى لم تتخط مرحلة التاريخ الروائى ، و"بسبب قلة المصادر التاريخية ". والجدير بالذكر أنه بالرغم من اعتماد هذه الدراسة الرائدة على مصادر متجددة (بالنسبة لفترة ظهورها) عند مناقشة أوضاع نشأة الدولة العثمانية الا أنها لم تعالج النقص فيما يتصل بالعلاقات المملوكية العثمانية فى هذه المرحلة المبكرة منها أى القرن ١٤م ، ٨هـ حيث ركزت بصفة خاصة على العوامل الداخلية المتصلة بالتركيبات الاجتماعية – الاقتصادية . هذا ولقد تأكدت مرة أخرى هذه الملاحظة العملية من واقع تقويم مصدر أخر (ولكن أكثر حداثة من المصدر السابق) لوضع دراسة العلاقات العربية العثمانية حيث يقول [١٠٠] "لم يهتم المؤرخون والباحثون بالعلاقات العربية العثمانية قبل ١٥١٦م إلا نادرا وهو الأمر الذى دعانى أن أفرد لها هذه الدراسة التى استندنا فيها إلى شبكة المعلومات التاريخية المختلفة التركية والبيزنطية والمملوكية والغربية فى محاولة منا لدراسة العلاقات العربيةالعثمانية على أثر فتح القسطنطينية ١٤٥٣م مباشرة " . وهكذا يظل السكوت عن أو اسقاط أو اهمال المصادر الثانوية للعلائق العثمانية المملوكية طوال القرن ٨هـ ، ١٤م أمرا يثير الكثير من علامات الاستفهام . لماذا ؟ وهل يمكن اكماله؟ . والاجابة عن السؤالين تفترض جهودا بحثية اصلية من مصادرها

---

٩٩) محمد فؤاد كوبريلى : مرجع سابق ، ص ص ٢٦ – ٢٨ .

١٠٠) د . عبد الجليل التميمى : " العلاقات العربية – العثمانية بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ م " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد ١ ، ٢ ، ص ص ٤٣ – ٤٤ .

الاولية المختلفة العربية والتركية بصفة خاصة سواء المتصلة بتاريخ المملوكية أو الاناضول.

ومع ذلك فانه يمكن أن نقدم مجموعتين من الملاحظات الاستنتاجية التى تراكمت من واقع جزئيات متناثرة ، وهى تدور حول البعدين التاليين :حالة ومستقبل هيكل نظام العلاقات الدولية الإسلامية ، وتداخل علاقة الطرفين المملوكى والعثمانى بالأطراف الخارجية .

أولا : حالة ومستقبل هيكل نظام العلاقات الدولية بين وظيفة الجهاد وبين مركزية الدور فى العالم الإسلامى :

عبر القرن ٨هـ ١٤م انتقلت مصر المملوكية ، بعد موت السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، من عصر السلاطين المماليك البحرية الأقوياء إلى عصر الفوضى والضعف قبل ظهور المماليك الشراكسة فى نهاية القرن . كذلك انتقلت امارة عثمان من وضع امارة التخوم إلى وضع القوة الاقليمية مع قرب نهاية القرن، وكان لطبيعة دور كل من هذا المركز القائم والمركز البازغ انعكاساته ومدلولاته بالنسبة للطرف الآخر . وينصب هذا التداخل حول وظيفة الجهاد ومدى مركزية الدور فى العالم الإسلامى . كيف ؟ .

كانت مصر المملوكية مقرا للخلافة العباسية الإسلامية وأقوى دولة اسلامية فى الشرق وتمد هيمنتها وسلطتها ونفوذها على مجال حيوى فى العالم الإسلامى وهو قلب هذا العالم ، ولكن لم يكن دورها فى هذه المرحلة – كما سبق ورأينا – يتركز حول الجهاد العسكرى بمعنى الفتح والغزو، وعلى العكس فلقد كان مفتاح فهم أصل قيام دولة العثمانيين وتطورها هو هذا الجهاد بهذا المعنى .

ويرى البعض[١٠١] أن مفهوم الجهاد لم يكن بنفس الدرجة لدى كل من المماليك والعثمانيين حيث أن الطرفين ، وأن تشابهوا فى أدوات وفنون الحرب وتكتيكاتها إلا أن احساس العثمانيين بالجهاد كان أكثر أصالة منه لدى المماليك ، كما كان حرص العثمانيين – لدى البعض الآخر – [١٠٢] على واجب حماية ونشر الإسلام المنطلق من اعمال الغزو هو الذى جعلهم يحاولون بعد ذلك تبرير مطالبتهم بالسيادة على كل العالم الإسلامى استنادا إلى حجة أنهم القائمون على هذا الواجب . ولهذا أعطى السلاطين العثمانيون ومنذ البداية اهتماما كبيرا للحفاظ على وتدعيم سمعتهم فى العالم الإسلامى كغزاة . ولذا فعند احراز انتصارات فى البلقان اعتادوا ارسال اخبارها إلى جيرانهم المسلمين فى الشرق ، وحين انتصر بايزيد الأول فى معركة

---

١٠١) - A.S. Atiya : op . cit . pp. 20 - 21 .

١٠٢) - H. Inalcik : op . cit . p . 283 .

نيكوبوليس ١٣٩٦م أرسل الفرسان الاسرى إلى القاهرة وبغداد وتبريز ليُطاف بهم فى الشوارع على نحو أثار مظاهر تأييد للعثمانيين مما حقق لهم مكاسب سياسية كبرى وخاصة فى المراحل التالية (١٠٣) . ولقد كان من أهم هذه المكاسب العاجلة منح الخليفة العباسي في مصر لقب سلطان اقليم الروم لبايزيد الأول بعد معركة نيكوبوليس١٣٩٦م (١٠٤)، ويكتسب هذا المنح مغزى هاما نابعاً من ارتباطه بسيادة إقليمية محددة • فإذا كان سلاطين الروم الأوائل أى سلاطين السلاجقة هم سلاطين للاسلام حيث مارسوا سلطتهم على الدولة الإسلامية العالمية (فى ظل الخلافة العباسية) فان سلاطين سلاجقة الروم الذين خلفوهم بعد تجزء الدولة السلجوقية كانوا مجرد سلاطين روم ذوى قوة محدودة النطاق والأرض ، أرض الروم أى الاناضول • ولهذا فان الأتراك سموا لفترة ما بالروم بالنسبة إلى الأرض التى يقطنونها ، وحين توسعت الدولة العثمانية فى أوروبا (مايسمى الروميلى) تدعم مطلب العثمانيين فى لقب سلطان الروم حيث أن اراضى الروم -الأراضى السابقة للدولة البيزنطية - كانت تضم أراضى فى أوروبا إلى جانب الاراضى القديمة للروم فى آسيا - وهكذا وفى هذه المرحلة وحتى القرن ١٥م ظل السلطان العثمانى صاحب السيادة على كل هذه الأراضى (أراضى الروم) يلقب بسلطان الروم (١٠٥) . وكان هذا الوضع يعبر عن ويعكس حدود مطالبه وقدراته فى هذه المرحلة وحتى كان غزو القسطنطينية ، ثم مثل اتجاه العثمانيون نحو الجنوب نقطة تحول هامة فى وضع الدولة العثمانية فى هيكل وبداية القوة الإسلامية بل وهيكل وميزان القوة العالمية•

بعبارة أخرى ظل هناك طوال القرن ١٤م (وحتى منذ نهايته وطوال ١٥م) حدود للدور العثمانى فى العالم الإسلامى وفى العالم ككل • فبالرغم من مركزية سلطة سلاطينهم بالمقارنة بتعاقب المماليك فى مصر منذ النصف الثانى من القرن ٨هـ - ١٤م وبالرغم من فتوحهم فى أوروبا وآسيا الصغرى الا أنه ليس من الصواب المبالغة فى تقويم قوة العثمانيين بأكثر مما كانت عليه بالفعل فلقد كانت دولة ذات أهداف محددة ساعد على تحقيقها ظروف عديدة بحيث شارفت على وضع القوة الاقليمية الفاعلة عند نهاية القرن، ولكن وحتى بداية الربع الأخير من هذا القرن لم تكن الدولة العثمانية الا مجرد واحدة من عدة امارات فى آسيا الصغرى التى بدأت السيطرة العثمانية عليها تأخذ مجراها الحاكم خلال العقد الأخير من هذا القرن وهو الأمر الذى لم يكتمل إلا فى القرن ٩هـ كما سنرى (١٠٦) .

(١٠١ - A.S. Atiya : op . cit . pp 20 - 21 .
(١٠٢ - H. Inalcik : op . cit . p 283 .
(١٠٣ - Ibid : p 290
(١٠٤) محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص ٢٧٣ •
(١٠٥ J. Saunders : op . cit . p 10 - 11 .
(١٠٦ - A.S. Atiya : op. cit . p 21 .

ولهذا كله وحتى تكتمل المهام الاقليمية إلى جانب مهام بناء القوة الداخلية لم يكن هناك مايدفع العثمانيين نحو الجنوب وفى نفس الوقت لم يكن هناك مايدفع المماليك نحو العثمانيين نظرا لمشاغلهم العديدة من جراء التغييرات العنيفة فى سلطة الحكم (بالقتل أو بالخلع) ولابتعاد أى مصدر للتهديد، وهو الأمر الذى تغير بعد ذلك حين تلامست حدود الدولتين باكتمال سيطرة العثمانيين على الاناضول وبداية تحركهم نحو الجنوب (١٠٧) .

ثانيا : تداخل علاقة كل من الطرفين ببعض الأطراف المسيحية :

يدفع للبحث فى هذا التداخل عدة أمور أبرزها أن الدولة البيزنطية كانت هدفا للتحركات العسكرية العثمانية فى حين كانت تمثل بالنسبة للمماليك طرفا تحقق التعاون أو التنسيق معه فى مواجهة الامارات الصليبية ثم القوى الافرنجية المحركة لأساليب الصليبية الجديدة . كذلك كان للجمهوريات الايطالية مصالح مشتركة فى حوض المتوسط وآسيا الصغرى ، وكانت خدمة البندقية لمصالحها فى حوض المتوسط تتناقض مع خدمة جنوة لمصالحها فى سواحل آسيا الصغرى الجنوبية والغربية مما يثير قضايا العلاقات مع الطرفين المصرى والعثمانى فى نفس الوقت . ولذا تثور هنا عدة تساؤلات : هل تأثرت العلاقات المملوكية البيزنطية سلبا منذ منتصف القرن ٨هـ - ١٤م نتيجة أعمال الغزو والفتح العثمانى؟ وهل كانت العلاقات المملوكية - الافرنجية التجارية على حساب العلاقات المملوكية البيزنطية نظرا للعداء بين البيزنطيين واللاتين ؟ ألم يكن للعلاقات المملوكية الافرنجية مغزى أو تأثير بالنسبة لما يقوم به العثمانيون ؟ هل لم يكن فى حركة العثمانيين نحو أوروبا تأثير على مسلك الافرنج اللاتين نحو مصر المملوكية ؟

وبالرغم من صعوبة الاجابة عن هذه الأسئلة نظرا لحاجتها إلى تحليل تاريخى متعمق لم تتوافر مصادره المباشرة بين أيدينا ، إلا أنه يكفى أن نشير إلى بعض الملاحظات التالية :

١ - لم تعد العلاقات مع البيزنطيين بالنسبة للمماليك على نفس درجة الحيوية التى كانت عليها من قبل خلال النصف الثانى من القرن ١٣م وذلك نظرا لاتمام تصفية الامارات الصليبية من ناحية واتجاه العلاقات مع مغول فارس إلى التهدئة وخاصة بعد اسلامهم . وفى المقابل زادت أهمية العلاقات المملوكية مع بعض الممالك الأفرنجية اللاتينية نظرا لتوظيفها فى مواجهة الأساليب الصليبية الجديدة ضد مصر المملوكية (كما سبق ورأينا) .

---

(١٠٧) محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص ص ١٩٣- ١٩٥ .

٢ – ولم يكن لذلك المسلك المصرى تأثيره على العثمانيين . فبالرغم من استجابة السلطان الناصر محمد لطلبات الامبراطور البيزنطى للتسامح مع أهل الذمة وبالرغم من استمرار العلاقات الطيبة بين الدولتين فى عصر أولاده واحفاده إلا أنه مع تزايد ضغط العثمانيين على الدولة البيزنطية خلال الربع الأخير من القرن ٨هـ – ١٤م لم يكن بوسع البيزنطيين الاعتماد على مساعدة المماليك أو تأييدهم ضد العثمانيين لأن المسلمين – داخل دولة المماليك وخارجها – كانوا ينظرون إلى فتوح العثمانيين على حساب القوى المسيحية فى شرق أوروبا بارتياح ويعتبرون الفتوحات العثمانية جزءا من حركة الجهاد الدينى فى ذلك الطور الأخير من العصور الوسطى[(١٠٨)] .

٣ – كذلك لم يكن لتوطيد المماليك لعلاقاتهم السلمية مع بعض الممالك الافرنجية تأثير سلبى على الحركة العثمانية بل كان اهتمام البعض الآخر من هذه الممالك بمصر المملوكية قد دعم من استفادة العثمانيين من الأوضاع الأوروبية . فمن ناحية لم تكن الأوضاع فى البلقان وشرق أوروبا– وبالرغم من تزايد خطورة الغزو العثمانى – تمثل حتى هذه المرحلة خطرا ملحا يجذب أنظار الممالك الاوروبية الغربية بعيدا عن حوض المتوسط نظرا لأهميته التجارية والسياسية فى هذه المرحلة، ونظرا للاعتبارات جميعها التى سبق توضيحها (والتى حالت دون مساندة المسيحيين اللاتين فى غرب أوروبا للمسيحيين الارثوذكس فى شرقها ضد العثمانيين) . ومن ثم لم تصرف الفتوح العثمانية أنظار الممالك الافرنجية عن أساليبها الصليبية الجديدة فى التعامل مع مركز انظارها أى مصر كسبيل نحو الشرق وبيت المقدس أى كسبيل لتحقيق اهدافها الصليبية التقليدية . بقدر ماساعدت مصالح بعض الجمهوريات الايطالية (البندقية بصفة خاصة) مصر على مقاومة أساليب الحصار الاقتصادى البابوية بقدر ماساعدت مصالح بعض الجمهوريات الأخرى (وخاصة جنوة) العثمانيين فى حركتهم ضد البيزنطيين والبلقانين – كما سبق التوضيح .

بعبارة أخرى لم يكن للمتغير الأوروبى فى هذه المرحلة تأثيرا مباشرا أو ملموسا على تشكيل العلاقات بين المماليك والعثمانيين يماثل تأثيره على امكانيات وحدود حركة كل من الطرفين فى تعامله المباشر مع الاطراف الاوروبية (كما سبق الذكر) . ولم تكن درجة التنافس بين مركزى القوة الإسلامية قد تبلورت بعد إلى الدرجة التى وصلت اليها فيما بعد ، وخاصة منذ نهاية القرن ١٥م واوائل القرن ١٦م ، وحتى الفترة التى لعبت خلالها متغيرات أوروبية عديدة دورها فى تشكيل مسار ونتيجة هذه العلاقات بين

---

١٠٨) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى ، مرجع سابق ، ص ص٢٧٤–٢٧٥ .

هذين المركزين وذلك فى وقت كانت الأطراف الأوروبية قد دخلت فيها مرحلة تحول عميقة أثرت بعمق على طبيعة توجهها نحو العالم الإسلامى وعلى أساليب تعاملها معه.

المطلب الثانى : نمط العلاقات المملوكية - المغولية: بين التأثير الأوربى والتأثير العثمانى :

١ - كان عام ٦٩٩هـ (١٢٩١م) تاريخ سقوط عكا نقطة تحول ايضا فى العلاقات المملوكية - المغولية (الايلخانات)، فقد بدأ منذ هذا التاريخ تحول مغول فارس إلى الإسلام وحتى أعلن الإسلام دينا رسميا للدولة ١٢٩٥م . إلا أن التوتر فى العلاقات والعداء بين الطرفين لم ينته بصورة مباشرة وسريعة .وكان العامل الاوروبى دورٌ فى استمراره إلى ان تم عقد الصلح بين الطرفين ١٣٢٠م . فبالرغم من أن جهود أوروبا المسيحية لتنصير آسيا المغولية قد فشلت بتحول مغول فارس إلى الإسلام - كما سبق ورأينا - الا أن سياسة غازان الخان المسلم ظلت تثير الكثير من علامات الاستفهام . فإذا كانت سياسته الداخلية قد اصطبغت بصبغة اسلامية فقد كان من المنتظر ان يبدأ التعاون مع الدولة المملوكية إلا أن ذلك لم يحدث بل استمر التوتر مع المماليك والتنافس معهم حول بسط النفوذ على الشام.ولقد قضى غازان فترة طويلة من حكمه فى محاربة المماليك على نحو أثار الشكوك نحو دوافع اسلامه . فبدلا من أن يكون ظهيرا للماليك لصد الهجمات الصليبية الجديدة على مصر ذاتها اتجه للتقارب مع البابوية كما حاول التحالف مع ملوك أوروبا والحصول على مساعدات من ملكى انجلترا وفرنسا وأرسل الوفود إلى بلاطهما حتى ١٣٠٢هـ . ولكن وبالرغم من اتفاق غازان مع أهداف الصليبية الجديدة فى محاربة سلاطين المماليك فى مصر إلا أن التحالف لم يتم بين الطرفين ولم يصل غازان فى استعانته بغير المسلمين فى غزو الشام إلى أكثر من ضمه لجنود من الارمن والكرج ، بل إنه فى رسالته للسلطان قلاوون ٧٠٠هـ بعد انتصاره على جيوش مصر فى موقعة حمص ٦٩٩هـ قدم تبريرا لتحركه بأنه كان بناء على طلب أهل البلاد لمناصرتهم ضد عسكر مصر . هذا ولقد برر غازان محاربته للماليك بفسادهم وظلمهم ومن ثم احقيته بقيادة العالم الإسلامى لعدم جدارة سلاطين مصر [109] . وتبرز بعض المصادر كيف أنه منذ ١٢٩٥م لم يسجل المؤرخون أى محاولة للتحالف بين مغول فارس والصليبيين[110] فإذا كان غازان ، وفقا لرؤية غربية ، قد استطاع أن يخفى

---

١٠٩) د. رجب محمد عبد الحليم :مرجع سابق ، ص ص ١٨٧ - ٢٠٨ .

١١٠) د. نظير سعداوى :مرجع سابق ، ص ص ١٥٣ - ١٥٤ .

أغراضه الحقيقية بعد اسلامه إلى درجة أن أحد المؤرخين الغربيين قد ذكر فى كتاب اصدره ١٣٠٠م أن غازان كان بطلا عظيما قد عمل ضد مصر المسلمة وأنه الصديق المخلص للمسيحية الذى سيحرر المقدس ويعيدها للمسيحيين ، الا أن عدم استقرار الاوضاع الداخلية بعد غازان فى ظل تبنى الدولة المذهب الشيعى انعكس على العلاقات بينها وبين أوروبا حيث لم يعد فى نية ملوكها القيام بأى تعاون حقيقي مع مغول ايران ضد مصر [١١١] . ولم يتم عقد الصلح بين مصر والدولة الايلخانية إلا فى ١٣٢٠م فى عهد بوسعيد ابن اخو غازان الذى خلف أبيه ١٣١٦م الذى كان مستمرا على عداء المماليك ومنذ ١٣٢٠م ظلت العلاقات عادية بين الطرفين فى الوقت الذى اخذت فيه الدولة الايلخانية فى التدهور إلى أن تجزأت منذ منتصف القرن ٨هـ -١٤م [١١٢] .

٢ – وتأثرت علاقات المماليك مع مغول الشمال (القبيلة الذهبية) بظهور العثمانيين وبالتطورات فى العلاقات مع مغول فارس ، فبالرغم من استمرار العلاقات الودية والهدايا إلا أن محور القاهرة – سراى (عاصمة القبيلة الذهبية) أخذ يفقد أهميته بعد عقد الصلح بين مغول فارس ومصر ١٣٢٠م ثم مع تدهور الدولة الايلخانية ، ومع ظهورالعثمانيين ونجاحهم فى عبور الدردنيل وبداية سيطرتهم على الممر التجارى الهام فقدت القبيلة الذهبية التى كانت تربطها علاقات طيبة مع البيزنطيين فرصة الوصول بسهولة إلى البحر المتوسط والاتصال بمصر . ولقد أدى هذا إلى اعادة توجه القبيلة نحو الشمال والشرق حيث جرت تفاعلات عديدة مع امارة موسكو التى كانت تحت الهيمنة المغولية (دفع الجزية) [١١٣] . بعبارة أخرى وبعد أن انتهى الخطر المشترك لمغول ايران شغلت دولة مغول الشمال فى النصف الثانى من القرن بأعداء جدد فى نفس الوقت الذى انشغل فيه مماليك مصر بأعداء جدد تحتاج مواجهتهم إلى أنماط جديدة من التفاعلات – كما سبق ورأينا– ولم يكن العثمانيون حتى هذه المرحلة يمثلون خطرا مباشرا على الطرفين . وفى المقابل كان الأفق يحمل لكل من ورثة القبيلة الذهبية (وأيضا مغول ايران ومغول آسيا الوسطى) مصدر تهديد جديد بزغ ونما تدريجيا من امارة موسكو ثم أضحى يمثل مصدر تهديد للدولة العثمانية وخاصة بعد أن

---

١١١) برتولد شبولد :مرجع سابق ، ص ص ٧٤ – ٨٣ .
– وليم موير :تاريخ دولة المماليك فى مصر (١٢٦٠ – ١٥١٧) ، ترجمة محمود عابدين و سليم حسن ، مطبعة المعارف ، القاهرة، ١٩٢٤ .

١١٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مصر فى عصر المماليك ، مرجع سابق ، ص ص ٤٣ – ٤٩ .
١١٣) برتولد شبولد :مرجع سابق ، ص ص ٩٨ – ١٠٤ .
– د. رجب محمد عبد الحليم :مرجع سابق ، ص ص ١٦٩ – ١٧٢ .
– د. سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣١ – ٢٣٧ .

أصبح ركنا من أركان التوازنات الأوروبية – الأوروبية (كما سنرى على التوالى بعد ذلك) .

المطلب الثالث : نمط العلاقات المملوكية الاندلسية :المساندة المفقودة في مواجهة عملية الاسترداد المسيحية وجهاد بنى مرين :

بعد عصر الولاة (٩٢هـ – ١٣٨هـ) ، وبعد عصر الخلافة الأموية (١٣٨ هـ-٤٢٢هـ) وبعد عصر الطوائف (٤٢٢هـ – ٤٨٤هـ) ، وبعد عصر المرابطين (٥٢٥ هـ –٦٤٠ هـ) جاءت مرحلة الحروب الصليبية بالأندلس (٦٢٥هـ- ٨٩٨هـ) والتى شهدت خلال القرن ٨هـ مرحلة مقاومة وجهاداً اسلامياً متميزاً قبل أن تتدهور روح وقدرات هذا الجهاد الإسلامي فى الاندلس والمغرب خلال القرن ٩هـ فتنتهى بسقوط غرناطة . وعبر هذا التاريخ الممتد تشابكت دائما وبطريقة واضحة سياسات الأندلس وسياسات دول المغرب الإسلامى مكونة بذلك نسقا فرعيا للتفاعلات الدولية الإسلامية كان للأطراف المسيحية الأوروبية وخاصة ملوك وامراء الأسبان والبرتغال دور أساسى فى تشكيله.

ولقد دخلت الحروب الصليبية فى الاندلس مرحلتها الحاسمة ، التى بدأت معها حركة الاسترداد تأخذ أبعادها الحقيقية ، فى نفس الوقت الذى ضعفت فية قوة الموحدين حيث لم تعد هناك دولة قوية فى المغرب تستطيع انقاذ الأندلس كما فعل من قبل المرابطون ثم الموحدون فى مرحلة قوتهم ، لذا فان النصف الاول من القرن السابع الهجرى شاهد السقوط المتوالى لركائز الأندلس الإسلامية قرطبة (٦٣٣هـ – ١٢٣٦م) بلنسية (٦٣٦هـ – ١٢٣٨م) ، مرسية، أشبيلية (٦٤٦هـ – ١٢٤٨م) (كما حدث خلال مرحلة الطوائف) ولم يعد باقيا فى الاندلس الإسلامية إلا غرناطة التى كون فيها بنو الأحمر الدولة النصرية قرب منتصف القرن ٧هـ واستمرت مايزيد عن القرنين حتى سقوطها (٦٣٥هـ – ٩٨٧ هـ /١٢٣٨م – ١٤٩٢م)، وكانت محورا لتفاعلات متنوعة فيما بين المسلمين، وبين المسلمين وغير المسلمين ، فى هذا النسق الفرعى الإسلامى (الاندلس – المغرب) .

بعبارة أخرى ، فانه فى الوقت الذى كان فيه توازن القوى الإسلامية فى المشرق الإسلامى يعاد تشكيله قرب منتصف القرن ٧هـ تحت ضغط الهجمة المغولية الأولى ، والذى أسفر عن ظهور دولة المماليك ، كانت التوازنات فى الاندلس وشمال افريقيا تدخل مرحلة جديدة أيضا بعد تصاعد عملية الاسترجاع ومع نمو دولة غرناطة ومع تدهور دولة الموحدين التى تفككت سلطتها على الاندلس وعلى المغرب كله حيث استقل عنها الحفصيون فى تونس، وبنو عبد الواد فى الجزائر ، وحتى تغلب عليها فى مراكش بنو مرين وأسقطوا أخر سلاطينها ٦٦٨هـ . وفى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه عملية توطيد اركان الدولة المملوكية الاولى وجهادها فى مواجهة المغول

والصليبين في الشام ، فى نفس الوقت اضطلع بنو مرين بدور جهادى لمساندة غرناطة المسلمة فى مواجهة الأسبان فى الأندلس ولبناء امبراطورية مرينية فى المغرب على غرار الموحدين ٠

وهكذا فان تفاعلات أواخر القرن ٧هـ وطوال القرن الثامن الهجرى والتى تمت فى ظل هيمنة الدور المملوكى على العلاقات الدولية الإسلامية قد تشابكت على صعيدها سياسات غرناطة الأندلسية وسياسات بنو مرين في المغرب مع سياسات أمراء وملوك الأسبان وخاصة قشتالة واراجون ، فما هو النمط الذى أفرزته هذه التفاعلات ؟ وهل كان للدولة المملوكية دورها فيه ؟ .

أولا : اقام بنو الأحمر دولة قوية في غرناطة هى الدولة النصرية التى أرسى قواعدها محمد الأول بن الأحمر ، ولقد توافرت لها عوامل القوة والنمو فى البداية ابتداء من شخصية حاكم قوى وناجح وعادل اهتم بتنمية النشاطات الزراعية والصناعية والعلمية والصحية المختلفة ، فضلا عن أن غرناطة قد جذبت اليها المسلمين المطرودين من الأرجاء الاندلسية التى استولى عليها الأسبان ففروا لها بخبراتهم وثراوتهم ومهاراتهم واصبحوا عنصر قوة اساسية ساهمت فى ثراء ونمو هذه الامارة التى أضحت مركزا سياحيا وتجاريا هاما ومنزلا لجميع الأقوام ٠ ومن ناحية أخرى تمتعت هذه الامارة بموقع جغرافى ساعد على استمرار مقاومتها أكثر من قرنين حيث كان يفصلها عن اسبانيا النصرانية حواجز طبيعية كما كانت أبعد المناطق عن متناولها فى نفس الوقت الذى كان فيه موقعها إلى أقصى جنوب غرب الاندلس يجعلها قريبة من الضفة الأخرى من البحر المتوسط أى المغرب حيث قامت دولة اسلامية قوية تمكنت من الاستنصار بها وقت اشتداد الخطر(١١٤) .

ثانيا : قامت سياسة بنو الأحمر على سياسة الحفاظ على الملك وتدعيمه فى غرناطة ولو باعلان الطاعة مع الأمراء الأسبان والتحالف معهم ضد امراء الأندلس المسلمين أو المغرب المسلم أيضا ٠ ويبرز هذا النمط خلال النصف الثانى من القرن ٧هـ وخاصة خلال مرحلة تأسيس الدولة قبل أن يزداد الخطر الاسبانى على غرناطة نفسها فتتجه

---

١١٤) انظر تفاصيل عملية النشأة والنمو وعناصر قوتها فى :
- شكيب ارسلان :خلاصة تاريخ الاندلس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٤٠٣٠ -١٩٨٣م٠ ص ص ٧٢ - ٧٦ ٠
- ل٠ا٠ سيديو :تاريخ العرب العام ٠ ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبى ، القاهرة ،١٩٤٨، ص ص ٣٦٤ - ٣٦٧ ٠
- د٠ محمد كمال شبانة :يوسف الاول بن الاحمر سلطان غرناطة (٧٣٣ هـ - ٧٥٥هـ) البيان العربى ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ص ١٧ - ٢٢ ٠
- محمد عبد الله عنان :نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مطبعة مصر . القاهرة ، ١٩٤٩ - ١٣٦٨هـ ، ص ص ٢٦ - ٣٠٠

للاستنصار ببني مرين إلا أن خوف بنو الأحمر من زيادة نفوذ بنو مرين على حسابهم في الاندلس وخاصة في الثغور الاندلسية الجنوبية التى اتخذتها قوات بنى مرين قواعد دائمة لها دفعهم للتحالف في بعض الأحيان مع أمراء الأسبان ضد بنى مرين والصدام معهم .

فمن ناحية :دانت غرناطة فى البداية لملكة قشتالة وقبلت دفع الجزية ذلك لأنه حينما تولى ابن الأحمر أمر غرناطة وكاد يستقر فيها ويؤسس دولة بنى نصر حتى نشط لمحاربة الأسبان الذين استعدوا بدورهم لقتال هذه القوة الاندلسية الجديدة . ولكن لما رأى ابن الأحمر تفوق الاسبان وصعوبة المقاومة آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته وتصالح معه على أن يؤدى له جزية سنوية وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي باعتباره من الأمراء التابعين للعرش (١١٥) . وهكذا آمنت غرناطة (٦٤٣هـ - ١٢٤٥م) شر العدوان عليها حينا حيث كان عقد السلم بين الطرفين لمدة عشرين عاما ، بل إن ابن الأحمر قد ساعد فرديناند الثالث في حصاره لاشبيلية أعظم القواعد الاندلسية وفى الاستيلاء على الحصون والقلاع الامامية والقريبة منها قبل أن يبدأ هذا الحصار . ولقد كان سقوط اشبيلية ايذانا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية الواقعة بينها وبين مصب الوادى الكبير حيث أيقن حكامها بانهيار سلطاتهم فهرعوا تحت نصيحة ابن الأحمر إلى احتذاء مسلكه والانضواء تحت لواء ملك قشتالة . ولم يكن هذا الوضع الذى ساهم فيه ابن الأحمر إلا بداية لاشتداد الخطر على غرناطة نفسها بعد ذلك ، ولذلك فقد ثار تساؤل حول موقف مؤسس دولة بنى نصر هذا ومدى مسئوليته التاريخية فى هذه المنطقة ، فهل أملت عليه الظروف القاسية هذا التصرف أم أنه كان يأمل كسبا مضمونا بعد أن يتحررمن تلك القيود فيتمكن من استرداد ماتنازل عنه؟ (١١٦) . والجدير بالذكر أن ابن الأحمر قد خرج (٦٦٠هـ -١٢٦١م) عن طاعة الأسبان ونبذ اتفاقهم معه مما فجر الحرب بين الطرفين والتى تخللتها اتفاقات هدنة وصلح متعددة طوال تاريخ بنى الأحمر فى غرناطة .

ومن ناحية أخرى : اتجهت غرناطة بأبصارها دائما إلى تعبئة مساندة المغرب ضد تزايد الخطر الأسبانى . وفى حين لم تتم الاستجابة لهم عند منتصف القرن ٧هـ

---

١١٥) محمد العروسى المطوى :الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، دار الغرب الإسلامى ، تونس ، ١٩٨٢ . ط٢ . ص ٢٤٤ .
- ل.ا. سيديو :مرجع سابق ، ص ٣٦٩ .
- د. محمد كمال :مرجع سابق ، ص ص ٢٢ - ٢٤ .
- محمد عبد الله عنان :مرجع سابق ، ص ص ٣١ - ٣٤ .

١١٦) أنظر بعض الآراء حول هذه الاسئلة فى :
- د. محمد كمال شبانة . مرجع سابق ، ص ص ٢٤ - ٢٧ .

بعد قمع الأسبان لثورات "بلنسية "و "اشبيلية "و "قرطبة "حيث انشغل بنو مرين بتصفية صراعهم مع الموحدين وتدعيم ملكهم الجديد ، فان النصرة والنجدة المرينية أضحت فاعلة ومؤثرة بالنسبة لغرناطة منذ الربع الأخير من القرن ٧هـ وطوال القرن ٨هـ . فبعد أن تمكن المرينيون من السلطة فى المغرب وفى ظل ازدهار قوتهم كانت طموحاتهم مد سيطرتهم إلى الأندلس من ناحية وعلى كل المغرب من ناحية أخرى وهى الطموحات التى ترتب عليها الصدام المتكرر مع الحفصيين في تونس ومع بنى عبد الواد (بني زيان) فى الجزائر ، ولاينفصلان عن بعضهما البعض أو عن الجهاد ضد الاسبان (١١٧) .

ولقد ساعد بنو مرين غرناطة بالجيوش عدة مرات خلال الربع الأخير من القرن ٧هـ وانتصروا على قشتالة وأجبروها على الصلح ٦٨٤هـ . ومع تزايد نفوذ وهيبة بنى مرين فى الثغور الأندلسية الجنوبية خلال هذه المعارك زادت مخاوف ابن الأحمر على ملكه واتصل بالأسبان وببنى زيان لينقضوا عهدهم مع بنى مرين ، وترتب على هذه الأوضاع تزايد تدهور أحوال المسلمين فى الاندلس حيث رجع ابن الأحمر عن فعلته وعاد إلى تحالفه مع بنى مرين .

ولقد شهد النصف الأول من القرن ٨هـ معارك جزئية تبادل فيها الغرناطيون مع المرينيين مع الأسبان الانتصار أو الهزيمة فى معارك هدفت للسيطرة على جبل طارق . وكما شهدت هذه المرحلة تحالف المرينيين والغرناطيين فلقد شهدت ايضا تحالف المرينيين أو بنى الأحمر مع أمراء قشتالة وأراجون ضد بعضهم البعض حيث كان يدب الانقسام بين المسلمين خلال محاولة تاكيد كل منهم سيطرته على جبل طارق . هذا ويتضح لنا من خلال تطور التفاعلات المرينية – الغرناطية – الأسبانية عدة أنماط :

أولها : أن توتر العلاقات الغرناطية المرينية والصدام بين الطرفين اقترن دائما بانتصار حاسم للأسبان عليهم . ومن أبرز الأمثلة على ذلك الظروف التى استولى

---

١١٧) حول تفاصيل تطور العلاقات الغرناطية المرينية فى ظل التهديدات الاسبانية أنظر :
- شكيب ارسلان :مرجع سابق ، ص ص ٧٦ -١٢٢ .
- محمد عبد الله عنان :مرجع سابق ، ص ص ٣٥ - ٥٧ .
- ل . ا . سيديو :مرجع سابق ، ص ص ٣٦٩ - ٣٧٢ .
- احمد مختار العبادى :دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس . مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، د.ت ، ص ص ٤٠٧ - ٤٦٢ .
- د. ابراهيم شحاتة حسن :أطوار العلاقات المغربية العثمانية (١٥١٠ - ١٩٤٧) . منشأة المعارف ١٩٨١، الاسكندرية ، ص ص ١٩ - ٥٤ .
- د. محمد كمال شبانة :مرجع سابق ، ص ص ٢٧ - ٣٤.
- بدر الدين محمود العينى :عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . تحقيق د. محمد محمد امين ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧، ج٢ ، ص٣٣٠ .

خلالها القشتاليون على جبل طارق (٧٠٩هـ -١٣١٠م) والتى جسدت لغرناطة عواقب خلافها مع بني مرين وضرورة مصالحتهم بعد أن فقدت غرناطة بابها الجنوبى الهام ٠

ثانيها : أن اضطراب أحوال المغرب ومن ثم عدم قدرتها على عبور الكتائب إلى الأندلس مع تزايد الضغط الاسبانى على الاندلس كان يدفع الأخيرة إلى قبول التهادن والتعهد بدفع الجزية (كما حدث بعد استيلاء الأسبان على جبل طارق) ٠

ثالثها : أن قوة روح الجهاد فى غرناطة إلى جانب النجدة المرينية كان يحقق انتصارات هامة في مواجهة الأسبان كما حدث حين تم استعادة جبل طارق ٧٣٣هـ واتجاه ملك قشتالة لطلب الصلح والمهادنة ٠

رابعها : أن المغرب وغرناطة كانت أكثر اتجاها لأراجون منها إلى قشتالة حيث كانت الأخيرة تمثل العدو الأول ، ومن ثم استطاع المسلمون الاستفادة من النزاع بين أمراء الأسبان والذى أدى إلى اندلاع حروب وراثة العرش التى حدت من قدرتهم على تصفية غرناطة بسرعة ٠

خامسها : معاهدات سلمية ومعاهدات ود وصداقة ومعاهدات صلح قامت من وقت لآخر إلى جانب هذه التحالفات السياسية غير المستقرة بين هذه الأطراف الأربعة بنو الأحمر - بنو مرين - قشتالة - أراجون [(١١٨)] ٠

وكانت معركة طريف البحرية(٧٤١هـ -١٣٤٠م) والتى انهزم فيها الأسطول المرينى أمام قشتالة هزيمة شديدة نقطة تحول أساسية فى الصراع حيث انكسرت شوكة بنى مرين فى مواجهة الأسبان وحيث جعلت سيادة البحر للأسبان بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على المواقع التى تمكنهم من مراقبة الشاطىء الأفريقي ٠ ومن ثم لم يبق لمسلمى الاندلس سوى الاعتماد على قواهم الخاصة فى مقاومة الأسبان طوال النصف الثانى من القرن ٨هـ بعد أن قطعت بينهم وبين بنى مرين كل الطرق . ومن ناحية أخرى كان المغرب فى ظل بنى مرين قد بدأ يعانى من الاضطراب والفوضى منذ منتصف القرن ٨هـ وبذا لم يعد مددهم فاعلا لمسلمى الاندلس ، ولقد فشلت حملتهم التى أعدوا لها اعدادا جيدا وانهزمت هزيمة كبيرة أمام الأسبان الذين اتحد أمراؤهم فتمكنوا من الانتصار على غرناطة وبنى مرين فى ٧٧١هـ - ١٣٦٩م والذى أعقبه عقد صلح دائم بين قشتالة وأراجون وبين غرناطة والمغرب ٠ وبذا دخل جهاد الاندلس

١١٨) أنظر على سبيل المثال نصوص الرسائل الصادرة عن يوسف الأول بن الاحمر (٧٣٣هـ - ٧٥٥ هـ) إلى مملكة أراجون فى :
- د٠ محمد كمال شبانة :مرجع سابق ، ص ص ٥٨٩ -٦٠٠٠

والمغرب بعد ذلك فى القرن ٩هـ - ١٥م مرحلة الذبول فى نفس الوقت الذى أخذت تتجمع فيه قوى كل من اسبانيا والبرتغال (١١٩) .

ثالثا : لم تتجه غرناطة فى هذه المرحلة إلى طلب النجدة من المماليك مثلما حدث بعد ذلك كما سنرى ، ويمكن أن نبرر هذا بأن درجة الخطر الأسبانى على ضوء النزاعات بين الأمراء الأسبان - وعلى ضوء فعالية التفوق المرينى حتى منتصف القرن ٨هـ- لم تكن على النحو الذى يستوجب مثل هذا الطلب . ولكن اتجه المرينيون أنفسهم - بعد معركة طريف - إلى القاهرة طلبا للنصرة ، ومن ناحية أخرى لم يبادر المماليك عسكريا أو دبلوماسيا باتخاذ مايمكن أن يساعد غرناطة والمغرب فى صورة مباشرة فى جهادهم ضد الأسبان ، بل على العكس فان هذه المرحلة (وعلى عكس القرن ١٥م) شهدت علاقات طيبة بين دولة المماليك وقشتالة وأراجون ، ولقد سبق وأوضحنا طبيعة هذه العلاقات ووضعها فى سياق العلاقات المملوكية الافرنجية ، وهى العلاقات التى ترجمت نفسها فى معاهدات واتفاقات عقدها قلاوون واستمرت من بعده لفترة طويلة مع ابنه الناصر محمد (١٢٠) .

واذا كانت الظروف الدولية التى واجهها المماليك منذ بداية دولتهم وحتى أواخر القرن ٧هـ والتى شهدت التصدى للمغول وتصفية الوجود الصليبى فى الشام ، تبرر احتياج المماليك إلى التعاون مع هذه الأمارات المسيحية فى الأندلس ضد باقى الأفرنج اللاتين ، فانها تبرر أيضا عدم القدرة على الاتجاه بالنظر للغرب وخاصة أن الغرب الاندلسي والمغربى فى هذه المرحلة كان فى غمار اعادة تشكيل جعلت دولة بنى نصر الناشئة تتجه للتصالح مع الأسبان فى البداية ثم طلب النصرة من بنى مرين بعد ذلك وهى النصرة التى قدموها بفاعلية حتى نهاية القرن ٧هـ ، وهنا يبدأ الاتجاه نحو المماليك كما سنرى .

أما الظروف والاوضاع التى سادت النصف الأول من القرن ٨هـ فهى التى يمكن أن تبرر المساندة المفقودة من جانب المماليك لعدة اعتبارات :

أولها :طبيعة الظروف والأوضاع الدولية وخاصة التهديدات من الشمال ، أى من البحر المتوسط والتى كان يواجهها المماليك فى هذه المرحلة التى تفترض منهم بذل جهود بحرية عدة ، وهم فى الأصل دولة برية وليست بحرية فلا تستطيع الوصول بسهولة إلى الأندلس .

---

١١٩) انظر تفاصيل التفاعلات فى هذه المركة ووقائعها فى :
- د. محمد كمال شبانة :مرجع سابق ، ص ص ١٣٤- ١٤٣ .

١٢٠) - P. M. Holt : op . cit . p 167 .
- د. سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى فى مصر والشام ، مرجع سابق ، ص ص٢٨١- ٢٨٢ .
- د. محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ص٢٦٢ - ٢٦٣ .

ثانيها : تنازع الحفصيين مع المماليك على مركز الخلافة ٠ فمع تحول مقر الخلافة العباسية إلى مصر المملوكية والخلافة الموحدية إلى تونس الحفصية عارض المماليك أن تكون دولة الحفصيين هي مركز الخلافة مما ولد التنافس بين الدولتين ٠ ولكن سرعان ماتطورت علاقات التعاون والود السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين الطرفين [١٢١]. هذا ولقد كانت الاندلس هى ساحة الجهادالإسلامى للحفصيين أو لبنى مرين التى وصلت قواهما فى هذه المرحلة إلى أقصى درجاتها كما لم تنقطع علاقاتهما التجارية والسلمية مع الممالك الافرنجية مما يعنى أنه كان عليهما تحمل نصيبهما من الدفاع عن الإسلام مثلما تحمل المماليك دورهم فى الشرق وخاصة بعد أن نجح بنو مرين فى اعادة احياء الامبراطورية الموحدية حيث مدوا سلطانهم قرب منتصف القرن ٧هـ إلى المغرب الأقصى والأدنى والأوسط متغلبين فى ذلك على الحفصيين فى تونس وعلى بنى عبد الواد فى الجزائر ٠ وهنا يمكن أن نتساءل هل كان قائما فى ذهن المماليك خبرة الأيوبيين أيام صلاح الدين حين اصطدم مع الموحدين ، بعد أن امتد سلطانهم على كل الأندلس وعلى كل المغرب ووصل إلى حدود مصر ، والذين رفضوا التعاون معه بعد هذا الصدام فى مواجهة الخطر الصليبى ؟

هذا وبالرغم من عدم المساندة الماديةالمباشرة من جانب المماليك إلا أنه قد ظهر من مراسلات الناصر محمد بن قلاوون مع ملك أراجون أن السلطان يعتبر نفسه الحامى الأكبر لجميع الشعوب الإسلامية وله حق التوسط لمصلحة المسلمين الذين تحت حكم المسيحيين فى الاندلس [١٢٢] ، وهو الأمر الذى استخدمه المماليك الجراكسة بعد ذلك للمساومة بورقة أهل الذمة ورهبان بيت المقدس حين اشتد الضغط على مسلمى الأندلس فى القرن ٩هـ كما سنرى. ومن ناحيةاخرى وبرغم أن المماليك قد أبدوا عدم التمكن من المساندة المباشرة لبنى مرين وغرناطة واعتذروا عن تقديم المساعدة لبعد المشقة إلا أنهم أعربوا عن مواساتهم وتشجيعهم وتعاطفهم ومساندتهم المعنوية وظهر ذلك فى المراسلات بين السلطان المرينى والسلطان الصالح بن الناصر بن قلاوون بعد معركة طريف التى انتصر فيها الأسبان ٧٤١هـ - ١٣٤٠م وأعقبها عقد صلح بين الطرفين [١٢٣] .

---

١٢١) انظر تفاصيل هذه العلاقات ومن قبلها العلاقات مع الموحدين فى :
- ابتسام مرعى خلف الله :العلاقة بين الخلافة الموحدية والشرق الإسلامى (٥٢٤ هـ -٩٣٦م) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ ٠
١٢٢) د٠ محمد جمال الدين سرور :مرجع سابق ، ص ٢٧٢ ٠
١٢٣) انظر نص الرسالتين المتبادلتين فى :
- د٠ محمد كمال شبانة :مرجع سابق ، ص ص ٣٠١ - ٣١٧ ٠

الفصل الثالث

تطور توزيع القوى الإسلامية مع بداية خطر أوروبى جديد : من سقوط أنقرة (٨٠٤هـ - ١٤٠٢م) إلى سقوط القسطنطينية (٨٥٩هـ - ١٤٥٣م) إلى سقوط غرناطة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م)

الفصل الثالث

تطور توزيع القوى الإسلامية مع بداية خطر أوروبى جديد : من سقوط أنقرة (٨٠٤هـ - ١٤٠٢م) إلى سقوط القسطنطينية (٨٥٩هـ - ١٤٥٣م) إلى سقـوط غرناطة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م)

مقدمة :

بقدر ماتأثرت موازين القوى الإسلامية وأنماط التفاعلات الإسلامية - المسيحية من جراء الهجمة المغولية الأولى المتعددة الأبعاد ، بقدر مانجد أن الهجمة الثانية مع تيمور لنك المسلم قد مارست أيضا تأثيراتها على هذين الصعيدين المتداخلين ومن ثم على حالة نظام العلاقات الإسلامية الدولية طوال القرن التاسع الهجرى (١٥م) .

ولقد تزامنت بداية هذه الهجمة مع حدوث تطورات هامة فى أوضاع الدولة المملوكية بوصول المماليك الشراكسة إلى الحكم ، وكذلك فى أوضاع الحركة العثمانية باكتمال السيطرة على البلقان والأناضول مع بايزيد الثانى . وكان لهذه الهجمة على الدولة المملوكية والعثمانية آثارها الهامة ليس على مصادر قوتهما أو على علاقات القوى بينهما فحسب ولكن أيضا على مقدرتهما على مساندة أطراف اسلامية (الاندلس) أو على اتاحة الفرصة لظهور أعداء جدد (امارة موسكو مثلاً) . واذا كان نجاح علاج الآثار المباشرة على الدولة المملوكية والعثمانية قد اقترن بحدوث تطورات هامة فى مسار وأدوات العلاقات المسيحية الإسلامية حول حوض المتوسط (مصر والشام وشمال أفريقيا) وفى أوروبا الشرقية حيث بدأت كل من الدولة العثمانية والدولة المملوكية مرحلة هجوم على الطرف الاوروبى المعادى ، الا أنه فى نفس الوقت دخلت بقايا الوجود الإسلامى فى الاندلس(غرناطة)مرحلة الاحتضار ثم السقوط . وفى المقابل كانت قد بدأت عملية استقطاع قادتها امارة موسكو التى تبلورت قدراتها فى منتصف القرن ١٥م تحت تأثير عواقب الهجمة التيمورية على القبيلة الذهبية . ولهذا يمكن القول إنه بمتابعة هذه التطورات سيتضح لنا هيكل القوى الإسلامية وتطورها وكيف أن مركز الثقل الأساسى فى قيادة عملية المواجهة الإسلامية المسيحية قد أخذ ينتقل من مصر إلى تركيا وخاصة بعد سقوط القسطنطينية حيث أضحت العلاقة بين المسيحية والإسلام منذ هذا السقوط تتمثل فى نظر الغرب المسيحى[1] فى العلاقة بين الغرب والترك العثمانيين الذين دخلوا مع قرب نهاية القرن ٩هـ ، ١٥م مرحلة اكتمال

---

(١) - J.T.Addisson : op . cit . P . 26

عناصر القوة العالمية التي ترجمت نفسها في بداية القرن ١٠هـ ، ١٦م مع ضم الوطن العربي كما سنرى . وفي المقابل كانت الدولة المملوكية وبالرغم من انجازاتها في مواجهة الهجمة الصليبية الجديدة قد دخلت مرحلة أفول القوة وذلك في ذات الوقت التي سقطت فيه غرناطة من ناحية والذى أخذت تتشكل فيه تدريجيا من ناحية أخرى قوتان أخريان وهما الدولة الصفوية في فارس والدولة التيمورية في الهند . حيث أنه منذ انتهاء تيمور لنك وتفكك امبراطوريتة وحتى بروز هاتين الدولتين الاخيرتين مع أوائل القرن ١٦م لم يظهر من وسط آسيا أو غربها أى فاعل اسلامى أساسى يؤثر فى التفاعلات الإسلامية – الإسلامية والإسلامية الدولية مثلما حدث من قبل مع مغول فارس (الدولة الايلخانية في فارس والعراق) أو مع تيمور لنك الذى وحد أرجاء الامبراطورية المغولية لفترة عدة عقود قليلة في نهاية القرن ٨هـ وأوائل ٩هـ.

هذا وينقسم الفصل إلى مباحث أربعة ، يعالج الأول آثار الهجمة التيمورية، في حين يدور الثاني حول أنماط التفاعلات المملوكية –الافرنجية، أما المبحث الثالث فيعالج عملية إعادة بناء الدولة العثمانية وتطور الموجة الثانية من فتوحاتها في أوروبا ، وأخيرا يأتي المبحث الرابع فيتعرض لأنماط العلاقات الإسلامية –الإسلامية وأهم ماتثيره من قضايا تطرح بصورة أو بأخرى وزن وتأثير المتغير الأوروبى .

المبحث الأول : الهجمة المغولية الثانية وأثرها على موازين القوى الإسلامية :

برز تيمور لنك (١٣٣٦م – ١٤٠٥م) من المملكة المغولية الثالثة في وسط آسيا في ظل ظروف محلية واقليمية استطاع استغلالها لتوسيع نفوذه وفي فترة قياسية على نحو جعله علامة كبرى من علامات التحول في التاريخ ، ولقد أثار تطور مسار حركته علامات استفهام عديدة حول دوافعه وحول نتائج هذه الحركة على العالم الاسلامى برمته .

المطلب الأول : تطورالتوسع التيمورى وحتى الصدام مع المماليك والعثمانيين :

١ – خرج تيمور لنك من وسط آسيا في مرحلة شهدت تشتت شمل المغول بين ممالك أربع وضعف هذه الممالك وصراعها فيما بينها ثم ضعف وتفكك بعضها حيث تقوضت في الغرب سلطة الدولة الايلخانية منذ ١٣٣٤م . وكذلك أضحى حال القبيلة الذهبية منذ ١٣٥٩م . وفي تحركه نحو الغرب استطاع تيمور لنك أن يعيد الوحدة إلى امبراطورية المغول الكبرى فأتم سيطرته أولا على وسط آسيا ثم شرع في غزو بلاد فارس وقضى على الدولة الايلخانية (١٣٨٥ – ١٣٨٦م) ثم

هزم القبيلة الذهبية المتداعية ١٨٣٠م ثم أتم سيطرته على الهند ١٣٩٩م (٨٠٠هـ - ٨٠١هـ) بعد عدة أعوام من الزحف عليها . وبذا بدأ تيمور لنك زحفه على قلب العالم الاسلامي ولم يبق أمامه إلا العثمانيين والمماليك ، وبعد صدام معهما- كما سنرى - اتجه إلى المملكة المغولية الرابعة في الصين لغزوها ولكنه توفي وهو في طريقه اليها . ولقد تفتتت امبراطوريته بعد وفاته حيث تنازع على السلطة أبناؤه واحفاده [٢].

٢ - وفي صدامه مع العثمانيين والمماليك اندحر كل منهما أمامه . ولقد ساهم في هذا الاندحار عدم تعاون الطرفين في مواجهة الخطر المشترك ، ويتضح لنا هذا من تطور تفاعلات كل منهما مع الهجمة وهو التطور الذي يوضح لنا الوزن النسبي لمركزية دور كل من الدولة العثمانية والدولة المملوكية في العالم الإسلامي من ناحية وجذور العلاقة التنافسية بين هذين المركزين للقوة الإسلامية.

كانت دولة المماليك الشراكسة تبدأ حياتها حين تأكد اقتراب الخطر الحقيقي لتيمور لنك وذلك خلال فترة اجتياحه وتوسعه في بلاد ماوراء النهر (٧٨٢ - ٧٨٨هـ). ولقد أضحى الخطر مباشراً مع سقوط بغداد (٧٩٥هـ - ١٣٩٣م) ، ثم تقدم السلطان برقوق لمساعدة أحمد بن اوس الجلائري حاكم بغداد الذي طلب العون لاعادة ملكه . وبدءا من هنا يمكن أن نميز بين مرحلتين مرت بهما التفاعلات بين كلٍ من تيمور لنك وبين السياسة المملوكية والعثمانية [٤] ووضح خلالهما اهدار كل من هذين الطرفين لفرصة التحالف بينهما .

---

(٢) مرة اخرى ليس هناك تطابق زمني بين البدايات والنهايات التاريخية لكل مبحث من هذه المباحث . وقد سبق تبرير هذه الاشكالية التي ستظهر في كل الفصول .

(٣) أنظر تفاصيل الأوضاع التي أحاطت بظهوره وساعدته على التوسع وأسلوبه في الغزو والضم وتطور خط غزواته في :

- محمود شاكر :التاريخ الاسلامي ، ج٧ . مرجع سابق ، ص ص ١٩٩ -١٢٠ .
- محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١٤٦ - ١٤٨.
- د. أحمد عبد الكريم سليمان :تيمور لنك ودولة المماليك الشراكسة . دار النهضة العربية ، ط١ ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ص ١٢ - ١٥ .
- د. رجب محمد عبد الحليم :مرجع سابق . ص ص ٢٢٧ - ٢٣٥ .

. M.G.Hodgson : op . cit . PP -28 - 436

. - J.Glubb : op . cit . PP 432 - 442

(٤) انظر التفاصيل التي ساعدت على التمييز بين هاتين المرحلتين في :

- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٧٣ - ٧٥ ، ٢٠٣ - ٤٠٢ .
- د. أحمد عبد الكريم سليمان :مرجع سابق ، ص ص ١٧ - ١٩ .
- د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الايوبيون والمماليك ... مرجع سابق ، ص ص ٢٩٨ - ٣٠٣ .
- د. ابراهيم طرخان :مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ١٣٨٢م- ١٥١٧م ، النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٠، ص ص ٧٣ - ٨٢ .
- د. حكيم امين عبد السيد :مرجع سابق ، ص ص ١٢٥ - ١٥٠ .

J.Glubb : op . cit . P 125 - 150 .

المرحلة الأولى : هى التى سبقت الصدام المباشر العسكرى والتى أظهرت أساسا صمود ونجاح سياسات السلطان برقوق الذى استطاع أن يحقق استقرار الدولة المملوكية الحديثة والذى ابتدأ وتأكد ١٣٩١م – ١٣٩٥م (٥) . ولقد اتسمت هذه المرحلة بعدة سمات تتلخص كالآتى :

من ناحية اتفاق برقوق وأمراء المماليك على مساعدة حاكم بغداد وكذلك ظهور اتجاه نحو التعاون والتحالف بينه وبين خان القبيلة الذهبية وكذلك السلطان العثمانى بايزيد فى مواجهة تيمور لنك .

ومن ناحية أخرى رفض السلطان برقوق عرضا للتحالف والصداقة قدمه تيمور لنك ولكن فى اطار مغلف من التهديد والوعيد لمصر .

ومن ناحية ثالثة اعداد برقوق لجيش مصر لاستعادة بغداد ومحاربة تيمور لنك الذى بدأ الحركة لمهاجمة أعدائه كل على انفراد قبل توحد جهودهم . وفى نفس الوقت لم يستجب برقوق لاستعداد خان القبيلة الذهبية والسلطان العثمانى للتعاون حيث أراد أن يثبت تفوق الدولة المملوكية ويبرهن على قوتها بين دول الشرق كله ، ولأنه كان يخشى من تزايد القوة العثمانية .

من ناحية رابعة نجح برقوق فى تحقيق أهدافه العاجلة فى استعادة بغداد وتأخير الصدام عدة سنوات ، ولقد ساعده على ذلك تراجع تيمور لنك شرقا لمواجهة بعض القلاقل ولاحكام سيطرته على الهند وغزوها .

أما المرحلة الثانية :فهى التى شهدت الزحف التيمورى على الدولة المملوكية فى الشام وانتهت بالصدام العسكرى المباشر الذى فر منه المماليك بحيث توجه تيمور لنك نحو آسيا الصغرى ووجه ضربته القاضية للسلطان بايزيد الثانى فى معركة انقرة ٨٠٢هـ – ١٤٠٢م . ولقد ساعد تيمور على هذا عدة أوضاع :مثل اضطراب أحوال مصر المملوكية بعد وفاة السلطان برقوق نظرا للتنافس على السلطان وهو الأمر الذى شجع تيمور لنك على الزحف وعلى محاولة توظيف هذا التنافس فى التفرقة بين أمراء الشام وأمراء المماليك فى مصر .

كذلك فان سوء سياسة بايزيد العثمانى قد فجر العداء مع المماليك وحال دون امكانية التقارب بينهما بعد ذلك ، فبالرغم من رفضه طلب تيمور لنك الوقوف على الحياد فى حربه مع حكام مصر وبغداد وبالرغم من الصدامات الجزئية المتتالية بين العثمانيين وتيمور لنك حيث استولى بايزيد على امارات فى الاناضول دخلت فى حماية

(٥) حول للشاكل التى واجهت الدولة المملوكية الثانية منذ قيامها ١٣٨٢م وحتى استقرارها ١٩٣١م . انظر :
د . حكيم أمين عبد السيد : مرجع سابق ، ص ص ٦١ – ١٢١ .

تيمور لنك ، الا أن بايزيد انتهز فرصة انقسام أمراء المماليك بعد وفاة برقوق وأغار على الحدود السورية واستولى على ملطية .

وكذلك أدى سوء سياسات السلطان المملوكي فرج بن برقوق إلى عجزه عن الاعداد العسكرى المناسب وعن ادارة الحرب بفاعلية ضد تيمور لنك ، وإلى ضعف مواقفه فى مواجهة تيمور لنك خلال التفاوض من أجل عقد صلح ، فى حين لم تكن الاشتباكات فى الشام قد اسفرت عن نتيجة حاسمة بعد ، وأيضا إلى رفضه التحالف مع العثمانيين وتصعيد سياسات العداء معهم بالرغم من إبدائهم الاستعداد للتحالف .

ولقد ساعدت جميع هذه الاوضاع على تنفيذ مخطط تيمور لنك لتجنب خطورة الصدام مع القوتين فى آن واحد ومن اللجوء إلى القضاء على أحدهما قبل القضاء على الآخر ، وكان تغلبه على المماليك هو الخطوة الأولى نحو العثمانيين الذين وجه اليهم ضربة فى وقت حاسم من اتمام سيطرتهم على آسيا الصغرى ومن فتوحهم فى أوروبا (معركة نيكوبوليس) .

المطلب الثانى : حول تقويم الهجمه وآثارها :

بالرغم من أن تيمور لنك لم يرس أسس امبراطورية جديدة ودائمة حيث قامت تحركاته على الوثبات السريعة والمفاجئة لاثبات القدرة العسكرية ، إلا أنه يمكن استخلاص عدة آثار هامة لتحركه سواء على علاقات القوى الإسلامية أو على العلاقات الإسلامية المسيحية .

١ – وينطلق تناول هذه الآثار من تقويم تجربة تيمور لنك الفريدة ذاتها . ومن أهم أبعاد هذا التقويم :مدى مصداقية اسلام تيمور لنك على ضوء أعماله التدميرية والخداعية والوحشية ضد المسلمين والدول الإسلامية . واذا كان البعض (٦) قد وجه النظر إلى أنه أيا كانت أعمال تيمور لنك التدميرية ضد مظاهر الحضارة الإسلامية فإنه يجب الأخذ فى الاعتبار أنها لم تكن ضد الإسلام، واذا كان البعض الآخر (٧) قد بين أن تحركاته وخاصة فى الهند كانت من أجل الكفاح ضد الوثنية ومن أجل نشر وتدعيم الإسلام ، كما ادعى تيمور لنك نفسه كمبرر لزحفه نحو الصين فى أواخر أيامه ، فاننا فى المقابل نجد البعض (٨) قد أوضح الفارق الواضح بين مقولات تيمور لنك من أن معاركه هى حرب مقدسة اسلامية

---

(٦) - S.M.Imamuddin: Modern History of the Middle East and North Africa , Najma & Sons , Dacca (East Pakistan) ,1960, the ntroduction .

(٧) محمد جميل بيهم :مرجع سابق ، ص ص ١٨٣– ١٨٧.

– د. أحمد عبد الكريم سليمان :مرجع سابق .

(٨) - J.Glubb : op . cit . P452 - 453 .

ومن أنه مسلم ورع حيث كانت مراسلاته مليئة بآيات قرآنية ، وبين سلوكه حيث أن معظم ضحاياه كانوا من المسلمين ومعظم معاركه كانت ضد قوى اسلامية (مثل حاكم دلهى الذى كان يحارب الهندوس ، العثمانيون الذين كانوا يحاربون المسيحيين فى أوربا) هذا فضلا عن صور التدمير الوحشية فى معاركه .

هذا ويمكن من واقع تحليل البعض [٩] أن نستخلص عدة أمور قد تلقى الضوء على حقيقة هذه الاتهامات[١٠] : من ناحية حرص تيمور لنك على نشر الإسلام بين البدو المغول والأتراك داخل امبراطوريته الواسعة كما عمل على نشره فى بلاد الهند وكشمير والتبت مما أدى إلى افول نجم الامبراطورية الهندوكية . ومن ناحية أخرى كان التدمير والتخريب سمة من سمات الحروب التى كانت شائعة فى ذلك العصر سواء على يد سلاطين المماليك أو سلاطين المغول أو الترك . ومن ناحية ثالثة كان كل سلطان حينذاك يتهم الآخر بالكفر والمروق عن الإسلام فتيمور لنك أرسل إلى سلاطين مصر يقول لهم "أكلتم الحرام وظلمتم جميع الأنام وأخذتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام وقتلتم العلماء "ثم رماهم بالكفر ، ولقد رد عليه سلطان مصر بقوله "وعندنا خبركم من حين خرجتم أنكم كفرة " . ومن ناحية رابعة كان هدف تيمور لنك ، أى توحيد امبراطورية المغول، لابد وأن يثير غضب الدول المجاورة ومن ثم فان الموضوع هو تنافس سياسى على السلطة والسيطرة وليس له علاقة باسلام تيمور لنك أو عدمه . ومن ناحية خامسة لم يكن تيمور لنك فى كل غزواته هو البادىء بالقتال لدوافع توسعية بل إن بعض الأقاليم الإسلامية استنجدت به ضيقا من ظلم حكامها وفساد أحوالهم مثلما حدث مع -على سبيل المثال- مع أهل بغداد الذين كاتبوا تيمور لنك ٧٩٥هـ يحثونه على المجىء اليهم نظرا لظلم سلطانهم أحمد بن اويس وفساد أمره .

٢ – ويمكن أن نميز بين مجموعتين من آثار هجمة تيمور لنك ، وهى الآثار التى ظلت نتائجها تحكم وتشكل مسار العلاقات الدولية الإسلامية – المسيحية طوال القرن ٩هـ ١٠م ، والآثار بالنسبة لقوة ودور المماليك والعثمانيين .

أ – الآثار بالنسبة لعلاقات القوى المسيحية – الإسلامية :

فمرة أخرى وخلال هذه الفترة اتضح مدى حرص الدول المسيحية على التحالف مع أطراف تمثل تهديداً لقلب العالم الاسلامى وخاصة المماليك والعثمانيين أى القوتين

---

(٩) د. رجب محمد عبد الحليم :مرجع سابق ، ص ص ٢٤٥– ٢٥٠ .

(١٠) يظل هذا التحليل سياسيا لاينفي أهمية فهم التكييف الشرعي لهذه الأعمال وغيرها التي امتلأ بها تاريخ المسلمين والتي توقفنا ومازلنا نتوقف عند بعض نظائرها أو أشباهها .

اللتين تقودان كل بطريقتها زمام المواجهة مع العالم المسيحي . فتشير بعض المصادر[11] إلى مراسلات امبراطور القسطنطينية ومملكة جنوة إلى تيمور لنك عند وصوله إلى حدود الدولة العثمانية يعرضون عليه مساعدته بارسال قوات من المشاة والفرسان والأموال اللازمة لحرب . كذلك يشير نفس المصدر إلى البعثة السياسية التى أرسلها ملك اسبانيا ١٤٠٢م لتهنئة تيمور لنك بعد معركة أنقرة ولبحث سبل الارتباط معه بأى نوع من أنواع التحالف ، كما هنأ هنرى الرابع ملك انجلترا تيمور لنك بانتصاره على العثمانيين .

وبالرغم من أنه يمكن فهم دوافع هذه الأطراف المسيحية حيث أن الخطر العثمانى كان يطوق القسطنطينية ومن ثم كان ايفاد الرسل إلى ملك المغول وتحريضه على قتال العثمانيين انما كان يهدف لتخفيف حدة هذا الخطر فى حالة وقوع هذا القتال[12]، وبالرغم من وقوع هذا القتال فى وقت حاسم من تاريخ الفتوح العثمانية فى أوروبا (كما سنرى) إلا أنه لم يتضح فى أى مصدر تاريخى مايدل على قيام أى نوع من التحالف بين تيمورلنك وبين القوى الغربية .. وبذا يظل السؤال التالى قائما :

لماذا لم يتحالف تيمور لنك مع هذه القوى ؟ هل لأن قوته كانت كافية لتحقيق أهدافه؟ أم أن هناك أسباباً أخرى ؟ وهل كان يمكن أن يحدث العكس ؟ وكيف كان يمكن أن تصبح النتيجة فى حالة تحالف تيمور لنك المسلم مع المماليك والعثمانيين فى مواجهة القوى المسيحية ؟ .

ولعل مغزى هذا السؤال يتضح بصفة خاصة على ضوء تحليلنا لما كان لهجمة تيمور لنك من آثار على قوى ودور كل من المماليك والعثمانيين فى مواجهة أوروبا ، ومن هنا تبدو الآثار غير المباشرة طويلة المدى لهذه الهجمة على علاقات القوى المسيحية الإسلامية ومدى سلبيتها .

ب- الآثار بالنسبة لقوة ودور كل من المماليك والعثمانيين فى مواجهة أوروبا :

بالرغم من أن مقر السلطة المملوكية فى مصر لم يتعرض لهجوم تيمور لنك المباشر حيث تحول الأخير نحو العثمانيين بعد أن انتقم من هيبة المماليك فى سوريا ، إلا أنه يمكن أن نتلمس أثرين أحدهما سياسى والآخر اقتصادى

من ناحية :نجد أن تجربة تعامل أمراء المماليك مع تيمورلنك -بعد وفاة برقوق- قد أبرزت الأثر السلبى لانقسامهم بسبب العصبيات . ولقد ظل هذا الانقسام مظهرا من مظاهر دولة المماليك الشراكسة حتى عهد السلطان برسباى الذى تمكن من توحيد

---

(١١) د. حكيم امين عبد السيد :مرجع سابق ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤.

(١٢) محمد جميل بيهم :مرجع سابق ، ص ص ١٨٩ - ١٩٠.

الصفوف ومن ثم تمكن من تحقيق انتصارات هامة فى مواجهة الغرب المسيحى (كما سنرى . [١٣]

ومن ناحية أخرى : كان لهجمة تيمور لنك آثار اقتصادية مباشرة وأخرى غير مباشرة وكان لها فى مجموعها محصلة سلبية طويلة الأجل . فلقد انهكت الهجمة موارد الشام ومن ثم مصر المملوكية على نحو بدأ معه مسلسل الضعف الاقتصادى الذى تبلور وتجسد بعد ذلك مع آثار حركة الكشوف الاوروبية . كذلك كان للهجمة آثارها على دور مصر في طرق التجارة الدولية ، فالتوتر والاضطراب ، الذى أصاب الطريق البرى (عبر آسيا) للتجارة بين الشرق والغرب ، أكد حيوية الطريق الذى يمر بمصر . [١٤] ولقد مهدت هذه الآثار للماليك احتكار هذا الطريق ولقد كان لهذه السياسة الاحتكارية انعكاسات عميقة على طبيعة ردود الفعل للغرب المسيحى نحو العالم الاسلامى ولقد دعم من اتجاه ردود الفعل هذه - التى قادت فى محصلتها النهائية إلى الكشوف الجغرافية وحصار العالم الاسلامى من الجنوب - الضغط العثمانى من جهة الشرق على أوروبا وذلك بعد نجاح عملية اعادة البناء العثمانى الذى دمره تيمور لنك . فكيف كانت آثار هذه الهجمة على العثمانيين؟

ولقد أدى الصدام العثمانى مع تيمورلنك إلى آثار وخيمة على القوة العثمانية على نحو لم يؤد فقط إلى تأخر ونمو هذه القوة بل دمر عناصرها الأساسية فى وقت حاسم من الفتوح العثمانية فى أوروبا وبذا حالت نتائج الصدام مع تيمور لنك دون موجة جديدة من الفتوح ولمدة تزيد عن النصف قرن تقريبا .

فمن ناحية :وبعد موقعة انقرة ١٤٠٢م اجتاح تيمور لنك كل آسيا الصغرى فزال نفوذ العثمانيين عنها والذى كان قد ساد معظمها[١٥] ومن ثم زال الأساس الاقليمى المتماسك الذى استند اليه العثمانيون لتدعيم انطلاقهم فى غرب أوروبا .

ومن ناحية أخرى :زال الخطر العثمانى على أوروبا والذى كان أعلن عنه انتصار بايزيد الثانى فى معركة نيكوبوليس ١٣٩٦م وهى المعركة التى استطاعت اوروبا خلالها أن تعبىء جهودها الجماعية - بمبادرة من ملك المجر- لخوضها ضد العثمانيين ، ولكن العثمانيين تمكنوا وبقوة من الدفاع عن ركائز وجودهم فى أوروبا . وبذا كانت هذه المعركة نقطة تحول هامة فى مسار الفتوح العثمانية فى أوروبا ، فبالرغم من

---

(١٣) د . حكيم أمين عبد السيد : مرجع سابق ، ص ص ١٤٢ - ٢٩٨ .
- د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيون .. مرجع سابق ، ص ٢٩٨ .
(١٤) د. فاروق عثمان اباظة :مرجع سابق .
- كلود كاهان :تاريخ الشعوب الإسلامية . مرجع سابق ، ص ص ١٦٣ - ١٦٤ .
(١٥) د. حكيم امين عبد السيد :مرجع سابق .

J.Glubb : op ., cit . P449 .

الوجود العثماني في البلقان منذ نصف قرن مضى قبل هذه المعركة وبالرغم من خضوع الصرب وبلغاريا والقسطنطينية (دفع الجزية) الا أن معركة نيكوبوليس كانت المؤشر على احكام السيطرة على البلقان ومن ثم حصار القسطنطينية لتحقيق هدف كل السلاطين العثمانيين أي اسقاط المدينة . ولقد بدأ وشيكا في الفترة التي أعقبت نيكوبوليس وحتى معركة أنقرة ، ولكن جهود بايزيد في أوروبا انهارت تحت ضغوط الهجمة التيمورية ، وبذا تأجل سقوط القسطنطينية نصف قرن[١٦] ولذا تصور البعض في المقابل أنه لو أن معركة نيكوبوليس تأخرت عدة سنوات – أي في وقت الصدام المباشر مع تيمور لنك لكان العثمانيون قد تلقوا ضربة حاسمة حطمت قوتهم للأبد ومكنت المسيحيين من طرد المسلمين من أوروبا حينما كان الجيش العثماني محصورا على شاطيء آسيا الصغرى[١٧]. والجدير بالذكر هنا أن حرص الممالك الايطالية – جنوة والبندقية – على مصالحها الاقتصادية أكثر من الحرص على التضامن المسيحي قد خدم العثمانيين حيث ساعدت هذه الممالك على نقل الجيوش العثمانية – بعدهزيمة انقرة – إلى الشاطيء الأوروبي وذلك في مقابل مبالغ باهظة من المال[١٨] وبذا لم تنته الفتوح العثمانية لأوروبا ولكن تأجلت لمدة نصف قرن استغرقتها عملية اعادة البناء العثماني والتغلب على الخلافات بين أولاد بايزيد الثلاثة والتي وضع بذورها تيمور لنك قبل وفاته حتى لاتقوم لهذه الدولة قائمة . وعدا هذه الآثار المباشرة على القوة والفتوح العثمانية فلقد كان للهجمه آثار أخرى غير مباشرة على مستقبل هيكل القوى المسيحية التي ستقود عملية المواجهة مع العثمانيين خلال القرون التالية ، ونقصد بذلك ظهور القوة الروسية . فلقد أدى القضاء على دولة مغول الشمال (القبيلة الذهبية) ١٣٨٩م إثر ضربة تيمور لنك لها ، ثم تفككها واندلاع التنافس بين أمراء وحكام ارجائها إلى ضعف ثم نهاية السيطرة الإسلامية على روسيا والتي بدأت منذ منتصف القرن ١٣م ومن ثم اتاحت الفرصة أمام القوة الروسية المنطلقة من امارة موسكو الناهضة منذ منتصف القرن١٤م للظهور كقوة مسيحية كبرى في الشرق[١٩] وأضحت هذه القوة سندا– كما سنرى – لبيزنطة في نزاعها الأخير مع الأتراك قبل سقوط القسطنطينية . وبعد هذا السقوط أضحت روسيا وريثة المسيحية الارثوذكسية في الشرق وتصاعد صدامها تدريجيا مع الدولة العثمانية ، ومنذ مولد الدولة الروسية الحديثة في القرن ١٧م أضحت طرفا أساسيا في لعبة التوازنات الأوروبية – الأوروبية حول مصير الدولة العثمانية خلال القرون الثلاثة الأخيرة من عمره[٢٠] .

(١٦) -A.Atiya : OP. cit .363 - 364 , 465 - 466 .

(١٧) – Ibid : P 22

(١٨) - J.Glubb : op . cit . P 450 .

(١٩) برنارد لويس :السياسة والحرب في الإسلام ، مرجع سابق .

(٢٠) د. عبد المنعم ماجد :مرجع سابق ، ص ٢١٦.

المبحث الثانى : دولة المماليك الشراكسة وابعاد التطور فى الهجمة الصليبية الجديدة :

تداخلت من جديد فى هذه المرحلة الأبعاد الاقتصادية والعسكرية فى العلاقات المملوكية - الافرنجية على نحو يجعل منها امتدادا لقضايا المرحلة السابقة ولكن فى اطار جديد يتفق وتطور بعض المعطيات .

فمن ناحية :ظهرت بعض المسالك والأدوات الجديدة من جانب الغرب المسيحى (التحالف مع الحبشة كبداية للالتفاف من الجنوب) إلى جانب الأدوات التى استخدمت فى المرحلة السابقة (حرب الموانى والسفن) .

ومن ناحية أخرى : توالت ردود فعل ومبادرات الدولة المملوكية فى تصديها لهذه الأدوات والأساليب على نحو أبرز تداخلا شديدا ليس بين الأبعاد الاقتصادية والعسكرية فى السياسة الخارجية المملوكية فحسب ولكن تداخلا بين هذه الأبعاد وبين أبعاد داخلية تتصل أساسا بأوضاع أهل الذمة والتجار الأفرنج حيث ارتفعت معدلات اضطهادهم مع تزايد الأعمال الصليبية فى مصر . كما تتصل هذه الأبعاد الداخلية بحالة الضعف التى انتابت عناصر القوة السياسية والاقتصادية لمصر والتى قادتها إلى مرحلة الاحتضار فى نهاية القرن ٩هـ -١٠م ، وأوائل القرن ١٠هـ - ١٦م ، وبذلك أثرت العوامل الخارجية وعمقت من آثار العوامل الداخلية .

ومن ناحية ثالثة : يلاحظ أن هذه التفاعلات المزدوجة والمتداخلة بين سياسات اقتصادية وعسكرية وبين أبعاد داخلية وخارجية قد مرت بمرحلتين متميزتين : شغلت الأولى النصف الأول من القرن ٩هـ وشغلت الثانية النصف الثانى منه . وفى حين شهدت الأولى تصاعد حدة التفاعلات الصدامية فان الثانية قد شهدت تراجع الحملة ضد مصر . وسيبرز لنا من تطور التفاعلات المملوكية الافرنجية خلالهما حدوث تطورات فى طبيعة الطرف الأوروبى مصدر التهديد الأساسى للدولة المملوكية الثانية بالمقارنة بالأولى . فإلى جانب قبرص ورودس تطورت قدرات اراجون وقشتالة وتبلورت توجهاتهما العدائية نحو الدولة المملوكية الثانية بعد أن كانت العلاقات التعاونية هى الأساس فى توجهها نحو الدولة المملوكية الأولى . كما ستبرز لنا من متابعة تطور التفاعلات المملوكية الافرنجية خلال هاتين المرحلتين أيضا أن هناك قدرا واضحا من التأثير المتبادل بين هذه التفاعلات وبين التفاعلات الأفرنجية مع أطراف اسلامية أخرى (الاندلس -العثمانيين) كما ستبرز مدلولات هامة بالنسبة للعلاقات الاسلامية- الإسلامية أى بين الدولة المملوكية وبين كل من الاندلس والعثمانيون . ومن هنا مغزى وأهمية هذه المرحلة التى مثلت بداية التداخل الشديد بين التفاعلات الإسلامية الدولية

على مختلف المستويات . فعلى سبيل المثال شهد النصف الأول من القرن تصاعد الهجمة ضد مصر من شمالها وجنوبها فى نفس الوقت الذى اتسمت الجبهة العثمانية فيه بالسكون لانشغال العثمانيين باعادة البناء الداخلى . وعلى العكس نجد أن النصف الثانى قد خف فيه الضغط على مصر فى نفس الوقت تجددت بقوة الحركة العثمانية فى أوروبا .

المطلب الأول: أبعاد التطور فى الهجمة الصليبية الجديدة :

بعد وفاة تيمور لنك وتفتت امبراطوريته برز الدور المملوكى من جديد ، وبرزت خلال النصف الأول من القرن ٩هـ -١٥م التفاعلات المملوكية - الافرنجية نظرا لانشغال العثمانيين فى اعادة بناء دولتهم ونظرا لانشغال شاه رخ بن تيمور لنك فى عمليات السلام التى مال اليها . ولقد تلخصت أبعاد الهجوم الافرنجى فى بعدين أساسيين ومترابطين : أعمال القرصنة الأوروبية من جهه الشمال والتحالف مع الحبشة كسبيل للالتفاف حول مصر من الجنوب .

١ - أعمال القرصنة الأوروبية والهجوم على مصر من الشمال :

بعد فشل سياسة الحصار الاقتصادى تركز اهتمام الافرنج منذ نهاية القرن ٨هـ على أداه أخرى سبق وسايرت الحرب الاقتصادية وهى أعمال النهب والتخريب والقرصنة على الموانى المملوكية فى مصر والشام لجعلها غير آمنة لنزول التجار . ولقد تبلور هذا التهديد مع احتكار البندقية لتجارة البحر المتوسط بالتعاون مع السلطان برقوق وابنه فرج وترتب على هذا الاحتكار والذى أدى الى استبعاد منافسة قوة اخرى وخاصة جنوة أن تزايد شن قراصنة جنوة وقبرص ورودس لهجماتهم ضد المصالح المملوكي[٢١] . ولقد استغلت جنوة النزاعات الداخلية بين الشراكسة والترك من المماليك من ناحية وتحول أنظار المماليك إلى الشرق بسبب تيمور لنك من ناحية أخرى لشن هجمات متتالية على الاسكندرية وطرابلس[٢٢] . وأدى تأخر المماليك بسبب هذه المشاكل عن الثأر من هذه الهجمات إلى ازديادها حيث يبدو أن ملوك قبرص المحركين لها اعتقدوا فى عجز المماليك عن صد هذا الخطر الذى يهدد أعظم موارد ثروة البلاد أى التجارة[٢٣] ولقد استمرت هذه الهجمات طوال القرن ٩هـ - ١٥م نتيجة للصحوة الشاملة التى أخذت تعم الغرب الأوروبى المسيحى والتى كانت بمثابة البداية لحركة النهضة التى ازدهرت بعد ذلك[٢٤] .

---

(٢١) - J.Glubb, op. cit, P. 465.

(٢٢) د. حكيم امين عبد السيد : مرجع سابق ، ص ص ١٤٨- ١٥٣

(٢٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيون والمماليك ، مرجع سابق ، ص ٣٠٦ .

٢٤) انظر رصدا لهذه الغارات منذ بداية حكم الشراكسة وحتى غزو قبرص فى : د. عبد العزيز عبد الدايم : مرجع سابق ، ص ص ٢٠٨- ٢١١ .

٢ – محاولة التحالف مع الحبشة والالتفاف من الجنوب :

اذا كانت قبرص ورودس قد مثلتا قاعدتين لأعمال القرصنة الافرنجية ضد مصر والشام، واذا كانت اراجون خلال النصف الأول من القرن ٩هـ – ١٥م قد تصاعدت مساندتها لهذه الأعمال ، فان غزو المماليك قبرص وفتحها ثم التهديد المتكرر بغزو رودس قد دفع إلى التفكير فى تطوير مشروعات صليبية جديدة ضد المماليك كان محورها هذه المرة منذ نهاية النصف الأول من القرن ٩هـ – ١٥م هو الاتجاه إلى التحالف مع مملكة الحبشة المسيحية فى محاولة جديدة لضم كنيستها إلى الكنيسة الكاثوليكية . ولقد ارتبط هذا التوجة ببواكير محاولة الأسبان والبرتغاليين للالتفاف من ناحية الغرب ثم الجنوب والتى توجها اكتشاف رأس الرجاء الصالح – كما سنرى – كما تداخل أيضا هذا التوجه مع عمليات تصفية الامارات الإسلامية فى الاندلس حتى سقوط غرناطة قرب نهاية هذا القرن ثم عمليات الهجوم المضاد بعد ذلك على شمال أفريقيا وغربها والتى قادتها أراجون وقشتالة (أسبانيا والبرتغال) . بعبارة أخرى فان الدافع لاتجاه التفكير الافرنجى نحو الحبشة لم ينفصل عن حالة المواجهة الإسلامية المسيحية فى محاور عدة لاحكام دائرة الهجوم على مصر من الشمال بحلقة أخرى من الجنوب والهجوم الافرنجى على الأندلس والرغبة فى تكتيل قوى المسيحية فى الشرق والغرب ليس ضد المماليك فقط أو الامارات الاندلسية ولكن ضد المماليك والعثمانيين معا وذلك فى وقت أضحت فيه أوروبا تحت رحمة الجيوش العثمانية بعد فتح القسطنطينية بصفة خاصة [٢٥] ولقد توافر لدى ملوك الحبشة المسيحيين الدوافع للاستجابة لهذا التوجه الافرنجى بل والمبادرة على هذا الصعيد أى التحالف مع الافرنج ضد مصر . وكان وضع مسلمى الحبشة من ناحية ووضع نصارى مصر والروابط بين الكنيسة الحبشية والكنيسة القبطية المصرية من ناحية أخرى على رأس موضوعات التوتر فى العلاقات بين مصر والحبشة والتى أتاحت الفرصة للافرنج لتوظيف دور ملوك الحبشة الأقوياء لتهديد مصر والضغط عليها حيث سعى هؤلاء الملوك لمحالفة الدول الأوروبية لدعم جهودهم ضد مسلمى الحبشة الذين لم ينقطع جهادهم طوال ٣ قرون[٢٦] .

المطلب الثانى : أبعاد ردود الفعل المملوكية ومبادراتها :

يمكن أن نميز فى هذا الصدد بين ثلاثة أنماط أساسية من ردود الفعل والمبادرات :الأولى داخلية ، والثانية خارجية اقتصادية ، والثالثة عسكرية . والجدير بالذكر أنها تتركز على التصدى لأساليب القرصنة والهجوم من الشمال فى حين أن التصدى

---

(٢٥) انظر المبحث الثالث من هذا الفصل .

(٢٦) انظر المبحث الرابع من هذا الفصل .

للجنوب لم يحظ بنفس القدر من التركيز نظرا لمحدودية وضيق نطاق تأثيره المباشر والعاجل – كما سبق ورأينا– وهو الأمر الذى تغير بعد ذلك منذ أواخر القرن ١٥م وأوائل القرن ١٦م ، أى فى مرحلة السقوط المملوكية ، كما سنرى فى الفصل الرابع.

١ – الإجراءات الانتقامية ضد أهل الذمة والتجار الافرنج :

نظرا لافتقار سلاطين المماليك إلى اسطول قوى ، كذلك نظرا إلى حالة الفوضى الاقتصادية والساسية التى عانت منها البلاد على فترات متتالية اضطر المماليك إلى اتخاذ عدة اجراءات فى سبيل المطالبة باستعادة الأسرى من المسلمين والأموال والمتاجر التى تتعرض لها اعمال القرصنة الأوروبية . ولقد تراوحت هذه الاجراءات مابين القبض على جميع تجار الافرنج فى المناطق الساحلية ، وتطبيق مبدأ المسئولية الجماعية ضد التجار الأفرنج وقناصلهم فى الاسكندرية ودمشق ، وتحديد مدة اقامة جميع طوائف الأفرنج فى اراضى الدولة بأربعة أشهر على أكثر تقدير على اعتبار أنها المدة الكافية لانهاء عمليتهم التجارية بعد ان ثبت تآمرهم مع القراصنة .

ولقد تزامن مع هذه الاجراءات ضد التجار الافرنج اجراءات أخرى ضد الرهبان الفرنسيسكان بدير صهيون والحجاج الافرنج فى المقدس .[٢٧] واذا كان البعض من المستشرقين[٢٨] قد أشار إلى أن حكم المماليك قد اتسم بصفة عامة بأعمال القسوة والانتقام ضد النصارى ويقرن ذلك بالاعتراف بأن أحد أسباب ذلك هو الغارات الأفرنجية على السواحل المصرية ، فان بعض المؤرخين المعاصرين[٢٩] قد أرجع تلك الظاهرة إلى أن مجريات الحوادث السياسية طوال القرن ارتبطت بالتجار الافرنج والرهبان بحيث أضحوا يمثلون ، فى نظر السلطات المملوكية – وخاصة حين تتزايد التهديدات – البابوية والدول الأفرنجية أى يمثلون خطرا داخليا يدعم من الخطر الخارجى.

ولقد اقترنت تلك الاجراءات ضد التجار الافرنج ورهبان دير صهيون بموجات من أعمال العنف الشديدة ضد أهل الذمة من أقباط مصر . واذا كانت المصادر الأولية فى تاريخ هذه المرحلة قد أعربت عن استيائها من هذه الأعمال ضد هؤلاء الأفراد غير القادرين على تقديم أيه مساندة لأى من الطرفين المحاربين فهذا لاينكر أن أعمال

---

(٢٧) انظر التفاصيل فى :
– د. عبد العزيز عبد الدايم :مرجع سابق ، ص ص ٢٠٨ – ٢١٥ .
– احمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١٧ – ٢٤ .
(٢٨) وليم موير :مرجع سابق .
(٢٩) أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١١ – ١٦ .

العنف ضدهم كانت تتزايد فى خطورتها مع تصاعد الأعمال الصليبية ضد مصر(٣٠)ومع تصاعد التهديدات من الحبشة واضطهادها لمسلمى الزيلع .

٢ - سياسة الاحتكار التى طبقها برسباى :

سيطر سلاطين المماليك على تجارة الشرق بل وسعوا لاحتكارها وتشددت سياستهم فى فرض الضرائب والرسوم الجمركية على السفن التجارية الأوروبية(٣١) وكان برسباى هو الذى أحكم سياسة الاحتكار بعد أن فطن إلى أهمية تجارة الشرق التى انتظمت عن طريق مصر منذ أوائل القرن ٩هـ - ١٥م . ومن هنا كان اهتمامه باعادة سلطة المماليك إلى اليمن والحجاز حتى يؤمن ويضمن خضوع الأراضى والبحار التى تمر بها التجارة لسلطة المماليك ، ولقد أدى تزايد فرض الضرائب واحتكار التجارة إلى اعتراض التجار وتوتر العلاقات واضطراب مجرى التجارة (٣٢) .

ويقدر ماكانت هذه الاجراءات الاحتكارية المصرية وسيلة ضد الافرنج بقدر ماكانت وسيلة أيضا لمواجهة أمراض القرن ١٥م التى عانت منها مصر والتى تعج بتفاصيلها المصادر الأولية الحولية للتاريخ الاسلامى (٣٣) وذلك لأن القرن ١٥م قد شهد علامات نحو التدهور الاقتصادى حيث كان هناك (وكذلك فى قرن ١٤) مايشبه الانكماش العالمى الذى انعكس على حجم التجارة والموارد المتاحة بل وعلى عدد السكان فى العالم ، وهذه الظواهر ترجع جزئيا إلى عواقب مابعد الدمار المغولى (فى هجمتيه)(٣٤) . بعبارة أخرى فان التدهور الاقتصادى والأزمة المالية التى استحكمت فى مصر قرب منتصف القرن ١٥م هى التى أفرزت الاتجاه المملوكى نحو سياسة جديدة احتكارية هدفت لتحقيق أقصى كسب مالى من تجارة العبور (أى حركة مرور السلع بين الهند والبحر الأحمر وافريقيا والمتوسط)، ولقد ترتب على هذه السياسة ارتفاع هائل فى الاسعار أثر على الحياة فى مصر كما أثار ردود فعل انتقامية أوروبية جديدة(٣٥) بعبارة اخرى اذا كانت مصر قد حققت فى بداية النصف الثانى من القرن ٩هـ - ١٥م مكاسب عديدة من وراء احتكار تجارة العبور إلا أنه مع اواخر

---

(٣٠) - A.S.Atiya : op . cit, PP. 272

وانظر ماحصره هذا المصدر -نقلا عن مصادر أولية فى التاريخ الإسلامى -من أعمال عنف منذ نهاية قرن ١٣م وحتى منتصف القرن ١٥م (فى هامش ٢٧٥-٢٧٤ من نفس المصدر) .

(٣١) د. فاروق عثمان اباظة :مرجع سابق ، ص ص ٥ - ٣٦

(٣٢) د. حسين مؤنس :مرجع سابق ، ص ص ٢٧-٢٨

(٣٣) انظر المأخوذ فى هذا الصدد عن المقريزى وكتاباته (نقلا عن :د. سعيد عبد الفتاح عاشور :بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، عالم الكتب ، القاهرة . ط١، ١٩٨٧ ، ص ص ٢٦٥ - ٣٤٣)

(٣٤) - M.G.Hodgson : op . cit . pp . 373 - 374 .

(٣٥) - Bernard Lewis : Arabs in Eclipse, P .157.

هذا القرن اتضح مدى قصور هذه النظرة ، على المدى الطويل ، لعواقب هذه السياسة في ظل هذه الظروف (أواخر العصور الوسطى الأوروبية) . ففضلا عن انخفاض التجارة مع أوروبا وانخفاض ايراد المماليك من رسومها مما أدى إلى ضعف سلطانهم وزيادة تعسفهم بالرعية فقد أدت سياسة الاحتكار بأوروبا إلى البحث عن طريق آخر للتجارة لايقع تحت سيطرة المماليك[٣٦] .

٣ – بين غزو قبرص ورودس وبين العلاقات السلمية مع البندقية وجنوة :

أ – منذ الربع الأخير من القرن ٨هـ – ١٤م ظلت جزيرة رودس بفرسانها من الاسبتارية وظلت جزيرة قبرص بأسرتها الحاكمة الفرنسية التي كانت تدعي حقها في مملكة بيت المقدس ، ظلتا آخر مركزين للروح الصليبية في الشرق واعتمدتا على البابوية وفرنسا في التحرك ضد العالم الاسلامي ومصر بصفة خاصة إلى ان تمت حملات الأشرف برسباي الثلاث (٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ هـ – ١٤٢٤ ، ١٤٢٦م) التي انتهت بالاستيلاء على قبرص وأسر ملكها وبذا أصبحت قبرص من جملة بلاد الملك الأشرف برسباي . وكان ضم قبرص إلى الدولة المملوكية هو الاضافة الوحيدة في رقعتها في زمن المماليك الشراكسة ، كما تمثل الحملات المصرية عليها وعلى رودس المرحلة الثالثة من الهجوم المملوكي على الصليبيين بعد تصفية الامارات الصليبية في الشام وبعد اتمام ضم أرمينيا الصغرى . ويندرج فهم هذه العملية في سياق أهداف السياسة العامة لبرسباي الذي أدرك قيمة وأهمية التجارة لثراء مصر وقوتها. ولذا حرص على خدمتها بكل السبل السياسية والعسكرية ابتداء من دعم النفوذ في اليمن والحجاز والجنوب وحتى مواجهة الصليبيين في الشمال . ومن ثم كان هدف الأعمال الحربية ضد قبرص ورودس هو تأمين التجارة المصرية في المتوسط ضد أعمال القرصنة والذي يتطلب القضاء على ماتبقى من أوكار الصليبيين في المنطقة وخاصة في قبرص ورودس حيث كان يحكم قادتهم فكرة قتال المسلمين والدفاع عن جميع القوى المسيحية ضد خطرهم . هذا ولقد ساعد على نجاح هذه العمليات في هذه المرحلة تدهور الأوضاع الداخلية في قبرص بسبب الصراعات الداخلية على السلطة مما جعلها ساحة للنزاع بين البندقية وجنوة حيث حاولت كل منها السيطرة على الجزيرة على حساب وحدتها وقوته[٣٧] .

---

(٣٦) د. صبحي لبيب :مرجع سابق ، ص ٣٠ .
– د. فاروق عثمان أباظة :مرجع سابق ، ص ٥ .
– د. حسين مؤنس :مرجع سابق ، ص ص ٤٠ – ٤١ .
(٣٧) د. محمد مصطفى زيادة :المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ص ١٩٥ – ١٩٦ .
– د. وفاء محمد علي :مرجع سابق ، ص ص ٨١ – ٩٥ .

ب - ولقد لعبت البندقية وجنوة دورها في هذه الأحداث ومابعدها وذلك على ضوء طبيعة علاقاتها مع مصر المملوكية ومع قبرص وخاصة منذ غزو الاسكندرية ١٣٦٥م . فقد لعبت المملكتان دور الوسيط في عقد المعاهدات التي نظمت العلاقة بين مصر وقبرص في محاولة لاستمرار السلام بينهما طوال الفترة التي امتدت من غزو الاسكندرية حتى غزو قبرص ولقد دفعهما للقيام بهذا الدور عدة اعتبارات :

فمن ناحية :كانتا تدعوان - وعلى عكس قبرص وكذلك على عكس مملكة ارجوان التي تصاعدت منها أعمال القرصنة الأوروبية ضد المماليك (١٤١٦ - ١٤٥٨م) [٣٨] إلى سياسة تجارية جديدة مؤداها العناية بتنمية التجارة مع المدن والموانى المملوكية والعثمانية وعلى اليقظة في نفس الوقت لصد الاعتداءات التي قد تبادر بها هاتان القوتان المسلمتان [٣٩]

ولكن من ناحية أخرى :تعرضت قبرص بعد تدهور أوضاعها عقب غزو الاسكندرية لهجمات من جنوة والبندقية لدرجة جعلت منها في أواخر القرن ١٤م شبه مستعمرة لجنوة نظرا لاعتمادها المالي الكبير عليها [٤٠]

ومن ناحية ثالثة :ظلت البندقية التي احتكرت تجارة المتوسط بالتعاون مع برقوق وابنه فرج في أوائل القرن ١٤م تحرص على حماية مصالحها التجارية مع دولة المماليك مستخدمة في ذلك طرقاً شتى من أهمها الوساطة بين مصر وبين رودس وقبرص لاطلاق سراح أسرى المسلمين وخوفا من تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية [٤١]

وبعد غزو قبرص وفرض الجزية عليها لعبت البندقية دورا آخر وازنت فيه بين مصالحها مع مصر وأطماعها في قبرص وأدى هذا الدور إلى زيادة نفوذها في قبرص وان ظلت السيادة الاسمية لمصر قائمة حتى ١٩٤٠م متمثلة أساسا في تحصيل الجزية. فمن ناحية ظلت البندقية ترفض تقديم معونة مالية لملوك قبرص للانفاق على الحرب ضد مصر . ولكن في ١٤٦٩م وضع ملك قبرص دولته تحت حماية البندقية فتعهدت بحمايته ضد أعدائه فيما عدا سلطان مصر وارتبط ذلك بالحرب المستمرة إلى كانت بين الأتراك والبندقية منذ عام ١٤٦٣م وحتى عام ١٤٧٩م . فخلال هذه الفترة حرصت البندقية على ارضاء سلطان مصر ولكن من ناحية أخرى وبعد أن فقدت البندقية مواقع هامة في حربها مع الأتراك فكرت في تعويض الخسارة بالاستيلاء على قبرص منتهزة فرصة انشغال مصر بحرب الأتراك [٤٢] وفرصة

(٣٨) انظر العلاقات المملوكية الاندلسية وتأثرها بدور مملكتي ارجون وقشتالة في المبحث الثالث .

(٣٩) د. محمد مصطفى زيادة :مرجع سابق ، ص ١٩٦ .

(٤٠) J.Glubb : op . cit , P . 641 - 462 .

(٤١) د. عبد العزيز عبد الدايم :مرجع سابق ، ص ص ٢١١ - ٢١٣.

(٤٢) انظر العلاقات المملوكية العثمانية في المبحث الثالث

صلحها مع الاخيرين . ولذا ظلت تدير الأمور حتى تنازلت مصر عن سيادتها الاسمية على الجزيرة للبندقية ١٤٨٩م - ١٤٩٠م وان ظلت الأخيرة تدفع الجزية للسلطان حفاظا على صداقته حتى استولى الأتراك على مصر ١٥١٧م ثم استولوا على قبرص ١٥٧١م (٤٣) .وعلى عكس النجاح فى غزو قبرص فشل المماليك فى غزو رودس والذى امتد على ثلاث مراحل (٨٤٣ - ٨٤٧هـ ، ١٤٤٠ - ١٤٤٤م) ، وقد تأخر غزو رودس بعد نجاح غزو قبرص نظرا لانشغال المماليك بالجهة الشرقية نتيجة توتر العلاقات بين المماليك والتيموريين والعثمانيين وامارات التركمان بآسيا الصغرى . ولكن مع عودة سياسة الوفاق بين هذه الأطراف انصرف السلطان المملوكى لعملية غزو رودس التى أضحت ضرورة ملحة نظرا لاستمرار أعمال القرصنة بالرغم من فتح قبرص وبالرغم من الاجراءات العقابية ، ونظرا لتبلور محاولات التحالف الصليبية الحبشية ضد مصر وهى الأمور التى جعلت غزو رودس سبيلا لحرمان الصليبيين من آخر قواعدهم فى المتوسط (٤٤)

ولقد فشلت الحملات المصرية الثلاثة على رودس نظرا لقوة تحصينات فرسان الاسبتارية واستعانتهم بالمساعدات الأوروبية (٤٥) ، ولم تؤثر الحملات المصرية على قوة نظام رودس ولكنها أثارت حدة القرصنة ضد السفن المصرية. وبالرغم من وساطة البندقية بين الطرفين استمرت حالة المواجهة ودأبت مصر على الاستعداد لصد الهجمات ولكنها لم تستطع وقفها أو القضاء عليها وذلك فى نفس الوقت الذى بدأت فيه حركة الكشوف من ناحية (٤٦) ، وتردت فيه الأوضاع الداخلية فى مصر طيلة الربع الثالث من القرن ٩هـ - ١٥م وقبل مجيء قايتباى من ناحية أخرى . (٤٧)

---

(٤٣) د. توفيق اسكندر :سفارة بيرو دييدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص . تاريخ مصر فى محفوظات البندقية ، وثائق غير منشورة ، السلسلة الأولى ، المعاهدات رقم ١ ، مكتبة ومطبعة المصرى ، القاهرة ١٩٥٦ (المقدمة).

وانظر فى نفس المصدر نص وثائق مترجمة تبين خط سياسة البندقية ١٤٨٩م - ١٤٩٠م التى كانت تناور بين مصر والأتراك لتدعيم نفوذها فى قبرص .

(٤٤) احمد دراج :المرجع السابق ، ص ص ٥٤- ٥٦ .

(٤٥) انظر التفاصيل فى :

- المرجع السابق ، ص ص ٥٦ - ٥٨ .

- محمد مصطفى زيادة :مرجع سابق ، ص ص ١٩٦ - ٢٠٣ .

A.S.Atiya : op . cit. P. 473 - 475 .

(٤٦) د. عبد العزيز عبد الدايم :مرجع سابق ، ص ص ٣١٢ - ٣١٤ .

- د. محمد مختار العبادى ، د. عبد العزيز سالم :مرجع سابق ، ص ص ٣٣٦ - ٣٤٠ .

(٤٧) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :المرجع السابق .

(٤٨) انظر التفاصيل فى :

المبحث الثالث : إعادة بناء الدولة العثمانية والموجة الثانية من الفتوح في أوروبا : نحو دور عثماني جديد في التوازنات الأوروبية والتوازنات الإسلامية (٨٠٤ هـ - ٩٠٧ هـ / ١٤٠٥ م - ١٥١٢م) :

بعد وفاة تيمور لنك وتفكك امبراطوريته بدأت عملية اعادة بناء الدولة العثمانية مما كان له انعكاسات على العلاقات العثمانية - الأوروبية ثم الإسلامية المسيحية بصفة عامة .

وتكتسب التفاعلات العثمانية الأوروبية خلال هذه الفترة مدلولات هامة سبق وأبرزنا أهميتها أيضا خلال عملية البناء الاولى للدولة العثمانية خلال القرن ٨هـ . وتتصل هذه المدلولات بأمور ثلاثة :من ناحية أثر الاستقرار الداخلي أو الحروب الأهلية على التوسع الخارجي . ومن ناحية أخرى أهمية العمق الاقليمي في آسيا الصغرى كمنطلق لفتوح عبر اقليمية في أوروبا .ومن ناحية ثالثة الدور العثماني في التوازنات الاوروبية - الاوروبية وتأثير هذه التوازنات بدورها على امكانيات وفرص التوسع العثماني .

وعلى ضوء الأبعاد الثلاثة التي تشير إلى التأثير المتبادل بين الداخلي والاقليمي والغير اقليمي يمكن أن نتابع تطور التفاعلات العثمانية الأوروبية عبر ثلاثة مراحل متتالية منذ بداية القرن ٩هـ وهي :مرحلة اعادة البناء الداخلي واعادة اقرار النفوذ الاقليمي في أسيا وأوروبا (١٤٠٥م - ١٤٥٠م) ثم فتح القسطنطنية والانطلاق الجديد للدولة العثمانية في أوروبا (١٤٥١ - ١٤٨١م) ثم توقف الاندفاع نحو الغرب وبداية الالتفاف للشرق والجنوب (١٤٨١ - ١٥١٢م) .

المطلب الأول : عملية اعادة البناء الداخلي واعادة اقرار النفوذ الاقليمي في آسيا الصغرى وفي أوربا :

كان لهجمة تيمور لنك - كما سبق ورأينا - آثارها السلبية على عناصر قوة الدولة العثمانية حيث فقدت قواعد وأركان قوتها الاقليمية في آسيا الصغرى . ونظرا لاستعادة الامارات التركمانية لاستقلالها ، كما اندلعت الحرب الأهلية بين أولاد بايزيد حتى تغلب السلطان محمد جلبي (٨١٦ - ١٤١٣م)، ولقد انصبت جهود كل من السلطان محمد جلبي (٦١٨ - ٨٢٤ هـ / ١٣١٣ - ١٣٢١) ثم مراد الثاني (٨٢٤ - ٨٥١ هـ / ١٤٢١ -١٤٥م) على اعادة اقرار الأوضاع الداخلية والاقليمية . وتمكن محمد جلبي من اخماد الحروب الأهلية والنزاع على السلطنة بين اخوته أولاد بايزيد وانصرف لوضع ترتيبات داخلية تضمن عدم تكرارها . ولقد لعبت بعض الأطراف

البلقانية دورها في هذه الفتن الداخلية على نحو أخر من عملية استعادة الولايات في أسيا الصغرى . فاذا كان محمد جلبي قد حافظ على حالة التحالف مع الدولة البيزنطية وهو في غمار النزاعات الداخلية إلا أن هذه الدولة قد حاولت خلال حكم مراد الثاني أن تستغل مرة أخرى الخلافات بين أولاد بايزيد لتحجيم الخطر العثماني على القسطنطينية . ولقد أدى هذا بالفعل إلى تأخير مراد الثاني من عملية استعادة ولايات أسيا الصغرى وهي العملية التي استعد لها بمهادنة ملك المجر لمدة خمس سنوات والتي كان يجب اتمامها مرة أخرى قبل التوجه إلى القسطنطينية وبعد عملية الاقرار الداخلي للسلطة والحفاظ على وحدة الدولة تمت عملية استعادة التوسع الاقليمي باسترداد مراد الثاني لكل الامارات التركمانية في أسيا الصغرى ومن ثم أضحى بامكانه التفرغ لاعادة فتح ما استقل من اقليم أوروبا بعد وفاة بايزيد الثاني حتى يمكن اعادة احكام الحلقة حول القسطنطينية . (٤٨)

وعلى صعيد المواجهة في أوروبا (٨٢٦ - ٨٦١هـ / ١٤٢٤ - ١٤٥١م) كانت المجر تمثل التحدي الأساسي للسياسة العثمانية . فبعد الصدامات المتكررة حول جنوب البلقان مع البنادقة الذين أضحوا منذ هذه المرحلة وخاصة بعد فتح القسطنطينية أعداء ألداء للمجر فان المجر أضحت منذ هذه المرحلة ولمدة طويلة تالية الطرف الأساسي في التفاعلات العثمانية الأوروبية فلقد تمكن ملكها من الانتصار على مراد (١٤٤٢م) على نحو أحيا الأمل الصليبي بامكان هزيمة وطرد العثمانيين من أوروبا حيث تكونت - بدعوة من البابا - حملة اشترك فيها مع المجر كل من الصرب والبلغار واستولت على عدة أقاليم . وبعد عقد صلح بين مراد وملك المجر ١٤٤٣م لمدة عشر سنوات تخلى بمقتضاه عن الصرب خرقت الدول البلقانية هذا الصلح على أمل تحقيق نصر حاسم واستعادة بلغاريا ، وبعد معارك متعددة حقق الأتراك بقيادة مراد الثاني نصرا حاسما ١٤٤٨م في موقعة كوسفو معيدا ذكرى انتصار مراد الأول على ملك الصرب في نفس الموقعة ١٣٨٩م . ومع هذه المعركة استعاد العثمانيون كل أراضيهم في أوروبا وعاد الخطر العثماني يهدد من جديد باقي أوروبا ، ومن قبل القسطنطينية (٤٩)

- محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١٤٩ - ١٥٣ .
- د. محمد انيس :مرجع سابق ، ص ص ٥٢ - ٥٦ .
- J . Glubb : op . cit . P . 466 - 469 .

(٤٩) محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١٥٤ - ١٥٩ .
- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٨٢ - ٨٦ .
- د. عبد العليم أبو هيكل :المشرق العربي من السيادة العثمانية حتى الحرب العالمية الاولي ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، د. ت ، ص ص ١٢ - ١٥ .

J.Glubb : op . cit . P -469 - 470
- S.F. Mahomud : The Story of Islam . Oxford Universty Press Karachi. 1960 . pp . 203 -205 .
- J.Glubb : op . cit . P.470 (٥٠)

وهكذا يتضح لنا أنه خلال النصف الاول من القرن ٩هـ وبعد معركة أنقرة التى كان يمكن أن تغير تاريخ العالم استطاعت الدولة العثمانية أن تجدد عناصر قوتها وساعد على ذلك أن نتائج معركة أنقرة لم تمس قواعد الدولة فى غرب الأناضول وفى البلقان ، وأن الاسس التى وضعها السلاطين الأوائل (عثمان ، أورخان ، مراد الاول) كانت قوية ، وأن الاطراف البلقانية ذاتها لم تتحرك فى الوقت المناسب عقب معركة أنقرة مباشرة عندما كان من الممكن طرد العثمانيين من أوروبا ولكن جاءت حركتهم بعد أن قطع محمد جلبى ومراد الثانى شوطا كبيرا فى تجديد قوة الدولة (٥٠)

المطلب الثانى : فتح القسطنطينية والأنطلاقة الجديدة المحدودة للقوة العثمانية نحو أوروبا (١٤٥١ م - ١٤٨١م) :

مع فتح القسطنطينية أغلق فصل طويل من تاريخ الصراع بين الإسلام والمسيحية كما بدأت مرحلة جديدة من تطور الدور العثمانى العالمى .

ولقد كان هذا الفتح هدفا لكل السلاطين العثمانيين ، وأثارت تفاصيل اتمامه رؤى متباينة بين المصادر المختلفة . ففى حين أبرزت بعض المصادر (وخاصة العربية المسلمة) مدى عظمة هذا الانجاز وخاصة ماتلاه من اجراءات تحويل المدينة إلى عاصمة والتى قدمت نموذجاً فاعلاً للتسامح العثمانى مع أهل الذمة ، أبرزت المصادر الأجنبية أعمال القسوة والعنف التى أحاطت بعملية الفتح . (٥١)

ولقد وقع الفتح هذه المرة بعد حصار بعد الحصار التركى السادس (والحصار الثلاثين فى تاريخ المدينة منذ نشأتها) ، وكان هذا السقوط للمدينة السقوط الثامن فى تاريخها . وفى حين عاد حكم أباطرة بيزنطة بعد كل سقوط إلا أن هذا السقوط الثامن على يد الأتراك كان بمثابة خاتمة الدولة الرومانية الشرقية وخروجها لأول مرة من نطاق حكم المسيحية إلى الإسلام (٥٢) . وساعد على نجاح هذا الفتح الذى حقق غاية الخلافة الإسلامية الأولى توافر عدة عوامل داخلية وخارجية ، فاذا كانت غاية خدمه الإسلام والقيام بوظيفة الجهاد قد توافرت فى محاولات الفتح السابقة منذ عصر

---

٥١) حول تفاصيل الفتح وهذه التقديرات المختلفة حولها انظر على سبيل المثال :
- محمد عبد الله عنان :مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٩ - ١٩٦
- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٨٧ - ٨٨
- شاكر الحنبلى :مرجع سابق ، ص ص ٣٤ - ٤٩ .

- . J.Glubb : op . cit . P .471 - 467.

-Edward Creasy : History of the Ottoman Turks . Khayats , Beirut 1968 . P 77 - 76 .

(٥٢) محمد عبد الله عنان :مرجع سابق ، ص ١٩٦ .

(٥٣) محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .

الخلافة العربية وفى ظل سلاطين أتراك سابقين إلا أن توافر مجموعة من العوامل هو الذى مكن من النجاح هذه المرة. فمن ناحية توافرت مجموعة من العوامل التى زادت من عناصر القوة العثمانية ولم تكن متوافرة فى محاولات سابقة (مثلا محاولة بايزيد الأول ١٣٩٩م ، محاولة مراد الثانى ١٤٢٢م) وعلى رأس هذه العوامل الترتيبات والسياسات الداخلية القوية (٥٣) ووجود مدفعية قوية ثقيلة لدك الاسوار أعدت خصيصا فى أدرنه إلى جانب وجود قوة بحرية كافية لحصار المدينة من كل ناحية(٥٤). وبذا اتضح أهمية ومغزى الاستعانة بالأسلحة الحديثة لدعم القوة كما تتضح بداية دور القوة البحرية فى تطور الدور العثمانى العالمى كما سنرى . ومن ناحية أخرى اجتمعت مجموعة من العوامل البيزنطية والبلقانية التى قيدت من فرص نجاح المقاومة البيزنطية ، وبالرغم من تكرار ظهور هذه العوامل من قبل فى محاولات الحصار السابقة إلا أنها قد وصلت فى هذه المرحلة إلى درجة عميقة لم يكن من الممكن تدارك آثارها السلبية وخاصة فى ظل توافر الفرص العثمانية السابق توضيحها . وتتلخص أهم هذه العوامل فى الآتى :

أولا : حالة الفوضى والتفكك والضعف التى عمت العاصمة البيزنطية مع ضآلة القوى المدافعة عنها وانخفاض عدد السكان وتردى الروح المعنوية (٥٥)

ثانيا : فتور استجابة البابوية لطلب النجدة نظرا للانشقاق بين الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية مما دفع الامبراطور البيزنطى للموافقة على فكرة وحدة الكنيسة ١٤٥٢م الا أن هذه الموافقة خلقت مزيدا من الانقسامات الدينية بين صفوف البيزنطيين (٥٦)

ثالثا : ضعف استجابة الدول فى أوروبا الغربية ، أى أن العداء بين شرق أوروبا الارثوذكس وغرب أوروبا اللاتينى أبعد كل فرصة لتعبئة مقاومة مسيحية موحدة ومن ثم ماتت الامبراطورية التى كانت تمثل البوابة الشرقية لأوروبا دون مساعدة أو انقاذ من أوروبا (٥٧)

ولقد كان لفتح القسطنطينية ، بخلاف المغزى الدينى والتاريخى ، مغزى عسكرى وسياسى أثر على التطور فى طبيعة المواجهة العثمانية الأوروبية . فاذا كان هذا الفتح

---

(٥٤) - A.S.Atiya : op . cit . P.471 .

(٥٥) محمد عبد الله عنان :مرجع سابق ، ص ص ١٧٤ - ١٧٩ .

(٥٦) - J. Glubb : op . cit . P. 471 .

(٥٧) -Ibid : P. 475.

- J.T . Addisson : op . cit , PP. 60 - 61 .

(٥٨) أنظر على سبيل المثال :

- كما رأت فيه العديد من المصادر [٥٨] حدثا جللا حقق حلم الخلافة الإسلامية الاولى القوية التى لم تر فيه غاية فى حد ذاته بل وسيلة لتحقيق رسالة الإسلام الكبرى ونشرها إلى قلب أوروبا وأدى إلى ازالة امبراطورية الروم الشرقية التى دامت أطول من أى امبراطورية أخرى فى التاريخ (١١قرن)وهى التى كانت مركز الحضارة الهلينية الارثوذكسية وتمثل فى نظر الشعوب المسيحية حصنا للمسيحية على مدى الف ومائة عام . إلا أن هناك جانباً آخر للصورة يوضح المغزى السياسى العسكرى لهذا الفتح ومابعده. فبالرغم من أن العثمانيين كانوا قبل الفتح يسيطرون على معظم البلقان إلا أن سقوط القسطنطينية كان بداية سلسلة طويلة من الفتوح والانتصارات العثمانية وراء الحوض الشرقى للبحر المتوسط نتيجة بداية ونمو القوة العثمانية البحرية وخروجها نحو مياه المتوسط [٥٩] . واذا كان الاستيلاء على القسطنطينية يمثل شرطا مسبقا لاحكام السيطرة على الدولة العثمانية التى تقع نصف أراضيها فى آسيا والنصف الآخر فى أوروبا فلقد كان هذا الاستيلاء ذاته يتطلب قوة بحرية كما يثير التحدى مع الممالك البحرية الايطالية ومن ثم فان نجاح الفتح كان يعنى بداية سيطرة العثمانيين على الطريق البحرى بين بحر ايجة والبحر الأسود كما كان يعنى أيضا أن القوة العثمانية البرية قد أضحى لها بعدٌ بحرى أساسى اهتم محمد الفاتح بتطويره وتدعيمه [٦٠]

وهكذا ترتب على هذ الأبعاد فى فتح القسطنطينة ومابعدها تطوراً فى طبيعة المواجهة العثمانية – الأوروبية حيث برز دور القوة البحرية كما لعب التطور فى طبيعة الأطراف الأوروبية مصدر التحدى دورا هاما . فاذا كانت المجر قد ظلت العدو الرئيسى فى الصدام البرى إلا أن البندقية دخلت دائرة التحدى منذ ١٤٦٣م وخاصة على صعيد البحار والموانىء الأمر الذى أثر بدوره على مجالات المواجهة العثمانية – الأوروبية . [٦١] واذا كانت المجر قد ظلت ولأكثر من عقد بعد معركة كوسفو ١٤٤٨م

---

(٥٨) أنظر على سبيل المثال :

– محمد عبد الله عنان :مرجع سابق ، ص ١٩٨.

– د. محمد انيس :مرجع سابق ، ص ص ٥٦ – ٥٧ .

– محمود ثابت الشاذلى :مرجع سابق .

–S.F.Mahmud : op . cit . PP. 208

(٥٩) محمد عبد الله عنان :مرجع سابق ، ص ص ١٩٧ – ١٩٨.

– M .G. Hodgson : op . cit . P 563 .

(٦٠) - Andrew Hess : "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discovers (1453 - 1525)" Amercian Historical Review . Dec ; 1970 . –. , PP1898 - 1902 .

(٦١) أنظر تفاصيل توالي الصدام مع المجر والبنادقة فى :

– A. Hess : op . cit ; 1902 - 1905 .

– محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١٦٥ – ١٧٦ .

– محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٩٠-٩٤.

غير قادرة على القيام بعمل حربى هجومى ضد العثمانيين فلقد قاومت التوسع العثمانى نحوها من خلال التحالف مع أمراء البلقان من الصرب . وبالرغم من أنه لم يحم المنطقة من استمرار التوسع العثمانى أو يُمكّن للنفوذ المجرى عليها حيث تم نهائيا فتح الصرب (١٤٥٨ - ١٤٦٠م) إلا أن المجر ذاتها ظلت منيعة على العثمانيين وكذلك رومانيا التى لم تنجح الجيوش العثمانية فى فتحها ١٤٧٥م بل وهزمت هذه الجيوش أمام أحد القادة الرومان المشهورين ١٧٤٦م. أما البندقية فلقد أدى فتح القسطنطينية إلى اغلاق الطريق الرئيسى أمامها للتجارة بين أوروبا وآسيا عبر البحر المتوسط والبحر الأسود وبذا أضيرت مصالحها نظرا لعلاقاتها الاقتصادية مع امارات آسيا الصغرى والتى قوامها التجارة البحرية التى تتفوق فيها البندقية. ومن هنا تولد صراع حول بلاد المورة وشواطىء جنوب آسيا الصغرى واستمرت الصدامات العثمانية - البندقية والتى حقق فيها العثمانيون انتصارات عديدة أدت إلى طرد الايطاليين من مستعمراتهم ومراكزهم التجارية على شواطىء بحر ايجة والبحر الأسود . وفشلت البندقية بعد حروب دامت من ١٤٦٣م - ١٤٧٩م فى منع التوسع العثمانى من داخل البلقان وآسيا الصغرى نحو موانى وجزر بحر ايجة والادرياتيك وهو التوسع الذى وصل معه النفوذ العثمانى إلى شرق البحر المتوسط ، ومن ثم اضطرت البندقية إلى توقيع صلح مع العثمانيين (٨٨٣هـ - ١٤٧٩م) . ويلاحظ أنه رغم ذلك كله فلقد ظل للقوة البحرية العثمانية حدودها ، فهى لم تختبر بصورة كاملة فى أى حرب كبرى خلال المصادمات مع البندقية ، وكان فشل الأسطول العثمانى فى فتح جزيرة رودس (١٤٨٠ - ١٤٨١م) ومدينه اوترانتو فى جنوب ايطاليا كسبيل لدعم السيطرة على شرق المتوسط مؤشرا على حدود العمليات البحرية العثمانية فى شرق المتوسط خلال حكم محمد الفاتح . وهو الأمر الذى تغير بعد ذلك خلال القرن ١٦م حين خاضت الدولة العثمانية بعد ضم مصر مرحلة التنافس على النفوذ فى البحر المتوسط مع اسبانيا (كما سنرى) .

المطلب الثالث : توقف الاندفاع نحو الغرب وبداية الالتفاف نحو الشرق والجنوب (٨٨٦ - ٩١٨هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢م) : بين تأثير الأوضاع الداخلية العثمانية وتأثير الأوضاع الأوروبية :

منذ نهاية سلطنة محمد الفاتح وحتى بداية سلطنة سليم الأول أى خلال سلطنة بايزيد الثانى التى امتدت مايزيد عن الثلاثين عام لم تزد أملاك الدولة العثمانية الا قليلا فلم تكن حروب بايزيد الا دفاعا عن الحدود القائمة ، وبذا كانت هذه الفترة مرحلة انتقالية بين تجدد واحياء الفتح العثمانى بعد هجمة تيمور لنك وبين بداية الدور العالمى للعثمانيين ليس على الساحة الأوروبية فقط ولكن على صعيد العالم الاسلامى بشرقه

وغربه ، والتى بدأت مع سليم الاول الذى اتجه للجنوب ووصلت إلى قمتها مع سليمان القانونى .

وتعد هذه المرحلة محصلة عدة عوامل اختلف تركيز المصادر على كل منها :فمن ناحية ، كما يرى البعض (٦٢) ، كانت شخصية بايزيد المحبة للسلام وراء عدم تحركه العسكرى الخارجي كثيرا واقتصر على صد هجمات الدول المتاخمة ، ومن ناحية أخرى استغلت الدول الأوروبية اندلاع الحروب الداخلية بين ولدى محمد الفاتح بايزيد الثانى وجم لتحجيم الخطر العثمانى، ولقد أدى النزاع إلى توجه كل منهما لأطراف أوروبية مما كان له تاثير على حركة التوسع العثمانى. فنجد أن لجوء جم إلى رئيس رهبان رودس قد استخدم من جانب الأخير لمساومة السلطان بايزيد على عدم التعرض لاستقلال الجزيرة وعلى دفع مبلغ سنوى لرهبانها فى مقابل ابقاء جم فى الجزيرة . كما حاولت المجر والمانيا استلام جم ليستعملاه كأداة لاضعاف الدولة العثمانية . أما فرنسا فقد تسلمت جم من بابا روما خلال حملة شارل الثامن ملك فرنسا على بلاد ايطاليا (١٤٨٩م – ١٤٩٥م) تحت ستار تنفيذ مشروع فتح القسطنطينية عن طريق البندقية والبانيا ولقد كانت هذه الحملة هى السبب وراء محالفة العثمانيين للبنادقة ضد فرنسا (٦٣) . بعبارة أخرى فطوال الفترة التى ظل فيها جم رهينة أوروبا المسيحية (١٤٨٣ – ١٤٩٥) لم يغامر بايزيد بشن أى حملة كبرى خوفا من أن تغزو القوى المسيحية أراضيه وتنصب أخاه على العرش (٦٤) ، كذلك فان انتصارات بايزيد على البندقية بعد فتح مدينة ليبانتو (٩٠٥ هـ – ١٤٩٩م) والتى كان من الممكن أن تقود إلى فتح بلاد البنادقة كلها لم تستمر بسبب عصيان أولاده فى بلاد الأناضول وماتلاه من اندلاع حرب أهلية بينه وبينهم وخاصة سليم الأول . ومن ثم اضطر السلطان مع تدهور أحوال السلطنة الداخلية إلى عقد صلح مع محاربيه فى أوروبا أى المجر والبندقية (٩٠٨ – ٩٠٩هـ / ١٥٠٢ – ١٥٠٣م) على التوالى ليتفرغ لحروبه الداخلية وإلى أن تخلى عن السلطنة (٩١٨ هـ – ١٥١٢م) (٦٥) .

ومن ناحية ثالثة يفسر البعض (٦٦) هذه السمة على ضوء الدلالة السياسية لأوضاع غرب أوروبا بعد فتح القسطنطينية ، حيث يشير إلى أنه بعد الفتح ظهرت روح جديدة أخذت تجتاح اوروبا وترجمت نفسها فى اشتداد المقاومة الأوروبية للقوات

---

(٦٣) أنظر تفاصيل هذه المنازعات وانعكاساتها فى :
المرجع السابق ، ص ص ١٧٥ – ١٨٣ .
(٦٤) د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ٤٥ .
(٦٥) محمد فريد :مرجع سابق . ص ١٨٣ – ١٨٧ .
(٦٦) محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق . ص ٩٠– ٩٢ .

العثمانية ، ولم يتمكن العثمانيون من احراز انتصارات حاسمة على المجر طوال النصف الثانى من القرن ١٥م نظرا لصلابة وشدة مقاومة المجر .

ومن ناحية رابعة يضيف البعض (٦٧) اعتبارات اخرى تتصل بخطط بايزيد ومن قبله أبيه محمد الفاتح حول توقيت واتجاهات الفتوح وذلك على ضوء ادراكهما وحساباتهما للمكاسب والمخاطر المحتملة الناجمة عن أوضاع توازن القوى خلال النصف الثانى من القرن ٩هـ -١٥م . فلقد رأيا أن الفتوح لايجب أن تتعدى على الساحة الاوروبية أو الساحة الآسيوية الحد الذى قد يؤدى تخطيه إلى اندلاع صراع مرير مع القوى الكبرى سواء فى الشرق أو الغرب . ففى أوروبا كان أى توسع جديد فى وسط أوروبا لابد أن يتم على حساب أملاك الامبراطورية الرومانية المقدسة وهو الأمر الذى كان سيؤدى إلى صدام مع النمسا والدول الأوربية المتحالفة معها . وتبرز مدلولات هذا التفسير على ضوء توجه سليم الأول بفتوحه نحو الجنوب على النحو الذى أثار التساؤل - كما سنرى - حول أسباب ودوافع هذا التوجه الجديد بعيدا عن الغرب وخاصة وان الفتوح فى أوروبا قد عادت مرة أخرى وبدأ الصدام مع النمسا بعد موجة التوسع فى الجنوب .

ولقد كان من أهم ملامح التطور فى العلاقات العثمانية الأوروبية فى نهاية هذا القرن هو بداية العلاقات مع روسيا ١٤٩٢م والتى كان مجالها الأساسى وسط وشمال غرب آسيا .

المبحث الرابع : أنماط العلاقات الإسلامية - الإسلامية وتأثير المتغير الأوروبى :

على ضوء البحث فى اتجاهات التفاعلات بين مراكز القوة الإسلامية الأساسية (المملوكية والعثمانية) وبالبحث أيضا فى درجة تبلور الروابط بين أوضاع كل من الأنساق الفرعية الدولية الإسلامية (غرناطة ، شمال أفريقيا ، آسيا المسلمة ورثة القبيلة الذهبية ومغول فارس ، أفريقيا المسلمة - دول الزيلع) وبين درجة تفاعل كل منها مع أطراف مسيحية (أرجون وقشتالة ، إمارة موسكو ، مملكة الحبشة المسيحية)، وبالبحث ثالثا فى انعكاسات دور ووضع كل من المماليك والعثمانيين أو أحدهما بمفرده على تفاعلات هذه الأنساق الفرعية مع الأطراف المسيحية ، (سياسة المماليك والعثمانيين نحو سقوط غرناطة ، سياسة المسلمين نحو مسلمى الزيلع ، سياسة العثمانيين نحو موسكو ومغول آسيا) ، على ضوء هذا البحث خلال القرن ٩هـ - ١٥م

(٦٧) المرجع السابق ، ص ص ١٠٧ - ١٠٨ .

يمكن أن نورد الملاحظتين التاليتين :من ناحية – وعلى عكس الفترة السابقة (القرن ٨هـ – ١٥م) نلحظ نموا فى هذه الاتجاهات والروابط والانعكاسات ، ومن ناحية أخرى يتبين لنا أيضا نمو تأثير المتغير الأوروبى على هذه الاتجاهات والروابط والانعكاسات أيضا .

ولقد برز مدلول هذه الملاحظات من واقع خبرة النصف الثانى من القرن ٩هـ – ١٥م وبصفة خاصة منذ فتح القسطنطينية ، ففى الوقت الذى كان يجرى فيه الاستعداد ثم القيام بفتح القسطنطينية كانت الجهود البحرية البرتغالية مستمرة فى التطور والنمو بحيث وصلت عند منتصف القرن إلى احتلال مواقع على الساحل الغربى للعالم الاسلامى ، كما تزايد الخطر الأسبانى على غرناطة وكانت محاولات التحالف الافرنجية مع الحبشة مستمرة أيضا ، وذلك فى الوقت الذى تزايد فيه الضغط من الشمال وخاصة من ارجون وقشتالة على المماليك الشراكسة .

وبعد فتح القسطنطينية ومع استمرار الضغط العثمانى على أوروبا من جهة الشرق سعيا لعزلة الأجزاء التى لم تفتح والاضرار بتجارتها ومع نتائج التوسع العثمانى فى القرم أيضا استكملت أوروبا جهودها لاتمام عملية تصفية الوجود الاسلامى فى الأندلس ومحاولة الالتفاف من الجنوب ، وهى الجهود التى دفعت لها أيضا السياسات المملوكية لاحتكار تجارة العبور .

وهكذا تتضح لنا ملامح التفاعلات بين أوضاع الأنساق الفرعية الدولية الإسلامية المختلفة وذلك فى ظل التفاعل الشامل بين العالمين الاسلامى والمسيحى وفى ظل التفاعل بين مركزى القوة فى العالم الاسلامى المماليك والعثمانيين . هذا ويمكن القاء الضوء على تفاصيل هذه الملامح والملاحظات من خلال دراسة المجموعتين التاليتين من أنماط التفاعلات الإسلامية – الإسلامية :

المجموعة الأولى : تتصل بنمط التفاعلات المملوكية العثمانية .

أما المجموعة الثانية : فتتصل بالتفاعلات بين كل منهما وبين الثلاثة أنساق الفرعية الإسلامية الدولية السابق توضيحها والتى تعرضت فى هذه المرحلة لدرجات مختلفة من التهديد من جانب أطراف مسيحية .(٦٨)

المطلب الأول : نمط العلاقات المملوكية – العثمانية :من عدم التعاون إلى بداية الصدام ووضع المتغير الأوروبى فيه :

تجددت القوة العثمانية عند منتصف القرن ٩هـ فى نفس الوقت الذى بدأت فيه القوة المملوكية مرحلة الانحدار . وإلى جانب تفاعلات كل منهما مع الأطراف الأوروبية

(٦٨) وفقا للضوابط العامة لهذا الجزء من المشروع فإن التركيز لن يكون على التفاعلات الروسية أو الحبشية او الافرنجية مع الاطراف الإسلامية المناظرة أى امارات وسط آسيا أو الزيلع أو غرناطة على التوالي بقدر ماسيكون على هذه الانساق الفرعية كمجال للتفاعلات بين طرف اسلامى مركزى (العثمانى او المملوكى)وأحد هذه الأطراف المسيحية .

المسيحية – كما سبق ورأينا – كان لهما تفاعلاتهما المباشرة وغير المباشرة أى المتصلة باطراف أخرى أسلامية وغير اسلامية .

والسؤال الذى يكمن وراء البحث فى هذه الأنماط هو :هل كانت العلاقات المملوكية العثمانية علاقات تعاونية فى صالح الأمة الإسلامية أم علاقات تنافسئية أو صراعية؟ وكيف انعكس نمط هذه العلاقات على دور هاتين القوتين فى أرجاء العالم الاسلامى؟ . وتنبعث أهمية هذا السؤال من عدة اعتبارات :أولها أن تدهور وجمود عناصر القوة المملوكية كان يقابلهما حالة نمو فى عناصر القوة العثمانية ، وثانيهما أن الفواعل الإسلامية فى أطراف العالم الاسلامى كانت تمر بمرحلة انتقالية خطيرة (التصفية فى الاندلس ، الابتلاع فى وسط وشرق افريقيا (الحبشة) ، بداية الاستقطاع فى وسط وشمال غرب آسيا) . وقد أثرت نتائج هذه المرحلة الانتقالية على المواجهة بين العالمين المسيحى والاسلامى بعد ذلك . فكيف كان نمط العلاقة بين العثمانيين والمماليك وكيف يقدم اكتشاف هذا النمط التمهيد اللازم للاجابة عن السؤال المطروح عاليا؟ .

ولقد تطور نمط العلاقة منذ هجمة تيمور لنك وحتى نهاية القرن ٩هـ من حالة عدم التعاون والتشكيك إلى حالة الحذر والترقب وصولا إلى حالة الصدام المباشر . فقد أبرزت الاختبارات التى تعرضت لها هذه العلاقات كيف أن كلتا الدولتين لم تعبفرص التعاون أمام خطر مشترك (تيمور لنك) كما لم تتمكنا من التغلب على دوافع الصدام المباشر بسبب تنازع المصالح الاقليمية.

١ – فبالنظر إلى أحداث هجمة تيمور لنك – والتى سبق تفصيلها نجد أن تيمور لنك قد بنى مخططه فى التعامل مع المماليك والعثمانيين على أساس الانتهاء من كل منهما على حدة ، ولقد ساعدت سياسة كلا الطرفين تجاه الأخر على تنفيذ مخططه نظرا لعدم حرصهما على التحالف فى مواجهة العدو المشترك وعدم ادراكهما – لأسباب متنوعة – لأهمية هذا التحالف وضرورته. فترجع الاستجابة السلبية من جانب برقوق لعرض السلطان العثمانى التحالف ٧٩٠هـ بهدف مواجهة بداية تحرك تيمور لنك نحو حدود الدولتين يرجع إلى ادراك السلطان المملوكى لخطورة الدولة العثمانية على بلاده . ثم رفض المماليك ابان سلطنة فرج ابن برقوق طلبا آخر من السلطان العثمانى من أجل نفس التحالف نظرا لقيام الأخير ١٤٠٠م بالاغارة على الحدود السورية والاستيلاء على بعض المدن الهامة[٦٩] . وإذا كان العثمانيون قد أخطئوا بانتهاج هذا العمل العدائى فى هذه الفترة حيث أصاب بالضرر العلاقات السياسية بين البلدين فى تلك الظروف نظرا

---

(٦٩) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :عصر المماليك . مرجع سابق ، ص ص ٢٦٦ – ٢٨٦ .

(٧٠) تشير بعض المصادر إلى فرح السلطان فرج بن برقوق لهزيمة العثمانيين على يد تيمور لنك . انظر :

لاثارة مخاوف سلطنة المماليك من نوايا العثمانيين ، فان المماليك بدورهم قد اتسموا بالانتهازية السياسية حيث أن رفضهم التحالف الذى كان يصر عليه بايزيد قد أعطى تيمور لنك الفرصة التى كان يخطط لها ، أى ضرب كل من القوتين على انفراد ، ومن ثم قام بضرب المماليك فى الشام أولا ثم هزيمة بايزيد فى أنقرة بعد ذلك . واذا كانت هجمة تيمور لنك لم تمتد فى الأراضى المصرية إلا أنها أصابت موارد مصر المملوكية بضرر شديد بسبب الخراب الذى أصاب الشام ، رغم أن نتائج معركة أنقرة من زاوية أخرى كادت أن تنهى الوجود العثمانى وتزيل لدى المماليك الخوف المتوقع منهم [٧٠] .

٢ – وبعد وفاة تيمور لنك وتفكك امبراطوريته وزوال الخطر الذى هدد الدولتين دخلت كل منهما فى مرحلة اعادة بناء داخلى ومن ثم تقلصت احتمالات الصدام الذى كان قد بدأ بينهما على الحدود السورية ، وظلت الصداقة متبادلة مابين السلطانين مابقيت حدودهما ومنافعهما فى مسافات جغرافية تكفل لهما عدم الاصطدام . واذا كان الصدام المباشر قد وقع بين الدولتين ١٤٨٣م – كما سنرى – الا أن عقود النصف الأول من القرن ٩هـ شهدت بالرغم من استمرار علاقات الود والصداقة (الهدايا ، المراسلات ، السفارات) علاقات للترقب والتوتر الحذر بين الطرفين والذى كان لبعض الأطراف الأوربية دورها فى التأثير عليه بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، كما ارتبط فى جانب كبير منه بأوضاع الامارات التركمانية التى تكونت على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين والتى دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك ومهاجمة أراضيها وهو الأمر الذى اشتد فى القرن ١٥م . اذ ثار هذا التوتر فى بداية القرن على الحدود الشمالية لبلاد الشام نتيجة اتصال شاه رخ ابن تيمور لنك بامراء التركمان وبالسلطان العثمانى محاولا تأليف حزب ضد الأشرف برسباى . ولقد شكلت أهم هذه الامارات التركمانية (ذى القادر ، ابناء رمضان ، دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء) تهديدا لحدود السلطنة المملوكية ولم يستطع برسباى نتيجة انشغاله بحملات غزو قبرص تأديب هذه الامارات بصورة حاسمة [٧١] .

– محمود شاكر :التاريخ الاسلامى (العصر المملوكى) مرجع سابق ، ص٧٤ .

من الضرورى اجراء تحليل لمضمون مراسلات المماليك والعثمانيين خلال هذه الفترة ومقارنتها بتطور سلوكها حتى يمكن تقديم توضيح اكبر لآليات ودوافع عدم التعاون بين الطرفين .

٧١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى ... مرجع سابق ، ص ص ٢١١ – ٢١٣.

– د. سعيد عبد الفتح عاشور :الأيوبيون ، مرجع سابق ، ص ص ٣١٠– ٣١٢ ، ٣١٨– ٣١٩ .

– محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ٧٦ .

٧٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى . مرجع سابق ، ص ص ٢٦١ – ٢٦٣ .

وفى نفس الوقت الذى أخذ يقترب فيه نفوذ العثمانيين من هذه الامارات بعد عملية اعادة البناء الداخلى للدولة العثمانية وعملية اعادة اقرار النفوذ الاقليمى ، أدى استمرار التوتر على الجهة الشرقية والشمالية لدولة المماليك إلى صرف جهود برسباى عن فتح رودس بعد فتح قبرص مباشرة ثم أدت سياسة الوفاق التى بدأها السلطان جقمق مع التيموريين والعثمانيين والتركمان إلى تهدئة هذه الجهة ومن ثم الانصراف إلى محاولات غزو رودس . (٧٢)

ولقد تزامن توقيت نهاية هذه المحاولات بالفشل (١٤٤٠ - ١٤٤٤م) مع بداية الصدام القوى بين مراد الثانى وبين المجر فى اوروبا والذى أدى - كما سبق ورأينا- إلى معركة كوسفو الشهيرة والتى انتصر فيها مراد الثانى ١٤٤٨م انتصارا حاسما ، ولهذا يمكن أن نفهم سبب ما أوردته بعض المصادر (٧٣) عن تشجيع السلطان مراد الثانى للسلطان المملوكى لارسال حملة إلى جزيرة رودس رغبة منه فى صرف رهبان الاستبارية إلى الدفاع عن جزيرتهم بدلا من الانضمام إلى الحلف المسيحى الذى تكون وكان على وشك القيام بحرب كبرى ضد العثمانيين (والتى دفعت مراد لقبول الصلح ١٤٤٣م) ، وهو الأمر الذى دفع رئيس رودس لمطالبة مراد الثانى بالدخول فى معاهدة جديدة غير أن مراد رفض ذلك ، وكان انتصار مراد الثانى على المجر ١٤٤٨م بعد أن فشلت محاولات المماليك فى غزو رودس فرصة أخرى لاظهار العثمانيين لقوتهم وبطولاتهم ودورهم الجهادى فى العالم الاسلامى عن طريق ارسال سفارة إلى مصر ، ولقد رأى السخاوى فى هذه السفارة "سبيلا لأن يعتبر السلطان وعسكره ويعلموا أنهم (أى العثمانيون) هم الفرسان الشجعان والرجال الابطال " ، ولم يثر هذا فى نفس جقمق أى حسد - بل على العكس - وكما ذكرت بعض المصادر الغربية ذاتها فانه اراد أن ينتقم من رهبان الكنيسة المقدسة بسبب ماحاق بالمسلمين العثمانيين من تنكيل على يد المجريين (٧٤) هذا ولقد فسرت بعض المصادر هذا المسلك (٧٥) فى سياق المسلك العام للمماليك ضد أهل الذمة باعتباره رد فعل للأحداث فى أرجاء العالم الاسلامى سواء مشروعات تحالف الصليبيين مع

---

(٧٢) د، سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٦١ - ٢٦٣ ،

- أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ٥٥ - ٥٦ ،

(٧٣) محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ٧٩ ،

- د، محمد مصطفى زيادة :نهاية سلاطين المماليك ..، مرجع سابق ، ص ص١٩٨ - ١٩٩ ،

- د، ابراهيم على طرخان :دولة الجراكسة ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ ،

(٧٤) (نقلا عن :أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ٥٩ - ٦٠ .

(٧٥) المرجع السابق ، ص ص ٧٦ - ٧٧

الحبشة ضد المماليك أو الحروب بين المجر والعثمانيين أو بين القشتاليين والغرناطيين بأسبانيا ، ولهذا كله وصفت العلاقات بين العثمانيين والمماليك بأنها كانت علاقات طيبة وأن لم تكن جيدة و"بعيدة ولكن ودية للغاية" (٧٦) .

وتتويجا لمظاهر هدوء العلاقات ولتعبيرات التضامن بين الدولتين كان احتفال السلطان اينال ومصر كلها بنبأ فتح القسطنطينية وهو الحدث الذى تم بمناسبته تبادل الرسائل بين السلطان محمد الفاتح والسلطان اينال المملوكى (٧٧) . ولقد كان لهذا الحدث صداه الطيب فى العالم الاسلامى وخصوصنا مصر التى تعد المركز الذى تتبادر فيها كل الآراء والثقافات . ولقد عبر المؤرخون المصريون الذين عاشوا فى هذه الفترة عن طابع الجهاد الذى نادى به العثمانيون واعتبروا محمد الفاتح أكبر السلاطين العثمانيين (٧٨) . والجدير بالذكر هنا أنه اذا كانت البندقية قد أضحت بعد فتح القسطنطينية طرفا أساسيا فى الصدام مع العثمانيين (١٤٦١ - ١٤٧٩م)حيث تم عقد صلح بين الطرفين - كما سبق ورأينا - فانها فى المقابل كانت شريكا تجاريا هاما مع مصر المملوكية ، كما رأينا أيضا . واذا كانت الامارات التركمانية قد أضحت تمثل - كما سنوضح - تهديدا متزايدا لحدود المماليك منذ منتصف القرن فان البندقية قد حاولت التحالف مع بعض هذه الامارات (الشاه البيضاء)ضد العثمانيين لاحداث قلقلة لهم فى الجهة الشرقية لصرف أنظارهم عن الجبهة الغربية ، ولم تنجح هذه المحاولة(٧٩) . فهل أثرت هذه العلاقات المتناقضة بين الطرفين وبين البندقية على العلاقات بينهما خلال الفترة التى سبقت الصدام المفتوح ؟ .

٣- لقد تلى نمط عدم التعاون فى بداية القرن ثم نمط التأرجح بين التوتر والهدوء والتضامن خلال النصف الأول منه مرحلة الصدام الذى أخذ يتصاعد تدريجيا منذ ١٤٣٦ حتى وصل إلى الصدام العسكرى ١٤٨٣م والذى لعبت فيه أطراف أوروبية دورها أيضا .

ولقد بدأت هذه المرحلة بعد نجاح عملية السيطرة العثمانية على البلقان وفتح القسطنطينية واتجاه الدولة العثمانية إلى استكمال استعادة سيطرتها على آسيا الصغرى وذلك ببسطها السيطرة على الامارات التركمانية فى شرقها وجنوبها، لذلك

---

(٧٦) عبد الجليل التميمى :مرجع سابق ، ص ٤٥ .

(٧٧) أنظر نص هذه الرسائل ومدلولاتها بالنسبة لطبيعة العلاقات بين البلدين فى :

- د. عبد الجليل التميمى :مرجع سابق ، ص ١٦٢ .

(٧٨)المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٧٩)كارل بروكلمان :تاريخ الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، الجزء الثالث ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٤٩ .

تقاربت الحدود العثمانية والمملوكية فى شمال الشام مهيئة نقاطا للاحتكاك الاقليمى[٨٠] . بعبارة أخرى فلقد كان تطلع الدولة العثمانية لبسط سيطرتها على الامارات التركمانية هو السبب المباشر للصدام بين المماليك والعثمانيين ، واتخذ هذا الصدام فى البداية وحتى ١٤٨١م شكلا غير مباشر بقيام كل من الدولتين بمساعدة طرف من الأطراف المتنافسة على الحكم فى امارتى ذى القادر وقرمان . ثم مالبث هذا الصدام أن اتخذ شكلا سافرا حين اتسعت المساعدة العثمانية لتصل إلى مشاركة جنود عثمانيين فى الاغارة على حدود الشام . واستمر الصدام العسكرى منذ ١٤٨٣م وحتى ١٤٩٢م حين عقد الصلح بين الدولتين بعد أن استطاع السلطان قايتباى أن يتصدى بقوة للعثمانيين . والجدير بالذكر أنه ثارت حول أسباب واندلاع هذا الصدام وأسباب احتوائه بعقد الصلح عدة احتمالات لايمكن الفصل بينها من أهمها :بالنسبة لأسباب الاندلاع كان هناك التنازع على النفوذ فى الامارات التركمانية . فاذا كان من المفتروض أن هذه المنطقة تابعة للمماليك إلا أنها دخلت فى مخطط التوسع العثمانى منذ توجه محمد الفاتح شرقا بعد اتمام فتح القطسنطينية، وازداد توظيفها فى عملية الصدام بين بايزيد الثانى وقايتباى على ضوء قضية جم أخو بايزيد والذى كان ينافسه على العرش والتجأ إلى قايتباى قبل أن يلجأ إلى رودس ثم سلم إلى البابا – كما سبق ورأينا – . ولقد حاول قايتباى بعد اشتعال الصدام مع العثمانيين اقناع البابا بتسليمه جم ليتمكن من الضغط على العثمانيين خلال مفاوضات الصلح ولكن أراد البابا استغلال هذه الورقة للوقيعة بين المماليك والعثمانيين وشجع المماليك على حرب العثمانيين[٨١] وبالنسبة لأسباب الاحتواء وعقد الصلح فبالرغم من اشارة البعض [٨٢] إلى أن قايتباى السلطان القوى هو الذى استطاع أن يوقف الأتراك العثمانيين عن مصر لمدة جيل من الزمان، فان البعض الآخر [٨٣] يرى أن بايزيد الثانى لم يكن فى نيته التوسع فى دولة المماليك على أساس

– د. محمد مصطفى زيادة :مرجع سابق ، ص ١٩٩ .

(٨١) أنظر التفاصيل فى :

محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ص ٩٩ –١٠٦ .

– د. محمد مصطفى زيادة :مرجع سابق ، ص ص ٢٠٥ – ٢١٠

– أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١٠٢ – ١٠٣ ، ١١٤ – ١١٧.

– د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ص ٤٥ – ٤٩ .

– د. سعيد عبد الفتاح عاشور :العصر المماليكى . مرجع سابق ، ص ص٢٦٣ – ٢٧١ .

(٨٢) جورج كيرك :موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر . ترجمة عمر الاسكندرى ، مركز كتب الشرق الأوسط ، القاهرة . ١٩٥٧ ، ص ٨٤ .

(٨٣) د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ٤٩ .

– د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الايوبيون .. ، مرجع سابق ، ص ص ٣١٢ – ٣٢١ ؛ محمد عبد المنعم الواقد: مرجع سابق ، ص ص ٩١ – ٩٩ .

(٨٤) انظر تفاصيل هذه التطورات فى :

أن الصدام المسلح لم يكن يستهدف فى هذه المرحلة أكثر من مناطق النفوذ المشتركة لأن بايزيد ومن قبله أبيه محمد الفاتح أدركا أن أى توسع كبير نحو الشرق أو الجنوب لابد وأن يؤدى إلى صدام كبير لم تكن القوة العثمانية مستعدة له بعد ، وهو الأمر الذى تغير بعد ذلك .

اذن كيف انعكس هذا النمط من العلاقات بين القوتين الكبيرتين فى الشرق الاسلامى على التعامل مع مصادر التهديد الكامنة أو السافرة التى كانت أطراف اسلامية تتعرض لها ؟ .

المطلب الثانى : العلاقات المملوكية ـ العثمانية ـ الغرناطية: المساندة المفقودة فى مرحلة السقوط :

سقطت غرناطة آخر معاقل الوجود الاسلامى فى الأندلس ٨٩٧هـ – ١٤٩٢م وجاءت معارك السقوط الفاصلة –والتى بدأت ١٤٨١م وامتدت خلال عقد كامل تساقطت خلاله المدن والحصون وحتى سقطت غرناطة ذاتها – بعد فترة من التدهور السريع فى قوة الدولة النصرية منذ منتصف القرن ٩هـ – ١٥م .[٨٤] وتعد عملية السقوط التدريجية وحتى تسليم غرناطة ١٤٩٢ وفق معاهدة مع الأسبان حددت شروط التسليم[٨٥] حالة برزت على صعيدها أنماط من التفاعلات الدولية فيما بين أطراف اسلامية وبينهم وبين أطراف غير مسلمة . كما اتضح ماكان لعوامل داخلية وخارجية من آثار متباينة على عملية السقوط هذه – فما هى إذن هذه العوامل ؟ وماهى أهم أنماط هذه التفاعلات ؟

أولا عوامل سقوط غرناطة :

استطاعت غرناطة ولمدة مايقرب من القرن والنصف عقب معركة طريف الاستمرار فى الوجود، ونعمت بفترات طويلة من الازدهار والسلام ، فلقد تجمعت فيها عناصر قوة النازحين المسلمين من المناطق التى وقعت فى يد الأسبان ولقد كانت هذه القوة كافية لقيام بعض حكام غرناطة بالتصدى للأسبان ووقف تقديم الجزية لهم ووقف توسعهم من الشمال والاحتفاظ بمعظم الأراضى التى قامت عليها الدولة النصرية ولم

محمد عبد الله عنان :مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩٣– ٣٠٣

– شكيب ارسلان :مرجع سابق ، ص ص ١٨١ – ٢٩٤.

(٨٥) أنظر النص الكامل لمعاهدة التسليم فى :

محمد عبد الله عنان :نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٠ – ٢٦٠ .

– انظر ايضا وصف التسليم والصلح كما جاء فى "نفح الطيب "نقلا عن :

شكيب ارسلان :مرجع سابق ، ص ص ٢٨٦ – ٢٩٣.

(٨٦) عادل سعيد البشتاوى :الأندلسيون المواركة دراسة فى تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة، القاهرة ،ط١ ١٩٨٣ ،

يمنع هذا من كون كثير من ملوك غرناطة قد رضخوا من ناحية أخرى إلى دفع الجزية ثمنا لاستمرار السلام . وطوال هذا القرن ونصف ساعدت مجموعة من العوامل على هذا الاستمرار وكان من أهمها عدم استعداد أمراء الأسبان لفتح باب حرب كبرى على غرناطة لانهاء وجودها كما حدث خلال العقد الأخير من عمرها ، ذلك لأنه منذ سقوط مرسية ٦٦٤هـ - ١٢٦٦م وحتى سقوط غرناطة توقفت عملية التوغل الأسبانى الكبير نحو الجنوب أى عملية الاسترجاع التى كانت قد استكملت حتى أواخر القرن ٧هـ لتشمل كل الأندلس عدا غرناطة . وبقدر ماكان لهذا الصمود الكثير من التفسيرات المتعددة ولكن المتكاملة فان السقوط بدوره كان محل تفسيرات عديدة [٨٦] . وكان سقوط غرناطة - التدريجي في مرحلته الأخيرة - محصلة اجتماع تأثير ثلاث مجموعات من العوامل : [٨٧]

فمن ناحية :تصاعدت الخلافات الداخلية بين أولاد بني الأحمر على الحكم ، والتى استشرت قرب منتصف القرن ٩هـ فى شكل فتن خطيرة وحروب أهلية كان أخطرها التى وقعت فى المرحلة الأخيرة من السقوط بين "الزغل "وابن اخيه "أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن "وكانت هذه الحرب وراء التراخى والضعف والذى تصاعد تدريجيا منذ ١٤٣٢م وحتى وصلت معه البلاد إلى الانقسام بين رئاستين ٧٨١هـ - ١٤٦٦م هما أبو الحسن في غرناطة ، وأبو عبد الله الزغل في مالقة . ولقد استغل الأسبان هذه الاختلافات وعملوا على تصعيدها فى وقت لم تكن المعارك الكبرى قد بدأت بعد . وساعدهم على ذلك اتجاه أمراء بنى الأحمر للاستعانه بهم ضد بعضهم البعض كما فعل أبو عبد الله حين استعان بالقشتاليين ضد عمه الزغل على أن يتمكن من السلطة بمفرده فما كان من الأسبان بعد أن فرغوا من الزغل إلا أن هاجموا أبى عبد الله نفسه في غرناطة وطالبوه بالتسليم [٨٨] .

ومن ناحية أخرى : وعلى عكس التطور نحو مزيد من الفتن الداخلية والانقسام فى غرناطة كانت أحوال ممالك الأسبان التى سبق واستغرقتها المنازعات والخلافات من قبل تتجه نحو مزيد من التنسيق والتعاون والذى وصل ١٤٧٩م إلى اتحاد

ص ص ٩٢- ١٠٠ .

(٨٧) انظر رؤية حول هذه العوامل فى :

شوقى ابو خليل :عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الاسلامى . دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٨، ط٢ ، ص ص ١١٧ -١٢٠ .

(٨٨) ل . ا . سيديو :مرجع سابق ، ص ص ٣٦٧ - ٣٦٩ ، ٣٧٣ - ٣٧٥ .

- محمد سعيد المطوى :مرجع سابق ، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .
- محمد عبد الله عنان :مرجع سابق ، ص ص ٢٩٣- ٣٠٣ .
- شكيب ارسلان :مرجع سابق ، ص ص ١٨١- ٢٤٩ .

(٨٩) ل.ا . سيديو :مرجع سابق ، ص ص ٣٦٩ - ٣٧٠، ٣٧٣ .

مملكتي قشتالة واراجون نتيجة اعتــلاء عرش كل منهما الزوجــين ايزابيلا وفرديناند (١٤٧٤م – ١٤٧٩م) . وكان هذا الاتحاد بداية الطريق نحو تعبئة كل الموارد اللازمة للقضاء على مسلمي الأندلس ، وكان هذا القضاء فى نظر ايزابيلا هو الخطوة الأساسية لاستكمال بناء مملكة مسيحية قوية موحدة وبداية دور أسبانى متفوق ومتقدم فى العالم وأوروبا خلال القرن ١٦م . بعبارة أخرى بعد أن نجح أمراء غرناطة وبنى مرين فى استغلال الفتن بين أمراء الأسبان خلال القرن ١٤م فان الأسبان بدورهم استطاعوا بنجاح خلال النصف الأخير من القرن ١٥م استغلال الفتن بين صفوف بنى الأحمر فى نفس الوقت الذى دعموا فيه وحدتهم. ولهذا لم يعد من الممكن لغرناطة الاستمرار كوجود مسلم فى وسط لايعرف إلا الحرب سبيلا إلى توحيد الكلمة والثراء والقضاء على باقى الوجود الاسلامى . ولقد ازدادت هذه الصعوبة أمام غرناطة نتيجة تجدد الروح الصليبية التى كانت قد خفت حدتها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادى . وكان ذلك التجدد مقترنا بالروح التى سادت بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م حيث عادت البابوية فى روما تحث ممالك الشمال المسيحية فى الاندلس على التضامن لتحقيق انتصار جديد على الجبهة الإسلامية الغربية فى الاندلس كما حدث من قبل . ولذا ازدادت مشكلات غرناطة حدة نتيجة مساندة البابا لخطة الملكة ايزابيلا للقضاء على مملكة غرناطة حيث أصدر ارادة بابوية لشن حملة صليبية ضد الغرناطيين (٨٨٤هـ – ١٤٧٩م) وسمحت هذه الارادة لايزابيلا وزوجها بتحصيل ضريبة لتوفير المال اللازم للحرب وظلت هذه الارادة تتجدد سنويا حتى تم السقوط ١٤٩٢م فأرسل فرديناند إلى البابا يبشره بالنصر على "اندلس غرناطة اعداء ديننا الكاثوليكى الطاهر"[٨٩]. .

ومن ناحية ثالثة : تحقق النصر الأسبانى بعد عقد كامل من المعارك المستمرة التى بذل خلالها أهل مملكة غرناطة مقاومة شديدة فى العديد من المدن والحصون ولكنها لم تتمكن من صد هذه الموجة نظرا للامكانات الهائلة التى توافرت للأسبان فى نفس الوقت الذى لم تلق فيه غرناطة مناصرة من قريب أو بعيد . بعبارة أخرى إلى جانب تدهور القوة الذاتية لغرناطة بسبب الفتن وإلى جانب تزايد قوة واتحاد الطرف المعادى افتقدت غرناطة النصرة من جانب بنى مرين أو المماليك أو العثمانيين ، فنصرة بنى مرين تضاءلت منذ منتصف القرن ٨هـ وحتى انتهت بعد ذلك بحيث أضحت غرناطة تجابه أسبانيا بمفردها وخاصة بعد استيلاء الأخيرة على جبل طارق ٨٦٨هـ – ١٤٦٢م

– محمد سعيد المطوى : مرجع سابق ، ص ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .
– عادل سعيد البشتاوى : مرجع سابق ، ص ص ٦٨ – ٨٤ ، ٩٢ – ١٠٠ .
– شكيب ارسلان : مرجع سابق ، ص ص ١٢٥ – ١٢٦ .

على نحو قطع الطريق تماما أمام النجدات الواردة من بلاد المغرب الأقصى وهى النجدات التى لم يعد بالمقدور استمرار ارسالها بعد أن اشتغل بنو مرين بشئونهم الخاصة ومشاكلهم الداخلية وحتى سقطوا (٨٦٩هـ - ١٤٦٤م) ولم تقم الدول الإسلامية الكبرى مثل المملوكية والعثمانية بمساندتها[٩٠] . فلماذا ؟

ثانيا : لماذا النصرة المفقودة من جانب المماليك والعثمانيين :

يتفق التيار العام فى التحليلات على أن مصر المملوكية والدولة العثمانية لم يقدما النصرة الكافية واللازمة إلى غرناطة بالرغم من تعدد مرات الاستغاثة والاستنصار ، فكيف يمكن أن نفسر هذه الظاهرة ؟ وهل لم تبد الدولتان أى صورة من صور المساندة ؟ وهل للإحجام عن المساندة الفاعلة مايبرره ؟ .

١ - المماليك بين عدم القدرة على النصرة وبين ممارسة بعض الضغوط على الأسبان :

بالنظر إلى السياق العام الذى أحاط بقضية مدى نصرة المماليك لغرناطة نجد أن الطرف المسيحى الأوروبى المعنى فى هذه القضية وهو قشتالة وأراجون ، كان يمثل طرفا مشتركا فى نظم تفاعلات الطرفين على نحو ربط ولو بصورة غير مباشرة بين مصر والاندلس فى التفاعلات الدولية حول حوض المتوسط . فاذا كانت أراجون منذ أواخر القرن ١٣م . أى مع انتهاء مرحلة التوسع المسيحى الكبير فى جنوب الاندلس وعقب سقوط مرسية واتمام السيطرة على شرق ووسط الأندلس وشمالها . قد انصرفت إلى بناء امبراطوريتها فى المتوسط تاركة استكمال احتلال الاندلس ومحاربة غرناطة لقشتالة ، واذا كان بيبرس ثم قلاوون وفرج ابن قلاوون قد حرصوا على توطيد علاقاتهم مع اراجون ، فان العلائق الأسبانية المملوكية دخلت مرحلة ذات طبيعة مختلفة خلال النصف الأول من القرن ١٥هـ حيث لعبت مملكة أراجون دورا أساسيا فى محاربة مصر اقتصاديا عن طريق تعبئة ودفع ومساندة أعمال القرصنة على الموانى المصرية والشامية - كما سبق ورأينا . ولقد برز هذا الدور منذ اعتلاء الفونسو الخامس عرش مملكة اراجون (١٤١٦- ١٤٥٨م) حيث أراد السيطرة على شرق وغرب المتوسط ورفض أية محاولات للصلح حتى يمكن اعادة فتح أسواق مصر للتجارة ، كما أنه لم يكتف بالهجوم على مصر من الشمال بحرا ولكن اجتهد لتنفيذ فكرة التحالف مع ملك الحبشة للالتفاف حول مصر فى نفس الوقت الذى كان يتحالف فيه مع الألبان ضد الأتراك[٩١] . ولقد اشتدت هذه الروح الصليبية خلال أوائل النصف الثانى من القرن ١٥م مع بدء حركة القضاء على مملكة غرناطة عقب

---

(٩٠) شكيب ارسلان :مرجع سابق ، ص ص ١٧٧- ١٧٨ .

-- محمد سعيد المطوى :مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٩١) د. عبد العزيز عبد الدايم :مرجع سابق ، ص ١٢٠.

الاستيلاء على جبل طارق ثم اتحاد مملكتي قشتالة وأراجون . فهل أثر هذا على مزيد من التدهور فى العلاقات المملوكية الاسبانية ؟ وهل كانت هناك فرصة لتقديم النصرة لغرناطة والتى طالبت بها مايقرب من الثلاث مرات حين كان القتال مع الأسبان يحكم حلقاته ويؤدى إلى هزائم ؟ .

فقد كان الاستنجاد الأول فى عهد السلطان المملوكي جقمق ٨٤٤هـ - ١٤٤٠م الذى اعتذر عن ارسال العسكر بسبب طول المسافة ووعد بتقديم المال والسلاح. وإذا كان التحليل التاريخى يثبت أن الدولة المملوكية كانت دولة غير بحرية وكانت تواجه صعوبات من الافرنج في المتوسط - كما سبق ورأينا - فيمكن القول إنه كان يزيد من صعوبة احتمال ارسالها نجدة لغرناطة فى هذه المرحلة أمران :أولهما من ناحية الحملات البحرية التى أرسلتها لغزو رودس والتى أصابها الفشل ، وثانيهما العداء والتربص الذى أحاط علاقاتها بألفونسو الخامس الذى كان يسيطر على غرب البحر المتوسط[٩٢] .

أما الاستنجاد الثانى فكان فى عهد السلطان خشقدم فى ٨٦٨هـ - ١٤٦٤م ، وتؤكد بعض المصادر[٩٣] على استجابة مصر بتقديم المدد والمعونة من الأسلحة والعتاد فى مرحلة خطيرة من المواجهة مع الأسبان ولكنها لم تحدث أثرها على المواجهة نظرا لظروف الحرب الأهلية والتى كانت تمر بها غرناطة بسبب التنافس على العرش . كذلك لم يكن بمقدور المماليك فى هذه المرحلة تقديم عون كبير ويرجع ذلك لعدة اعتبارات :فمن ناحية انقطعت صلات غرناطة بشمال أفريقيا بعد استيلاء قشتالة على جبل طارق ١٤٦٢م ، ومن ناحية ثانية كان العقدان السادس والسابع من القرن ٩هـ واللذان سبقا مجىء قايتباى للسلطة من أسوأ فترات عدم الاستقرار الداخلى فى دولة المماليك الثانية حيث لم يكن مماليك المائة التاسعة كمماليك المائة الثامنة الهجرية[٩٤] ، ومن ناحية ثالثة ازداد اتجاه مصر نحو الشرق منذ ١٤٦١م نتيجة تزايد مشكلاتها مع الامارات التركمانية فى شمال الشام أى فى المنطقة المتاخمة للدولة العثمانية وذلك بعد أن بدأ محمد الفاتح تنفيذ مخططه فى التوسع نحو آسيا الصغرى والذى تطور بعد ذلك مع بايزيد الثانى على نحو أدى إلى أول صدام

---

(٩٢) د. احمد مختار العبادى :دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس . مؤسسة شباب الجامعة . الأسكندرية . د.ت ، ص ص ٤٦٨- ٤٦٩ .

- حول نص السفارة من حيث ماذكر عنها بين أخبار نفس السنة فى كتب المؤرخين(مثل كتاب السلوك للمقريزى ، والسخاوى) ومن حيث السلطان الغرناطى التى أرسلها ، ومن حيث الظروف التى دفعت إلى ارسالها وآثارها . انظر :

د. عبد العزيز الاهوانى " :سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (٨٤٤) ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد السادس ، الجزء الأول ، ج١ ، مايو ١٩٥٤ ، ص ص ٩٥ - ١٢١.

(٩٣) أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ٩٧ - ٩٨ .

(٩٤) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الايوبيون والمماليك ..، مرجع سابق ، ص ص ٣١٦ - ٣١٧ .

مباشر عثماني مملوكي في عهد قايتباى – كما سبق ورأينا – ولقد كان هذا الاتجاه نحو الشرق تقليدا في سياسة مصر الخارجية تبلور في هذه الفترة [٩٥] حيث أن سياسة المماليك انطلقت من أن الاهتمام بالسيطرة على الشام يفرض الاهتمام بالشرق أكثر من الغرب نظرا لوجود الصحراء الغربية التى تمثل مصدر حماية طبيعية .

أما الاستنجاد الثالث فجاء في عصر السلطان قايتباى في ٨٩٢هـ – ١٤٨٧م خلال المرحلة السابقة مباشرة على سقوط غرناطة ، ولقد كان هذا الاستنجاد – كما توضح بعض المصادر[٩٦] ، من الزغل والذى آثر الجهاد وانشق على ابن اخيه أبو عبد الله الذى آثر محالفة فرديناند وايزابيلا . وكان ذلك الاستنجاد بعد أن استولى الاسبان على مالقة التى كان الزغل قد استقل بها والذى خشي بذلك ضياع بقية ملكه. وإذا كان قايتباى قد استجاب بطريق غير مباشر لهذا الاستنجاد حيث مارس ضغطا دبلوماسيا بارسال سفارة إلى ملكى اسبانيا وبابا روما ١٤٨٩ يهددهم باضطهاد مسيحييً الشرق والقبض على قسس كنيسة القيامة واغلاق الكنيسة ، إلا أنه لم يكن بمقدور قايتباى القيام بأكثر من المسعى الدبلوماسى اذ كان ارسال قوة حربية من مصر إلى الاندلس متعذرا لنفس الأسباب التى سبق وحالت دون ذلك من قبل . فضلا عن ظروف الحرب المملوكية العثمانية التى استمرت عدة سنوات ولم تنته إلا بعقد صلح ١٤٩٢م أى في نفس عام سقوط غرناطة [٩٧] والجدير بالذكر أن قايتباى لم ينفذ تهديداته بل ولم يأبه ملكى اسبانيا بهذه التهديدات واستمرا في معاركهما. ويرجع ذلك الموقف المملوكي ، وفق بعض المصادر [٩٨]، إلى تركيز قايتباى على عدم تسليم البابا السلطان جم إلى أخيه السلطان بايزيد الثاني وهو الاهتمام الذى استغله البابا للمساومة مع قايتباى حول مكاسب للكنيسة الكاثوليكية بفلسطين . هذا ويمكن أن نرجع هذا الموقف من قايتباى إلى ماذكرته مصادر أخرى[٩٩] عن محاولات ملكى اسبانيا استرضاء سلطان مصر ليزول التوتر بين مصر واسبانيا ، وكان ذلك الاسترضاء – كما جاء في بعض المصادر [١٠٠] –عن طريق

---

(٩٥) انظر هذا التقليد في :
د. عبد المنعم ماجد . نظم دولة سلاطين المماليك في مصر ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٥٥– ١٥٦ .

(٩٦) أحمد دراج :مرجع سابق ؛ص ص ١٠٢ – ١١٠ .

(٩٧) د. احمد مختار العبادى :مرجع سابق ، ص ص ٤٦٩ – ٤٧٠ ؛ احمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١١٠– ١١٢.

(٩٨) المرجع السابق ، ص ص ١١٢ –١١٧.

(٩٩) د. احمد مختار العبادى :مرجع سابق ، ص ٤٧ .

(١٠٠) محمد محيى الدين الأصفر :مقدمة كتاب تاريخ مسلمي الأندلس . تأليف انطونيو دومينقيز هورتز ، برنارد بنثيت . ترجمة عبد العال صالح طه :دار الاشراق ، قطر ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م ، ص ص ٦– ٨ .

قبول أسبانيا بعد موافقة البابا ١٤٨٨م على بيع القمح للسلطان قايتباى ليتمكن من مساعدة أهل الشام الذين حاقت بهم المجاعة فأصاب بذلك ملك اسبانيا مغنمين أولهما المال اللازم لاستمرار الحرب ضد غرناطة وثانيهما تدعيم موقف المماليك فى مواجهة العثمانيين الذين أصاب صعودهم مسيحيي أوروبا بالخسارة ٠

٢ – العثمانيون :ومحدودية المساعدة المباشرة لغرناطة :

استنجد عرب غرناطة بسلطان الأستانة وأشارت بعض المصادر إلى تجهيز العثمانيين لأسطول عام ١٤٨٦م اقتصر على تخريب سواحل اسبانيا (١٠١) ، وبالرغم من مخاوف قشتالة وأراجون من وجود غرناطة كرأس حربة يستطيع العثمانيون استخدامها للتوغل فى أوروبا كما حدث عند امتداد الفتح العربى إلى أوروبا عبر الشمال الأفريقى (١٠٢) ، الا أن السلطان العثمانى بايزيد الثانى لم يستطع أن ينجد دولة بنى الأحمر ولم تنجح القطع البحرية من منع سقوط غرناطة (١٠٣) ولقد اتهمت الدولة العثمانية بعدم مساندة الأندلس بصفة عامة وغرناطة بصفة خاصة .ومع ذلك يمكن أن نتلمس مجموعة من العوامل يمكن أن تساعد على تفسير هذا الموقف العثمانى :

فقد بدأت عملية السقوط المتوالى لامارات الاندلس بسقوط طليطلة ٤٨٧هـ قبل قرنين من بداية امارة عثمان ثم توالى السقوط التدريجى بحيث لم يبق الا امارة غرناطة قبل أن تكمل الامارة العثمانية الناشئة دعائم قوتها ، وطوال القرن ١٤م لم تكن غرناطة قد دخلت بعد المرحلة الحرجة وذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه العثمانيون يخوضون غمار عملية التحول نحو امبراطورية كبرى من خلال امتداد فتوحهم فى البلقان (١٠٤) .

وترجع عدم القدرة على مساعدة غرناطة تحديدا فى مرحلة سقوطها إلى عدة أسباب مرجعها أساسا إلى تعذر النجدة برا أو بحرا ٠ فلم يكن ممكنا للعثمانيين أن يرسلوا جيوشا برية عبر أوروبا والتى تتحفز دولها ضدهم بعد عملية اعادة فتح البلقان والتوسع فيه واسقاط القسطنطينية (١٠٥) . كذلك لم يكن من تقاليد العثمانيين الحرب على جبهتين فكيف كان يمكن أن يتجهوا للغرب وهم – ابان عهد محمد الفاتح وبايزيد الثانى – كانوا ينفذون مخطط احكام السيطرة على البلقان أولا ثم الأناضول فى وقت

---

(١٠١) ل٠ ا٠ سيديو :مرجع سابق ، ص ٣٧٦ ٠

(١٠٢) عادل سعيد البشتاوى :مرجع سابق ، ص ص ٩٧ – ٩٨ ٠

(١٠٣) شاكر الحنبلى :تلخيص التاريخ العثمانى ، مرجع سابق ، ص ٤٣ ٠

– J.Saunders : op . cit . P 99 ٠

(١٠٤) محمود ثابت الشاذلى :مرجع سابق ، ص ص ٥٠ – ٥١ ٠

(١٠٥) المرجع السابق ، ص ٥٢ ٠

كان قد بدأ فيه الصدام العثماني المملوكي ودخلت العلاقات المجرية والبندقية - العثمانية مرحلة حرجة كما سبق ورأينا ، بل وبدأ الوجود الصفوي في الظهور ، وهو الأمر الذي أخذ يجذب نظر العثمانيين بدرجة أكبر نحو الشرق والجنوب . وإلى جانب تعذر النجدة للاعتبارات السابقة كان انقاذ بقايا الاندلس يتطلب قوة بحرية ذات طبيعة خاصة لم تتوفر للدولة العثمانية إلا بعد نصف قرن من سقوط القسطنطينية حيث كان هذا السقوط - كما سبق ورأينا - نقطة التحول في بداية القوة البحرية العثمانية وخاصة بعد أن بدأ الصدام مع مصالح البندقية . فبالنظر إلى طبيعةالبحرية العثمانية عند منتصف القرن ١٥هـ [١٠٦] يتبين أنها لم تكن قادرة إلا على أداء وظائف محددة نابعة من ظروف المواجهة في البلقان ولم يكن استخدامها ممكنا في أماكن أخرى بعيدة ومن ثم كانت هذه القوة البحرية محدودة القيمة بالنسبة إلى قوة تطمح للقيام بدور في النطاق المتوسطي كله . ولذا فلقد أشار توينبي [١٠٧] إلى أن العثمانيين لو كانوا قد استطاعوا دعم قوتهم البحرية ومد نفوذهم إلى غرب المتوسط قبل ٣٠عام من تحققه ١٥٠٣م لكان بمقدورهم انقاذ غرناطة بل ووقف حركة الكشوف الأسبانية ولكن لم تظهر هذه القوة العثمانية المتفوقة في المنطقة إلا بعد أن كان الأسبان قد وضعوا أقدامهم بالفعل في عدة مواقع في شمال أفريقيا خلال العقد الأول من القرن ١٦هـ وبعد أن كانوا قد اسقطوا غرناطة ١٤٩٢م .

المطلب الثالث :ورثة القبيلة الذهبية بين الروس والعثمانيين :

من أهم العلامات المميزة لتطور العلاقات العثمانية - المسيحية خلال القرن ٩هـ - ١٥م هو بداية العلاقة مع مملكة الروس ١٤٩٢م ، وهي العلاقة التي أعلنت عن بداية موجة هامة من التفاعلات الإسلامية - المسيحية التي امتدت عدة قرون بعد ذلك وساهمت في تشكيل منطقة هامة من العالم الاسلامي في وسط آسيا وبلاد القوقاز وشرق أوروبا كما أثرت على التوازنات العثمانية - الأوروبية وعلى مصير الدولة العثمانية ذاتها في طورها الأخير - كما سنرى في فصول تالية - وتعد هذه البداية وهذا المجال عن العلاقات العثمانية - الروسية في نطاق تفاعلات مغول واتراك شرق أوروبا ووسط آسيا المسلمون مع روسيا من أكثر الفترات والمناطق اهمالا في دراسات التاريخ الاسلامي (على الأقل باللغة العربية)[١٠٨] ، ومع ذلك فانه يمكن أن نتابع التحليل من خلال النقاط التالية حول القرنين ١٤، ١٥م :

---

(١٠٦) - J.Saunders : op . cit . PP 55 - 89

(١٠٧) نقلا عن - Ibid. P 103

(١٠٨) ازدادت الأهمية المعاصرة لفهم هذه الجذور التاريخية على ضوء التطورات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي منذ أواخر الثمانينات والتي أدت إلى تصاعد دعوات الاستقلال في الجمهوريات الإسلامية . وهي التطورات التي تصاعدت مع زوال الاتحاد السوفيتي وبداية التحرك الفعلي لهذه الجمهوريات على الساحة الدولية مستحضرة إلى الاذهان كل موروثاتها التاريخية التي تدفع للتساؤل عن احتمالات تأثيرها على توجهاتها المستقبلية .

١ – أضحت المسيحية الديانة الرسمية للروس منذ أواخر القرن ١٠م بعد أن جهرالامير فلاديمير ٩٨٨م بالمسيحية وأصدر مرسوما يقضى بأن يذعن الروس كافة للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية[١٠٩] .

٢ – وظلت روسيا منذ وصول هجمة المغول الأولى اليها فى منصف القرن ١٣م تحت سيطرتهم أو بمعنى أصبح تحت سيطرة مغول الشمال (القبيلة الذهبية)التى كان خاناتها منذ بركة خان الأسبق بين المغول فى اعتناق الإسلام .ومنذ أن بدأ تفكك وضعف القبيلة الذهبية منذ منتصف القرن ٨هـ – ١٤م بدأ الصراع بينها وبين رعاياها من نصارى الروس بقيادة امارة موسكو التى بدأت تنمو فى هذه الفترة ولكن ظل لامارات المغول التفوق فى القوة على امارة موسكو المسيحية[١١٠] .

٣ – وبعد وفاة تيمور لنك وانتهاء حلم المغول فى امبراطورية كبرى واحدة، ومع اتمام تفكك القبيلة الذهبية شرقى أوروبا [١١١]ظهرت ثلاث دويلات وهى خانات القرم وقازان واستراخان، وقد لعبت امارة موسكو المسيحية دورا هاما فى لعبة التحالفات والتحالفات المضادة التى قامت بين هذه الامارات المسلمة والتى تنازعت النفوذ وتعددت بينها النزاعات منذ منتصف القرن ٩هـ – ١٥م ولكن لم تجرؤ روسيا على قطع دفع الجزية لهذه الامارات حتى بعد بداية أول موجات نهضتها الحديثة فى أواخر القرن ٩هـ – ١٥م أى منذ ١٤٨٠م مع ايفان الثالث، ومنذ هذه الفترة أخذت هذه الامارة تقوى وتضرب خانات المغول الثلاثة بعضهم ببعض حيث كان بعضهم يلجأ للروس فى مواجهة الآخر .[١١٢]

٤ – وبالنظر إلى وضعية الدولة العثمانية فى هذا السياق نجد أن دورها قد بدأ يتبلور فى هذه المرحلة منذ فتح القسطنطينية بصفة خاصة لاعتبارين أساسيين :

فمن ناحية أثر فتح القسطنطينية على الروس اذ أحدث سقوط معقل الأرثوذكسية المسيحية فى شرق أوروبا أصداء بعيدة المدى لدى امارة موسكو ووقع فى روع كثير من الروس أنهم أصحاب التراث البيزنطى الثقافى ولذا يجب عليهم الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الإسلام، ومن ثم أخذت أمارة موسكو

---

(١٠٩) توماس أرنولد :مرجع سابق ، ص ص ٢٧٤– ٢٧٦ .

(١١٠) - G.Hodgson : op . cit . P 428 .

(١١١) سنقتصر فى هذا الموضع على التفاعلات حول هذا المحور فى حين تمتد التحليلات حول التفاعلات المناظرة وفى القرون التالية إلى وسط آسيا وبلاد القوقاز أيضا التى انتقل اليها بعد ذلك التوسع الروسى ومن ثم ظهرت التفاعلات العثمانية الروسية وخاصة بعد بطرس الأكبر وفى ظل تطور وضع الدولة الصفوية

(١١٢) . - Ibid : P 566 .

– أنظر تفاصيل هذه التحالفات حتى أوائل القرن ١٦ م فى :

- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ١٥٤ – ١٧١ .

منذ أن خلصها ايفان الثالث ١٤٨٠م من حكم المغول في التوسع منذ نهاية القرن١٥م لتصطدم بمسلمي المغول في شرقها وغربها ،الفولجا ، الأورال، غرب سيبيريا [(١١٣)] .

ومن ناحية أخرى اتجه محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية شرقا وشمالا نحو البحر الأسود حيث اصطدم مع خانات القرم ١٤٧٤م ، فقد أخذ هؤلاء الخانات جانب جنوة صاحبة المستعمرات التجارية على ساحل شبه جزيرة القرم في الوقت الذى تصاعد فية نزاع العثمانيين معهم ومع البندقية [(١١٤)]، وبذا وبعد انتصار محمد الفاتح على جنوة وتدمير تجارتهم في البحر الأسود ، وعلى خانات القرم ، أضحت هذه المنطقة تحت دائرة النفوذ العثمانى وكان لهذا التطور مغزى كبير لأنه كان بداية غلق الطرق التجارية المتبقية بين أوروبا الغربية وبين الهند والشرق الأقصى الذى لم يكن تحت سيطرة العثمانيين أو المماليك ولقد أعطى هذا الحدث دافعا أكبر لأوروبا للبحث عن طريق تجارة جديدة [(١١٥)] . وبقدر ماكان لهذا التحرك العثمانى المتفاعل مع ورثة القبيلة الذهبية من تأثير على الممالك البحرية الايطالية بقدر ما أدى إلى تضييق المسافة بين مناطق الاحتكاك مع الروس وهى المسافة التى ضاقت أكبر بعد ذلك مع تطور التوسع الروسى نحو الجنوب والشرق بعد ذلك كما سنرى .

٥ - بعبارة أخرى فانه بقدر مالم يعلن الصدام الروسى - المغولى خلال القرن ٩هـ - ١٥م عن تبدل في الأدوار المهيمنة على المنطقة بعد ، فان هذه المنطقة لم تثر صداما مباشرا على النفوذ بين الروس والعثمانيين مثلما حدث فيها ذاتها وفي غيرها من مناطق مغول واتراك آسيا بعد ذلك ، وكانت العلاقة بين السلطنة العثمانية والروس علاقة سلمية وودية . فقد وصل أول سفير روسى ومعه جملة هدايا للسلطان العثمانى ١٤٩٢م ثم حصلت روسيا على امتيازات لتجارها [(١١٦)] . وبقدر ماكان هذا يعنى اعترافا روسيا بوزن وتأثير السلطان العثمانى إلا انه

---

(١١٣) د. على حون :العثمانيون والروس ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ص ٣٠ - ٣٨ .
- محمود ثابت الشاذلى :مرجع سابق ، ص ٤٦ . (نقلا عن فاريليف فى كتابه بيزنطة والاسلام) .

(١١٤) فى المقابل كان للبندقية نفوذها ومصالحها لدى امارات آسيا الصغرى . ولذا حاولت ان تواجه عواقب فتح القسطنطينية على هذه المصالح باثارة بعض الامارات (الشاه البيضاء) ضد العثمانيين وهو الأمر الذى فشل بدوره وبذا اتجهت البندقية للصلح ١٤٩٧م .

(١١٥) محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ١٤٥ - ١٥٥ .
H.J. Kissling, F.R.G. Bagley : the Ottoman Empire to 1774 in : H.J. Kissling et. al. - (eds) : The Muslim World (III) : The Last Great Muslim Empires . Brill, Leiden E,J. 1969 P . 25 .

(١١٦) محمد فريد : مرجع سابق ، ص ١٨٣ .

لايمكن رصد نمطا للتدخل العثماني في تفاعلات روسية – مغولية في هذه المرحلة [117] وذلك على عكس المراحل التالية التي سيتبلور خلالها الصدام العثماني – الروسي (مرحلة ماقبل بطرس الأكبر خلال القرنين ١٦، ١٧ والمرحلة التي ستليها ١٨، ١٩م) وهو الصدام الذي يختلف مغزاه عن مغزى الصدام العثماني – المسيحي في أوروبا حيث كان الأخير على أراضي مسيحية في حين كان الأول حول مناطق تقطنها شعوب مسلمة ومن ثم يصبح السؤال :هل كان بمقدور العثمانيين أن يمنعوا عملية الاستقطاع المسيحي من الأراضي المسلمة في آسيا مثلما نجحوا في فتح أراضي مسيحية في أوروبا ؟

المطلب الرابع : ممالك الزيلع الإسلامية بين مماليك مصر وبين مملكة الحبشة :

سبق أن تعرضنا لأبعاد العلاقات المباشرة بين المماليك ومملكة الحبشة خلال القرنين (٨ . ٩ هـ /١٤ . ١٥م) على نحو أبرز هذه العلاقات في سياق الجهود المملوكية للتصدي للقوى المسيحية أو المبادرات الأوروبية لضرب قوة المماليك وحصارها بمختلف الطرق . وتجدر الاشارة إلى أنه اذا كانت العلاقة بين مسلمي الحبشة وبين ملوكها المسيحيين تبدو وكأنها تقع في صميم العلاقات المملوكية – الحبشية إلا أن تأثير الدور المملوكي عليها كان هامشيا وذلك خلال عملية جهاد مسلمي الحبشة الذي لم ينقطع طوال ثلاثة قرون . [118]

وبالنظر إلى مسار العلاقات المملوكية مع الحبشة خلال النصف الأول من القرن ٩هـ – ١٥م أي في بداية دولة المماليك الشراكسة [119]وخلال النصف الثاني من هذا القرن[120] يمكن أن نستخلص الأنماط التالية المتكررة طوال القرن ١٥م : [121]

أولا :الربط من جانب الأقوياء من ملوك الحبشة بين رفع الاضطهاد عن أقباط مصر وبين التهديد باتخاذ اجراءات مماثلة ضد المسلمين في الحبشة ، وتحويل مجرى

---

(١١٧) تقتصر بعض المصادر على الاشارة إلى اسداء العثمانيين النصح باستمرار بضرورة التفاهم والوحدة (بين خانات مغول الشمال) لامكانية الوقوف في وجه العدو المشترك وهو النصاري. انظر :
- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(١١٨) حول تفاصيل كفاح مسلمي الزيلع ضد مملكة الحبشة المسيحية وأثره على العلاقة بينها وبين مصر المملوكية خلال القرن ١٤ م ، ١٥ م أنظر :

د. رجب محمد عبد الحليم :العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الصغرى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

(١١٩) د. حكيم امين عبد السيد :مرجع سابق ، ص ص ١٦٠– ١٦٢ .

(١٢٠) أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ٤٩ – ٥٤ ، ٦٤ – ٧٠ ، ٨٦ – ٩٠ .

(١٢١) انظر ايضا :
- د. وفاء محمد علي :مرجع سابق ، ص ص ١٢٧ – ١٣٤.
- د. ابراهيم طرخان :الإسلام والممالك الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ص٥٢ –٦٨

النيل إلى الصحراء ، كذلك الاضرار بطرق القوافل بين القاهرة والحبشة والقيام ببعض الأعمال العسكرية ضد جنوب مصر كسبيل الضغط على مصر بشأن وضع بطارقة الاسكندرية ونصارى مصر . والجدير بالذكر أن هذه الأمور كانت تتم فى اطار يتسم بحرص الطرفين على علاقات الود والاعتدال .

ثانيا :ومع استمرار حركة جهاد مسلمى الحبشة ومع توالى الدول التى تقود حركة الجهاد وظهور أخرى تعيد الكرة (مملكة عدل بعد نهاية سلطنة أوفات فى بداية القرن ١٥م) ، وبالرغم من الهزائم المتكررة لمسلمى الحبشة إلا أنهم لم يتجهوا مباشرة وبصورة رسمية لطلب المساعدة والعون من القوة الإسلامية المجاورة لهم وهى مصر المملوكية ، وكان عدم الاتصال من أهم الاخطاء البارزة لملوك الزيلع الإسلامية فى جهادهم ضد حكام الحبشة . وحين كانت مصر تضغط على الأحباش مستغلة فى ذلك العلاقة بين كنبيسة الحبشة والكنيسة المصرية للامتناع عن اضهاد مسلمى الزيلع لم يكن هذا الضغط نتيجة مسعى ملوك الزيلع بقدر ماكان رد فعل لما يصل إلى مسامع سلاطين مصر عن اضطهاد ملوك الاحباش لمسلمى الزيلع وسلاطينهم ، كما أن هذا الضغط لم يصل فى تاثيره إلى ماكان يمكن أن تحدثه المساندة المباشرة حيث استمر تدهور وضع مسلمى الزيلع نتيجة تضافر عدة عوامل مكنت للحبشة المسيحية من التصدى لجهادهم .

ثالثا : اتجاه ملوك الحبشة للتعاون مع القوى الصليبية وخاصة الأسبان والبرتغاليين، فعلى سبيل المثال بادر ملك الحبشة ١٤٢٧م بعرض فكرة التحالف مع ملك أراجون لتكوين حملة صليبية مزدوجة وذلك فى مواجهة برسباى الذى يشن حملات على قبرص ورودس ، وكان ملوك الفرنج يتربصون الأوقات التى تتوتر فيها العلاقات بين مصر والحبشة للعمل على تحقيق مشروعاتهم . فعلى سبيل المثال اقترح البابا توحيد الكنيسة المسيحية ١٤٣٩م فى قمة التوتر الذى أصاب هذه العلاقات بعد وفاة برسباى .وبالرغم من حرص مصر على منع أى اتصال بين الافرنج والأحباش منعا باتا يستوى فى ذلك رجال الدين أو المبعوثون السياسيون إلا أن الاتصالات لم تنقطع بين البابا والحبشة حتى فشل مشروع توحيد الكنيستين وتوقفت جهود البابوية ١٤٤٢م . وقد تكررت محاولات التحالف بين ملك الحبشة وبين ملك أراجون خلال العقد السادس من القرن ١٥م أى فى الفترة التى تصاعدت فيها أعمال القرصنة من الشمال التى تساندها أراجون ضد مصر لكنها لم تؤد إلى تحرك حقيقى . وحتى نهاية القرن ١٥م (أى خلال مايقرب من النصف الأخير من هذا القرن) هدأت أسباب القطيعة بين الدولتين، خاصة وأن جهود الحبشة لتنفيذ فكرة القيام بعمل عسكرى مشترك مع ملوك الغرب ضد الدولة المملوكية قد توقفت وتراخت إلى أن بدأت مرحلة جديدة من التوتر مع بداية حركة الكشوف .

الفصل الرابع

نحو التحول في طبيعة الهجمة الأوروبية وفي توازن القوى الإسلامية : من سقوط غرناطة وحتى سقوط المماليك وبداية الهيمنة الأوروبية
(٨٩٧هـ - ٩٢٣هـ / ١٤٩٢م - ١٥١٧م)

الفصل الرابع
نحو التحول في طبيعة الهجمة الأوروبية وفي توازن القوى الإسلامية : من سقوط غرناطة وحتى سقوط المماليك وبداية الهيمنة الأوروبية
(٨٩٧هـ - ٩٢٣هـ / ١٤٩٢م - ١٥١٧م)

مقدمة

يعد ربع القرن الممتد من سقوط غرناطة إلى سقوط المماليك مرحلة انتقالية هامة فى التوازن العام والشامل بين العالم الاسلامى والمسيحى من ناحية ، وفى التوازن بين مراكز القوى الإسلامية ذاتها من ناحية أخرى . وتلى هذه المرحلة مرحلة جديدة من حيث السمات الهيكلية لنظام العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ومن حيث العوامل الدولية المؤثرة عليه وقضايا وموضوعات هذه العلاقات طوال القرون الثلاثة التالية . ويتداخل على صعيد هذه المرحلة الانتقالية تطورات هامة لأحداث وتفاعلات سبق أن أعلن عن بدايتها فى المراحل السابقة ، ولقد اكتسبت هذه التطورات عمق تأثيرها منذ نهاية القرن ١٠هـ - ١٦م نتيجة مجموعة من العوامل الدولية والاقليمية التى أضفت على هذه المرحلة سمتها الانتقالية بين عصرين وجعلت منها منطلقا نحو عصر جديد[1]كان من أهم سماته سقوط المماليك وبداية الهيمنه العثمانية العالمية بعد ضم المنطقة العربية.

ومن أهم هذه العوامل الدولية تطور الكشوف الجغرافية وتطور تكنولوجيا التسليح لدى الطرف الأوروبى وذلك فى فترة مرت فيها التوازنات الأوروبية وأوضاع الأطراف الأوروبية بتطورات هامة ساهمت فى اسقاط المماليك من ناحية وواجهت الطرف العثمانى بتحديات جديدة من ناحية أخرى . وكان من أهم العوامل الخاصة بالعالم الاسلامى :ذلك الضعف المتنامى للمماليك ، وظهور الدولة الصفوية باتساعها منذ ١٥٠٣م واتجاه الحركة العثمانية نحو الشرق والجنوب حيث كان الاصطدام بالمماليك والصفويين والبرتغاليين ثم الأسبان بعد ذلك .

ولقد انعكس تأثير هذه الفواعل فى شكل مجموعة من التفاعلات المتداخلة فيما بين مراكزالقوة الإسلامية الثلاثة وبينها وبين الأطراف الأوروبية وذلك على ساحة عدة أنساق فرعية دولية هى قلب العالم الاسلامى والأندلس وشمال أفريقيا ،البحار

---

١) نظرا للطبيعة الخاصة لهذه المرحلة فهي تتضمن أحداثاً وتطورات ذات امتدادات في المراحل التالية ، فقد أفرد لها فصلا مستقلا لبيان وضعيتها الخاصة كنقطة نهاية وفي نفس الوقت نقطة بداية جديدة .

الجنوبية وشرق أفريقيا وسواحل الهند ، ومن هنا يبرز ومنذ هذه اللحظة وعلى عكس القرون الثلاثة الماضية دخول بعض الأنساق الفرعية فى صميم التفاعلات الدولية بين المسلمين والمسيحيين ، ومن أهم هذه الأنساق الهند وفارس (بعد ظهور الدولة المغولية والدولة الصفوية) ودول شمال أفريقيا بعد انتقال حدود المواجهة بين العالمين الاسلامى والمسيحى اليها منذ سقوط الاندلس ، فى حين تغيرت طبيعة نسق فرعى آخر وهو وسط آسيا حيث لم يعد فاعلا بقدر ماأضحى موضوعا لتفاعلات بعد أن ظل لقرون طويلة مصدرا لحروب وتحديات عديدة لأطراف مسيحية واسلامية على حد سواء .

وعلى هذا النحو سنتناول بالتحليل مجموعتين أساسيتين من التفاعلات

الأولى : تدور حول أبعاد التطور فى طبيعة الهجمة الأوروبية الجديدة بقيادة أسبانيا والبرتغال التى واجهت ردود فعل متنوعة من جانب الطرفين العثمانى والملوكى كما كانت عاملا مؤثرا فى طبيعة التفاعلات بين هذين الطرفين المسلمين .

الثانية: تدور حول التطور فى طبيعة القوى الإسلامية (المملوكية - العثمانية - الصفوية) وهى العلاقات التى لم تنفصل فى دوافعها وآليات ادارتها ونتائجها عن المجموعة الأولى من التفاعلات .

المبحث الأول : التغير فى طبيعة الهجمة الأوروبية الجديدة :الدور الأسبانى والبرتغالى :

بعد سقوط غرناطة وخلال الأعوام الأخيرة من القرن ٩هـ ، ١٥م شهد الدوران الأسبانى والبرتغالى فى الأندلس وتجاه شمال أفريقيا وغربها اللمسات الأخيرة التى انتقلت بهذين الدورين إلى مرحلة جديدة فى مهاجمة العالم الاسلامى .

فبعد اتمام مرحلة الاسترجاع فى الاندلس ، وعلى ضوء التلاحم الشديد والمستمر بين أوضاع المسلمين فى الاندلس وأوضاع الدول الإسلامية فى شمال أفريقيا ، دخل الدور الأسبانى مرحلة احكام الهجوم على هذه الدول وبعد المحاولات المتكررة منذ بداية القرن ١٠هـ ، ١٦م لسيطرة البرتغال على شواطىء غرب أفريقيا تطورت هذه المحاولات لتصل إلى ماسمى بالكشوف الجغرافية . بعبارة أخرى كان الدوران مترابطين متكاملين ، يجعلان منطلقهما الأندلس المسيحية وهدفهما الشرق الاسلامى ومعبرهما شمال وغرب وجنوب أفريقيا .

ولقد أثر الدوران المترابطان المتكاملان على شبكة التفاعلات الإسلامية الدولية فى هذه المرحلة وخلال القرن ١٦م بأكمله وكان من أهم نتائجهما :الاسراع بالسقوط

المملوكي وتصفية الوجود الاسلامي في الأندلس وتغيير قواعد لعبة التوازنات الدولية بين العثمانيين والمماليك والصفويين وبين العثمانيين والقوى البحرية الأوروبية الجديدة على نحو فتح صفحة جديدة في دور الجهاد العثماني ، وهو الجهاد البحري في البحار الجنوبية أولا ثم في المتوسط وخاصة بعد ضم مصر .

وقبل الانتقال إلى تفصيل أبعاد هذين الدورين فانه تجدر الاشارة إلى مايلي :

أنه اذا كانت الهجمة المسيحية الجديدة على العالم الاسلامي قد انطلقت من أقصى الغرب في الأندلس ملتفة حوله من الجنوب في نهاية القرن ١٥م فان الاستعداد كان ينضج في نفس هذه الآونة لعملية هجوم أخرى أنطلاقا من الشرق بواسطة روسيا القيصرية ، وهي العملية التي بدأت كما رأينا منذ منتصف القرن ١٥م بعد تفكك الامبراطورية التيمورية ، والتي ستتبلور أبعادها المؤثرة في التوازنات الإسلامية المسيحية مع نهاية القرن ١٠هـ - ١٦م ، كما سنرى فيما بعد عند تحليلنا للصدام الروسي العثماني وانعكاسه على التفاعلات الأوربية - العثمانية ، والعثمانية مع امارات وسط آسيا المسلمة . بعبارة أخرى وكما يقول البعض [٢] فانه بعد نجاح حركة الاسترداد في الأندلس مع نهاية القرن ٩هـ ، ١٥م بدأت حرب صليبية جديدة تعرض لها المسلمون في وسط آسيا كما تعرضوا لها من قبل في بلاد الاندلس وفي بلاد الزيلع والصومال . أي أن الإسلام تعرض لحروب صليبية في حلقات حيث سلمت كل حلقة إلى الحلقة الأخرى حتى التقت بها واحاطت بالعالم الاسلامي من الشمال الشرقي ومن الجنوب ومن الغرب .

المطلب الأول : الهجوم الأسباني على شمال أفريقيا وبداية تصفية الوجود الاسلامي في الأندلس :

اذا كانت عملية استرداد الاندلس والتي بدأت منذ أوائل القرن ٧هـ ، ١٣م قد واجهت مساندة مغربية (من دولة الموحدين) للامارات الأندلسية ، واذا كان قد حدث هناك نوع من توازن القوى بين الممالك المسيحية المهاجمة وهذه الأمارات إلا أن حرب الاسترداد في طورها الأخير (٨-٩هـ /١٥-١٤م) قد اقترنت بتراكم آثار ضعف وانهيار الدولة المغربية القوية كما اقترنت باختلال التوازن بين أسبانيا وغرناطة حيث تدعمت الوحدة الأسبانية وزادت توجهاتها القومية والدينية [٣] كما سبق ورأينا . وبعد سقوط غرناطة دخل عصر الإسلام في الأندلس مايسمى مرحلة الاضطهاد والتنصير والتي انتهت بالرحيل النهائي للمسلمين من الأندلس ١٠١٨هـ ولقد اقترنت هذه المرحلة

---

٢) د. رجب محمد عبد الحليم :مرجع سابق ، ص ص ١٣١ - ٢٣١ .

٣) محمد عبد الله عنان :نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . مرجع سابق ، ص ص ٥٥ - ٨٥

بالضعف الشامل والتفكك الذى أصاب دول المغرب الإسلامية وانتهى هذا الوضع الذى ظهر فى بداية القرن ١٦م بالقضاء خلال النصف الثانى من القرن على هذه الدول (الحفصية – بنو عبد الوديد – بنو مرين – بنو وطاس) والتى سبق ومارست دورها فى العلاقات الأندلسية المسيحية لما يزيد على الثلاثة قرون . وقد كان لهذا التزامن بين انحلال المغرب وتفككه منذ نهاية القرن ١٥م وبين سقوط غرناطة آخر معاقل الوجود الاسلامى فى الأندلس تأثيره على مصير هذه المنطقة من العالم الاسلامى شمال وجنوب غربى المتوسط حيث طغى عليها الدور الأسبانى فى البداية ثم الصدام العثمانى الأسبانى خلال القرن ١٦م [٤] .

أولا : أهداف وأدوات الدور الأسبانى :

١ – مهدت الوحدة الأسبانية من ناحية واستمرار عملية التفكك والضعف فى المغرب من ناحية أخرى لعملية الهجوم الأسبانى على شمال افريقيا ، وكان هذا الهجوم يحقق مصالح مختلفة بقدر مايحركه دوافع عديدة .

فمن ناحية : كانت هناك الروح الصليبية بين أوروبا المسيحية وبين شمال أفريقيا المسلمة ، وهو الصراع الذى زاد من حدته فى هذه المرحلة هجرة مسلمى الأندلس إلى موانىء دول المغرب بعد أن أخذت أسبانيا تخالف الشروط التى وقعتها عند تسليم غرناطة[٥] .

ومن ناحية أخرى كانت هناك الرغبة فى الانتقام من موانىء المغرب العربى التى انطلقت منها هجمات المهاجرين الأندلسيين ضد السواحل والسفن الأسبانية انتقاما لما حدث لهم أو للمساهمة فى انقاذ بقية اخوانهم من الموريسكيين . ولقد اصطبغت هذه الهجمات بصبغة الجهاد فى حين أسماها الأوروبيون باعمال القرصنة ، وكان هذا الهجوم الأسبانى لايهدف إلى الانتقام فقط بقدر ماكان يهدف لتأمين سلامة شبه جزيرة أيبريا ، والتى ماكانت لتتحقق فى هذه المرحلة بدون السيطرة على السواحل المقابلة لها [٦] .

ومن ناحية ثالثة : اخضاع سواحل جنوب غرب حوض المتوسط بهدف مواجهة الأساطيل العثمانية التى أضحى لها السيادة فى شرقى الحوض منذ بداية القرن ١٠هـ – ١٦م [٧] ، وهى السيادة التى تحققت تدريجيا نتيجة استمرار جهود

---

(٤) د. ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية . (١٥١٠ – ١٩٤٧) ، مرجع سابق ، ص ص١٩ – ٢٠ .

– د.زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصر الحديث ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٩

(٥) د. صلاح العقاد : المغرب فى بداية العصور الحديثة ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٣ .

(٦) محمد العروسى المطوى : مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

(٧) المرجع السابق . ص ٢٦١ .

بايزيد الثانى فى دعم القوة البحرية العثمانية والتى أدرك مدى أهميتها لتطوير الجهاد العثمانى نظرا للتطور فى أدوات وقدرات الطرف الأوروبى . فلقد اتضح له خلال الربع الأخير من القرن ٩هـ - ١٥م ونتيجة الجهود البحرية المعادية من جانب البندقية أن الحدود الشرقية والجنوبية لامبراطوريته غير آمنه ، ولذا وفى حين كانت تنشط الجهود البحرية الأسبانية فى غرب الحوض والبرتغالية فى غرب وجنوب أفريقيا عند نهاية القرن ١٥م كانت القوة البحرية العثمانية قد أضحت قادرة على التصدى بل ومنافسة القوى البحرية المسيحية فى شرق المتوسط . وكان انتصار ليبانتو ١٥٠٢م على البنادقة بداية اعلان السيادة البحرية العثمانية على شرق حوض المتوسط وذلك فى الوقت الذى وصل فيه البرتغاليون إلى شواطىء الهند [(٨)] . ولقد حقق الأسبان نجاحا كبيرا فى الفترة من ١٤٩٤م وحتى ١٥١١م حيث أضحت أسبانيا تسيطر على جميع النقاط الساحلية فى وسط شمال افريقيا (المغرب الأوسط) وكان بمقدورها الانطلاق منها لغزو الأقاليم الداخلية إلا أنها لم تفعل ذلك واكتفت بالمناطق الساحلية حيث اتجهت انظار فرديناند ملك أراجون ناحية الميدان الأوروبى أكثر منها ناحية الميدان الأفريقى وبعد أن كان الأخير يحتل المرتبة الأولى فيما بين ١٥٠٨١م - ١٥١١م أضحى الميدان الاوروبى يأتى على قمة الأولويات منذ ١٥١١م نظرا لبداية التنافس مع فرنسا [(٩)] وخاصة مع تولى شارل الخامس ١٥١٦م ، كذلك نظرا لاستمرار التوسع الاسبانى فى العالم الجديد وبالرغم من هذا التحول عن الجناح الشرقى للمتوسط فان امبراطورية الهابسبورج التى شيدها شارل الخامس أضحت أكبر القوى المعادية للعالم الاسلامى ودخلت فى مواجهة حاسمة مع الامبراطورية العثمانية فى حوض المتوسط بعد ان ضم العثمانيون مصر والشام حيث أن هذا الضم قد تم قبل أن يتمكن شارل الخامس من تجميع قواته التى أعدها لبدء جولة جديدة من الهجوم على شمال افريقيا مقتربا من حدود ليبيا ومستهدفا مصر[(١٠)].

٢ - وعلى صعيد آخر لم يكن استيلاء أسبانيا على غرناطة نهاية مطاف الصدام المسيحى الاسلامى على أرض الأندلس بل كان بداية لعهد انتقام وابتلاء للموريسكيين (مسلمى الأندلس) ، فبعد تأرجح الاسبان فى السنوات الأولى بين حسن معاملتهم وبين العنف والاضطهاد للموريسكيين وصلت الملكة ايزابيلا إلى

(٩) د. زاهر رياض : مرجع سابق ، ص ص ٦٠ - ٦٤ .

(١٠) _Andrew Hess : " The Ottoman Conquest of Egypt and the Beginning of the Sixteenth Century World War " . International Journal of Middle East Studies . N . 4 . 1973 ; PP . 60 - 61 .

اصدار امرها بأكراه المسلمين على أحد أمرين التنصر أو الجلاء [11] . بعبارة أخرى فانه بعد سقوط غرناطة بسبع سنوات أدى التعصب الدينى وضغط الكنيسة وتحريضها إلى نقض اسبانيا لشروط الأمان التى منحتها المسلمين مقابل تسليم غرناطة . وبعد أن بدأت الدعوة إلى التنصير عن طريق الترغيب والاختيار صدر٩٠٥هـ - ١٤٩٩م قانون بتنصير المسلمين جبرا وتحريم اقامة شعائرهم واغلاق مساجدهم اذ أضحى وجودهم يعتبر خطرا على الدولة الكاثوليكية [12] . فبقدر ماجتهدت الكنيسة الكاثوليكية فى القرن ٧هـ، ١٣م للتوفيق بين متطلبات انجاح الحملة الصليبية فى المشرق والحروب الصليبية فى المغرب وبقدر ماحاولت أيضا فى القرن ١٠هـ ، ١٦م التوفيق بين احتياجات اسبانيا لنقل الحرب إلى معاقل المسلمين فى شمال أفريقيا وبين احتياجات التصدى لتعاظم القوة العثمانية وتهديدها لأوروبا ، وبقدر مالعبت دورا مهما فى انهاء الوجود السياسى الاسلامى فى الأندلس ، بقدر مالعبت دورا أخر لايقل أهمية فى فرض النصرانية على الموريسكيين الذين اختاروا البقاء فى بلادهم بعد سقوط غرناطة[13] .

ولقد تمت عملية الفرض هذه فى نطاق صراع عنيف بين الموريسكيين وبين المسيحيين فى أسبانيا، ولقد مر هذا الصراع الذى امتد طوال القرن ١٦م بتطورات هامة ارتبطت باحداث أساسية وهذه الأحداث هى :ارتداد مسلمى قشتالة (١٥٠٠- ١٥٠٢م) وثورة مسلمى غرناطة (١٥٦٨ - ١٥٧٠م) والطرد العام (١٦٠٩ - ١٦١٤م)

ولقد ترتب على كل من هذه الأحداث تغيرا جذريا فى العلاقات بين الطائفتين المتصارعتين ويمثل الحدث الأول النهاية الرسمية لسياسة التسامح[14]، وكان لهذه الاحداث انعكاسات هامة بالنسبة للعلاقات الاسبانية المغربية وبالنسبة لأبعاد السياسات المملوكية العثمانية تجاه الموريسكيين فما هى اذن طبيعة هذه الانعكاسات ؟

ثانيا :سياسات دول شمال أفريقيا والقوتين المملوكية والعثمانية :

لم تتمكن اطلال الدول القائمة فى المغرب العربى الأوسط من مواجهة الهجمة الاسبانية أو تقديم مساندة فعالة لمسلمى الندلس . ولقد تم اتخاذ موقف الدفاع الذى

---

١١) شكيب ارسلان :مرجع سابق ، ص ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

١٢) محمد العروسى المطوى :مرجع سابق ، ص ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

- عادل سعيد البشتاوى :مرجع سابق ، ص ص ١٠ - ٢١ .

١٣) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

١٤) انطونيو دومبتقير هورتز ، برنارد بنثنت :تاريخ مسلمي الأندلس :الموريسكيون ، حياة ومأساة أقلية . ترجمة :عبد العال صالح طه ، دار الاشراق ، قطر ، ط١ ، ١٤٠٨- ١٩٨٨ ، ص ص١٢ - ٢٦ .

فشل فى حماية الموانى نتيجة لعدم الاستقرار السياسى الداخلى لكثرة الضرائب المفروضة على الأهالى بحجة مواجهة الغزو الخارجى ، ولقد توصل الزيانيون فى الجزائر إلى عقد صلح مع أسبانيا ١٥١٢م اعترفوا فيه باستيلائها على عدة موانىء فى غرب الجزائر (١٥) .

هذا ولم تتوقف التجارة بين دول المغرب ودول أوروبا حيث ساعد المسلمون الذين خرجوا من الأندلس على انتعاشها ، ولم تمنع الروح الصليبية لدى الأسبان من اهتمام تجارها بعقد معاهدة صداقة مع مملكة فاس بينما كان تجار البندقية شديدى الاهتمام بالتجارة مع تونس .(١٦)

ولكن من ناحية اخرى حاول سلاطين المغرب العربى وأمراؤه الاستنجاد بالمماليك فكتبوا إلى السلطان الغورى يلتمسون محالفته ضد الخطر الأسبانى وليقوم من جانبه بطرد التجار الأفرنج المقيمين فى مصر وغلق كنيسة القيامة فى وجه حجاجهم (وهى الأساليب التى كان المماليك قد درجوا على استعمالها للضغط على الممالك الافرنجية) ، ولكن سارع الملك فرناندو بالعمل على تحسين العلاقة بين البلدين ونجحت سفارته إلى مصر ١٥٠١م فى ذلك (١٧) ، ولم يكن هذا الموقف المملوكى إلا حلقة أخرى من حلقات نفس الاستجابة السلبية المملوكية للاستنجاد الأندلسى قبل وبعد سقوط غرناطة . واذا كانت عوامل عدة تفسر تلك السلبية فى المراحل السابقة - كما رأينا - فانها وصلت إلى أقصى درجاتها فى هذه المرحلة حيث تصاعدت حدة الضغوط التى تدفع بمصر المملوكية للتركيز على الشرق والجنوب وذلك مع تزايد التهديد العثمانى والصفوى من ناحية وظهور الخطر البرتغالى الحبشى من ناحية أخرى.

كذلك لم يتعد رد الفعل العثمانى المساندة غير المباشرة والتى أخذت شكل أعمال الجهاد البحرى العسكرى ضد الأسبان فى السواحل الجزائرية . وكان يقود هذه الأعمال البحار بابا عروج وأخوه خير الدين بارباروسا اللذان تمكنا من تكوين امارة مستقلة اتخذاها قاعدة لنشاطهما البحرى منذ ١٥٠٤م وحتى تمكنا من بسط نفوذهما على أقاليم المغرب الأوسط بعد أن تداعت السلطات القديمة لبنى زيان عليها أمامهما . ولقد اتجه هذان البحاران لتعبئة مساندة السلطنة العثمانية حتى يدعما ويضفيا الشرعية على وجودهما فى المناطق التى استرجعاها من الأسبان . وكانت التوجهات الخارجية للدولة العثمانية فى هذه المرحلة والتى تقودها نحو قلب العالم الاسلامى وشمال أفريقيا وراء استجابتها لمساندة جهود عروج البحرية حتى تم اغتياله خلال

---

١٥) د. فاروق عثمان اباظة :مرجع سابق ، ص ص ٩٥ - ٩٦ .

١٦) د. زاهر رياض :مرجع سابق ، ص ٥٦ .

١٧) د. أحمد الطوخي :المماليك والأندلس ، ص ٣٣ (نقلا عن :محمد محيي الدين الأصفر :مقدمة كتاب تاريخ مسلمي الاندلس الموريسكيون. مرجع سابق ، ص ٨) .

أحداث حملة بحرية أسبانية كبيرة استنجد بها آخر حكام بنى زيان لاسترداد عرشه الضائع نتيجه امتداد نفوذ بابا عروج [18] . بعبارة أخرى كانت مساندة العثمانيين لعمليات الجهاد البحرى ضد أسبانيا تمثل الخيط الأول فى شبكة علاقات العثمانيين بالمغرب العربى ، وقد تعددت بعد ذلك هذه الخيوط وتدعمت بعد أن ضمت الدولة العثمانية مصر والشام ١٥١٧م ومن ثم أضحت القوة الإسلامية الكبرى فى المنطقة . ولكن هل كانت بداية هذا الامتداد للنفوذ والهيمنة العثمانية فى حوض المتوسط (والتى استمرت طوال القرن ١٦م كما سنرى) بداية مخططة ؟ وماهى أهدافها ؟ وهل كانت – كما يقول البعض [19] –تهدف إلى انقاذ مسلمى الاندلس من اضطهاد الكاثوليك المتعصبين وحماية سواحل المغرب العربى من الغزو الأسبانى ؟ أم – كما يقول البعض الآخر [20] لم تكن فكرة نصرة المسلمين فى الأندلس على بال العثمانيين الذين لم يفكروا إلا فى التوسع على حساب الدول الإسلامية الأخرى فى آسيا وأفريقيا؟ . ولن تتضح الاجابة إلا على ضوء متابعة تطور الدور العثمانى فى الحوض الغربى للمتوسط وتفاعلاته مع العلاقات العثمانية –الأوروبية بعد ١٥١٧م – كما سنرى فى الفصل التالى .

المطلب الثانى : الالتفاف البرتغالى من الجنوب واتمام الحصار حول مصر المملوكية :الكشوف البرتغالية والأثر على التوازن العالمى والاسلامى :

١ - فى حين نجحت البندقية – عند منتصف القرن ١٥م – فى التغلب على منافسيها من الممالك الأوروبية التجارية والسيطرة على تجارة الشرق ، كان ينمو منافس أوروبى آخر مسيحى وهو البرتغال :القوة البحرية . فبعد أن تمكنت البرتغال من القضاء على سلطان المسلمين فى القسم الغربى من الأندلس عند منتصف القرن ١٣م وبعد أن تدعمت قواها كدولة بحرية ، اتجهت منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى بنظرها إلى عبر المتوسط حيث سواحل المغرب الأقصى وأفريقيا الغربية . وفى حين ظلت أراجون وقشتالة فى صراع دامى مع غرناطة خلال القرن ١٥م اتجهت

---

١٨)أنظر التفاصيل في :

محمد العروسي المطوي :مرجع سابق ، ص ص ٢٦٦ -٢٦٩ .

د. فاروق عثمان اباظة :مرجع سابق ، ص ص ٩٦ -٩٧ .

John Saunders : op . cit . P . 103 - 104 .

١٩) أنظر علي سبيل المثال :

د. فاروق عثمان اباظة :مرجع سابق ، ص ٩٦.

٢٠) أنظر علي سبيل المثال :

امين شاكر ، سعيد العريان ، محمد مصطفي عطا :تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان إلي خلفاء اتاتورك ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ص ٢٨- ٣٢ .

كشوف أسبانيا بعد توحيدها نحو الغرب وحتى وصلت للعالم الجديد فى نفس عام سقوط غرناطة ، فانه كان للبرتغاليين سبق النزول على الشواطىء الأفريقية منذ أوائل القرن ١٥م (سبته ٨١٨هـ - ١٤١٤م) وفى ظل تزايد ضعف دولة بنى مرين ثم دولة بنى وطاس وتزايد الضغط العثمانى على الجبهة الأوربية حتى تم فتح القسطنطينية وبعدها كانت تتوالى الحملات البحرية البرتغالية وتم الاستيلاء على طنجة ٨٦٩هـ - ١٤٦٤م ، وأصيلا ٨٧٦هـ - ١٤٧١م ٠ ولقد حققت هذه الحملات مكاسب اقتصادية (نقل الذهب ومنتجات أفريقيا السوداء إلى البرتغال) ، كما جذبت التجارة نحو شمال غرب افريقيا بعيدا عن طرق التجارة التى تمر بشرق مصر ومن ثم توافرت الموارد اللازمة لتنفيذ مشروعات كشفية أكثر طموحا وهى الدوران حول افريقيا والوصول إلى رأس الرجاء الصالح ٨٩١هـ -١٤٧٨م ؛ وتمكن البرتغاليون من الوصول إلى الهند ٩٠٤هـ - ١٤٩٨م ثم أتموا في العقدين الأولين من القرن ١٦م السيطرة على الساحل الغربى للمغرب الاقصى [٢١] ويبرز من هذا العرض الموجز للتوسع البرتغالى الذى حقق مكاسب اقتصادية هائلة الرابطة بين ثلاثة محاور فى الحركة البرتغالية المضادة للعالم الاسلامى :ابتداء من المساهمة فى استرداد الأندلس إلى الالتفاف حول العالم الاسلامى بحرا والارتكاز على التحالف مع الحبشة لاحكام الحصار حول مصر المملوكية ٠ ومن ثم لم يكن سقوط مصر المملوكية نتاج ضعف داخلى فقط سهل مهمة العثمانيين ولكن ايضا نتيجة تغير التوازن الدولى حول حوض المتوسط والبحار الجنوبية وهو مالعبت فيه البرتغال دورا اساسيا ٠

٢ - ولقد كان لهذه الحركة البرتغالية الدوبة والمنتظمة التقدم خلال مايزيد عن القرن ونصف والتى تجسدت فيما سمى (الكشوف الجغرافية) دوافع واهداف متنوعة يصب عندها مجمل نتائج التفاعلات بين المسلمين وغير المسلمين ومجمل ما آلت اليه أحوال توازن القوى الإسلامية فى بداية القرن ١٦م٠

ويمكن فهم هذه الدوافع والأهداف انطلاقا من فهم التطورات في الطرف الأوروبي في بداية عصر النهضة وانعكاسه علي العالم الاسلامي ، فقد كانت الكشوف تجسيدا لتاريخ أوروبا الحديث وبداية نهضتها بكل مايعنيه ذلك بالنسبة العلاقات مع العالم الاسلامي ، فاذا كانت الحملات البحرية التي اتجهت للغرب وكشف الارض الجديدة قد أثرت علي بداية تغير توازن القوي لصالح أوربا المسيحية بسبب ضخامة الموارد والثروات الجديدة التي توافرت لها ومكنتها من دفع الرأسمالية ومن ثم اقامة الصناعات الكبيرة والاختراعات الفنية فانه في المقابل كان للحملات البحرية التى

---

٢١) محمد عبد الله عنان :مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠٢ - ٣٠٦
- محمد العروس المطوي :مرجع سابق ، ص ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ٠
- د٠ مصطفي رمضان :مرجع سابق ، ص ص ٣٥ - ٤٤ ٠

اتجهت للشرق من أجل الدوران حول افريقيا آثارها ايضا على هذا التوازن لأنها أدت إلى التدهور الاقتصادى للشرق الاسلامى ومن ثم استعماره بصورة مباشرة وغير مباشرة[٢٢] بعبارة أخرى وكما يقول المستشرق بارتولد [٢٣] فانه اذا كان القرن ١٠هـ قد شهد نجاح السلاح الاسلامى فى بعض المناطق الا أن مصائب العالم الإسلامى أيضا قد بدأت فى هذا القرن بعد ان أنتهى التفوق المدنى الذى ظل يتمتع به الشرق زهاء ألف عام . بعد أن انتقل التفوق المدنى إلى الأوروبيين الغربيين لم يعد العالم الاسلامى بالرغم من أنه لم يفقد قدرته الحضارية ، قادرا على مزاحمة العالم المسيحى نظرا لتقدم حياة المدن والتجارة والصناعة فى أوروبا وتطور الصناعات (الأسلحة + انشاء السفن) التى كفلت تفوق أوروبا .

وبناء على المنطلقات السابقة يمكن أن ننظر إلى دوافع وأهداف التحرك البرتغالى (ومن بعده أطراف أوروبية أخرى)، وهنا يجب أن نميز بين مجموعتين :الأولى تتصل بدوافع الالتفاف حول العالم الاسلامى من اجل حصاره واخضاعه والنفاذ اليه لتحقيق الأهداف الصليبية ، أما الثانية فتتصل بدافع المنافسة الاقتصادية بين القوى الأوروبية وسعيها فى ظل التطورات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية لايجاد طرق بديلة للتجارة مع الشرق بعد أن احتكر المماليك طريق المتوسط – البحر الأحمر وبعد أن أغلق العثمانيون طريق أسيا بعد فتح القسطنطينية والسيطرة على القرم . وعلى ضوء فيض الأدبيات الغربية والعربية فى هذا الموضوع كان استقصاؤنا لها بهدف محدد وهو تحديد درجة الاختلاف فى تفسيرات دوافع وأهداف الكشوف البرتغالية ، هل كانت اقتصادية علمية أم سياسية دينية ؟ . ولقد اختلفت الأدبيات من حيث اعطاء الأولوية لأى من البعدين ، هذا ويمكن أن نميز من بين هذه الاختلافات بين التيارات التالية :

التيار الأول :يبرز أولوية الدوافع السياسية الدينية فنجد البعض من المسلمين [٢٤] يستنكر فى الأصل اطلاق لفظ الكشوف على الحركة البرتغالية لأنه ليس صحيحا أن أوروبا كانت تجهل وجود الخليج العربى وطريق الهند ، ولأن أوروبا ضخمت من نتائج الاستكشافات لتظهر بطولتها وتفوقها ، فهذه المناطق كانت معروفة تماما ولكن لم يكن قد آن وقت الدخول اليها ، أما البعض الآخر من المسلمين [٢٥] فيحذر من الأخطاء التى وقعت فيها دراسة ظاهرة الالتفاف الأوروبى حول العالم الاسلامى والتى زيفها

---

٢٢) - E. Mortimer : op . cit . PP 89 - 83

٢٣) ف . بارتولد :مرجع سابق ، ص ص ١١١ – ١١٢ .

٢٤) انظر علي سبيل المثال :

عطا الله جليان : الإسلام وأبعاد الغزو الأوربي ، مؤسسة دار الكتاب الحديث ، بيروت ط١، ١٩٨٦ . ص ص٤٣ – ٤٤ .

٢٥) د. مصطفي رمضان :مرجع سابق ، ص ص ٢٩ – ٣٥

الغرب المسيحى حيث أبرز أنها كانت بدافع التنافس الاقتصادى والبحث عن ظروف اقتصادية أفضل ،وذلك على أساس أن الظروف والملابسات السياسية والدينية التى صاحبتها تؤكد أن دوافعها منذ البداية كانت صليبية متعصبة مسرفة فى عدائها للمسلمين . فالمراسلات بين ملك البرتغال (١٤٩٥م -١٥٢١م) وملك الحبشة والتى شجعتها بابوية روما تبين أن العوامل الدينية كانت من أقوى العوامل التى حركت الأوروبيين وفى طليعتهم الأسبان والبرتغاليون للالتفاف حول العالم الاسلامى . ولقد دعت عديد من الكتابات [٢٦] للتحرر من ذلك التزييف المتعمد للتاريخ وتوضيح الدافع الدينى الصليبى للكشوف التى أهملها المؤرخون زمنا طويلا .

التيار الثاني :يعترف بالدوافع الدينية - السياسية ولكن باعتبارها رد فعل للموجة الثانية من الفتح الاسلامي مع العثمانيين وعبرت عنه كتابات بعض أهم المستشرقين ، فنجد البعض [٢٧] يشير إلى أن العالم الغربى قد أجاب على استيلاء الاتراك على مقر المسيحية الأرثوذكسية الشرقية فى القرنين ١٤م و١٥م بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الإسلامية عوضا عن المواجهة المباشرة كما حدث خلال الحروب الصليبية التى كانت نتائجها وخيمة عليه . هذا ولم يخاطر الغرب - بالرغم من استطاعته منذ نهاية القرن ١٦م بفضل اتمام السيطرة على البحار - لم يخاطر بشد الحبل إلا فى القرن ١٩م بعد أن تداعت الامبراطورية العثمانية وزادت وتدعمت قوة الغرب.

هذا ولقد قدم البعض الأخر [٢٨] من المستشرقين تحليلا متكاملا يبرز بوضوح أسانيد هذا التيار، وينطلق هذا التحليل من آثار الحروب الصليبية على علاقات أوروبا بالقارة الأسيوية وتطور نطاق حركة الكشوف منذ القرن ١٣م إلى نهاية القرن ١٥م وتتلخص عناصر هذا التحليل فى الآتى :

اكتساب أوروبا بعد الحروب الصليبية نظرة جديدة واسعة للعالم صاحبها نهوض حركة الارتداد ودراسة الجغرافيا ودراسة عصر الاستكشاف الأسيوى الذى امتد بين القرنين الثالث والرابع عشر الميلادى والذى كان مجاله الامبراطورية المغولية المترامية قبل تهاوى أرجائها وتفككها وكان هدف هذا الاستكشاف هو تحويل آسيا إلى المسيحية ومن ثم توحيد جهود آسيا المسيحية وأوروبا المسيحية حتى يطبقا على

---

٢٦) انظر :

محمود شاكر :الكشوف الجغرافية - دوافعها حقيقتها . منشورات المكتب الاسلامي . بيروت ١٣٩٢ -١٩٧٢ م .

٢٧) ارنولد توينبي :العالم الاسلامي والغرب . منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ط١ ١٩٦٠ ، ص ص ٢٨ - ٢٨ .

٢٨) ارنست باركر :اثار الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٤٢ - ١٤٦

الإسلام . ومع انتشار الإسلام في وسط آسيا في القرن ١٤م ومع ترامي أطراف الامبراطورية الإسلامية بفضل الأتراك العثمانيين تأكد لأوروبا أن الطريق البرى قد أغلق أمامها ولم يعد هناك الا البحر كسبيل إلى الشرق ومهاجمة المسلمين من الخلف . ومن ثم يخلص هذا التحليل إلى أن الغرب استطاع بواسطة الكشوف البحرية أن يعيد الميزان لصالحه ومن ثم فهو يرى أن الحروب الصليبية لم تفشل نظرا للمجال الفسيح الذى أفرزته فكرتها الأساسية أى حماية المسيحية من خطر الإسلام . ولقد عبر عن هذا التيار كتابات غربية حديثة حول التطور العام لتاريخ الإسلام وعلاقته بالغرب [٢٩] حيث لم تر فى الكشوف الجغرافية إلا رد فعل للتطويق التركى لأوروبا والضغط عليها من جهة الشرق ولقد نقل بعض المؤرخين العرب المسلمين هذا الاتجاه من التحليل [٣٠] .

اما التيار الثالث :فهو الذى يعترف أيضا بالدوافع الدينية السياسية ولكن مع ربطها بدوافع اقتصادية ولكن دون المبالغة فى أهمية انجاز تلك الأخيرة، ولقد عبر عنه أيضا بعض المستشرقين فنجد البعض [٣١] وان اعترف بأن "جل مآرب هنرى الملاح كان مواصلة عمل الصليبيين بمحاولة الالتفاف حول ديار الإسلام وحصارها من الناحيتين الحربية والتجارية مع انتزاع تجارة الذهب وغيره من منتجات أفريقيا الغربية من المسلمين ثم الاتصال بما وراء الصحراء الكبرى بملوك أثيوبيا والاشتراك معهم فى مهاجمة المسلمين من الجنوب "، إلا أنه يشير من ناحية اخرى إلى أنه ربما يكون هنرى الملاح قد قصد أيضا فى أواخر عهده الاستيلاء على تجارة الهند ، التى كانت تمثل حينئذ أكبر مورد لثراء العالم الاسلامى ، ولكن البرتغال لم تستطع قط الاستيلاء على قواعد دائمة فى البحر الأحمر بسبب موقف المماليك ثم العثمانيين ، وأنها بالرغم من استئثارها بطريق رأس الرجاء مدة ما الا أنها لم تستطع مطلقا تحويل كل التجارة عن الطريق البرى .

هذا ولقد أبرز البعض الأخر [٣٢] أيضا أن هدف سياسة المسيحية البرتغالية كان تدمير التجارة الإسلامية فى المحيط الهندى ، ولكن لم يسيطر البرتغاليون إلا على عدد محدد من الموانىء الأساسية المتناثرة ، وأن المسلمين والهنود استمروا فى السيطرة على جزء هام من التجارة ، بالرغم من أن القوة البحرية البرتغالية تمكنت

٢٩) انظر على سبيل المثال :

- J.T.Addisson : op . cit . P 60 - 61
- Erich W.Bethmann : Bridge to Islam , George Allan . Univirsal , London . P . 91 - 92 .

٣٠) د. حسين مؤنس :مرجع سابق ، ص ص ٣٤ – ٣٦ ، ٤١ – ٤٢ .

٣١) جورج كيرك :مرجع سابق ، ص ص ٩٧ – ٩٩ .

٣٢) .- M.G.Hodgson : op. cit V 3 , pp .21 - 22

لفترة طويلة من اعاقة الحملات البحرية التجارية بعيدة المدى التى كانت تهدد تجارتهم نحو أوروبا وخاصة فى منطقة أعالى البحر الأحمر والمتجهة إلى مصر .

اما التيار الرابع :والذى عبرت عنه أدبيات للمسلمين وغير المسلمين فهو الذى يبرز اولوية الدوافع الاقتصادية مع ربطها بالدوافع الدينية السياسية ولكن بسبل متنوعة . فنجد البعض (٣٣) وبحكم طبيعة موضوعه يرى على ضوء أبعاد التجارة العالمية عبر مصر والبحر المتوسط طوال العصور الصغرى أن القيود التى واجهت الأوروبيين كانت لها آثارها السلبية عليهم مما شجعهم - إلى جانب اعتبارات أخرى - على التوجه إلى كشف الطريق البحرى المباشر بين أوروبا والهند فى نهاية القرن ١٥م . أما البعض الآخر (٣٤)فيبدأ بالاشارة إلى أن محاولة البرتغاليين ثم وصولهم للمحيط الهندى لم تكن سوى ثورة كبرى فى عالم التجارة ومبعث رعب وفزع فى كل من القاهرة والبندقية ثم صارت مقاومة هذه المحاولة المدمرة لثروة الشرق الادنى عبئا ثقيلا على عاتق العثمانيين ، ولكن يشير بعد ذلك إلى أهداف أخرى للبرتغاليين وهى مواصلة القتال ضد المسلمين والاتصال بالحبشة لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية وهى نشر المسيحية والتبشير بها فى أنحاء الشرق الأدنى .

وفى حين أورد البعض الآخر (٣٥) الهدف الاقتصادى بعد الهدف الدينى فان الأخير كان يقتصر لديه على مجرد بحث الكنيسة عن تعويض لخسائرها الداخلية والخارجية عقب فشل الحروب الصليبية وذلك بالسعي لنشر المسيحية خارج أوروبا . هذا ولقد أوضحت بعض المصادر الأخرى صراحة (٣٦) ، أن من أكثر أهداف حركة الكشوف البرتغالية أهمية هدف الاستحواذ على مكانة البندقية كموزع أول لمنتجات الشرق فى أوروبا ، وهدف الانضمام إلى مسيحيي الشرق فى الهجوم على العالم الاسلامى من قرب ، وهما هدفان ارتبطا بالتطور فى التوازنات الأوروبية والدولية حول حوض المتوسط وحوض مصر بصفة خاصة حيث أن هذه الأهداف كانت تتضمن هجوما على الدولة المملوكية . وبذا يتضح مرة أخرى - كما سيتضح بعد ذلك أيضا - كيف أن التحركات الخارجية لدول أجنبية تؤكد موضع ودور مصر فى التاريخ العالمى .

٣ - وبالنظرة المقارنة بين هذه التفسيرات نجد أنها لاتختلف فى الأبعاد التى تطرحها بقدر ماتختلف من حيث الأولوية التى تعطيها لبعد على الآخر ولهذا يمكن القول على ضوء ملاحظة تطور واقع السيطرة على طرق التجارة من ناحية وتطور واقع

---

٣٣) د. فاروق عثمان أباظة :مرجع سابق ، ص ص ٥ - ٣٦ .

٣٤) د. محمد عبد اللطيف البحراوي :فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلي البحر . ط١ . دار التراث ، القاهرة ١٣٩٩ - ١٩٧٩ ، ص ص ٥٣ - ٥٦ .

٣٥) - M.Imamuddin : op . cit . P.17 .

٣٦) - A. Hess : op . cit . P. 60 .

واقع المواجهة السياسية العسكرية بين الطرفين المسلم والأوروبى من ناحية أخرى أنّ هدفا ودافعا الكشوف السياسى والدينى والاقتصادى انما هما هدفان متكاملان ومترابطان فالكشوف ومنذ بدايتها فى أوائل القرن ١٥م وحتى اكتمال دورتها فى النهاية لم تكن إلا أداة تنفيذ الهجمة الأوروبية الثانية على قلب العالم الاسلامى بعد أن نجح استرداد الأندلس والذى أعتبر أول كسر فى حلقة التفاف العالم الاسلامى حول قلب العالم المسيحى فى أوروبا وهو الاحكام الذى كان قد تحقق مع فتوح الأتراك العثمانيين فى أوروبا . بعبارة أخرى كانت الكشوف أداة جديدة لاستكمال هدف الصليبية التقليدية (حرب الإسلام وحماية المسيحيين) ولكن بأسلوب جديد استجابة لظروف أوروبية وظروف اسلامية ولأوضاع دولية متطورة ، فلقد أضحى السبيل الأساسى لتدعيم مصادر القوة الذاتية للأطراف الأوروبية المسيحية وفى نفس الوقت ضرب العالم الاسلامى هو الحصار الاقتصادى والقضاء على منبع ثراء هذا العالم وقوته فى هذه المرحلة أى التجارة بل وتحويل هذا المنبع لتغذية مصادر القوة الأوروبية . ولهذا يظهر من دوافع بداية الكشوف ثم تطورها ارتباط شديد بين السيطرة وضرب الإسلام وبين بعد التجارة فى العلاقات الدولية المسيحية -الإسلامية . وهو الارتباط النابع من المحتوى الجديد الذى أضحى لهذه العلاقات وذلك فى ظل التطورات فى طبيعة الأطراف الأوروبية المسيحية مع بداية عصر النهضة حيث ظهرت قوى اقتصادية متنافسة أخذت بعد ذلك دفعات متتالية من النمو خلال القرون الثلاثة التالية التى تعاقبت خلالها بعض هذه القوى على الهيمنة على النظام الأوروبى . وهو الأمر الذى صبغ الصليبية التقليدية بصفات متنوعة لتحقيق نفس الهدف التقليدى لكن فى ظل تطورات الراسمالية التجارية ثم الصناعية ومن ثم فى اطار الاستعمار التجارى أولا ثم الاستعمار المباشر الذى مارسته هذه القوى التى وصل بعضها إلى مرتبة الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى بعد الاحتلال العسكرى لأراضى القلب الإسلامى .

ولقد أثمر هذا الارتباط بين بعدى السيطرة وضرب الإسلام والتجارة فى هذه المرحلة الانتقالية بين عصرين والتى امتدت منذ نهاية القرن ١٥م وحتى أوائل القرن ١٦م نتيجتين جوهريتين أثرتا على التوازن العالمى وتوازن القوى الإسلامية نحو المرحلة الجديدة التى استغرقت القرون الثلاثة التالية ، بحيث يمكن القول بأنه كان هناك تفاعل واضح بين المرحلة الانتقالية فى التوازن الدولى وبين مرحلة انتقالية فى توازن القوى الإسلامية ، وبأن الأحداث الخارجية والعالمية بصفة عامة تؤكد أهمية وضع ودور العالم الاسلامى فى التاريخ العالمى . فمن ناحية كان هناك انتقال الصدام الاسلامى - المسيحى من الصعيد البرى الذى تحمل عبئه الأساسى المماليك

إلى الصعيد البحرى الذى تحمل عبئه العثمانيون بعد أن انتقل التوازن الدولى من البر فى أوروبا إلى البحار حول العالم الاسلامى (وقبل الانتقال إلى الهجوم المباشر على أرضه) وحيث سعت القوى الأوروبية البحرية إلى السيطرة على موانئ ومراكز تجارية على شواطىء العالم الإسلامى ، وبذا تبلور النمط الأول من الهجمة الأوروبية الثانية والذى تلاه بعد ذلك نمط آخر هو الهجوم المباشر على أرض القلب الإسـلامى واحتلاله .

ومن ناحية أخرى انتقلت توازنات القوى الإسلامية (الصفوية - العثمانية - المملوكية) إلى مرحلة جديدة ومن ثم لم يكن سقوط المماليك نتاج أسباب داخلية فقط سهلت المهمة أمام العثمانيين الذين أرادوا التوسع ولكن نتيجة تغيرات فى توازن القوى الدولية من حولهم (ظهور الصفويين - ظهور البرتغاليين) على نحو خلق الدافع لدى العثمانيين للتوجه نحو الجنوب. اذن كيف تفاعلت هذه القوى الإسلامية مع هذه الهجمة الجديدة وكيف تأثرت التوازنات بها ؟ .

المبحث الثاني :التفاعلات الإسلامية - الإسلامية فى ظل الالتفاف المسيحى من الجنوب :النزاع العثمانى - المملوكى - الصفوى والتغير فى توازن القوى الإسلامية :

فى نفس الوقت الذى كانت فيه نتائج تطور الكشوف الجغرافية الأوروبية تمهد للاعلان عن توازن دولى جديد عند منعطف القرن ١٦م كان قلب العالم الاسلامى يشهد بدوره ، نتيجة تداخل وتفاعل ضعف المماليك وظهور الدولة الصفوية واتجاه العثمانيين نحو الجنوب والشرق ، تطورات هامة تعده أيضا لبداية توازن جديد فى القوى الإسلامية . وهنا يثور أمامنا سؤالان :من ناحية إلى أى حد تأثر تشكيل هذا التوازن الجديد بآثار بداية الهجمة الأوروبية الجديدة ؟ ومن ناحية أخرى هل أثر نمط العلاقات بين مراكز القوة الإسلامية الثلاثة على نتائج المواجهة والتصدى للتحركات البرتغالية ؟ وهل أدركت هذه المراكز خطورة هذه التحركات ؟ وهل كانت العلاقات بينها تسمح باعداد رد الفعل المناسب والفاعل فى هذه المرحلة ؟

ان الاجابة عن هذه الأسئلة - التى تقع فى صميم محاولة فهم نمط العلاقات الإسلامية - المسيحية فى هذه المرحلة - تعكس سمة خاصة ومميزة للتفاعلات الإسلامية - الإسلامية وهى التداخل والتشابك الشديد ليس بين السياسات المملوكية والعثمانية فقط ولكن أيضا الصفوية حيث لم تنفصل التفاعلات بين طرفين منهما عن التفاعلات بين الطرفين الآخرين بعد ظهور ونمو الدولة الصفوية كفاعل اسلامى جديد فى هذه المرحلة الحرجة من الخطر الخارجى على العالم الاسلامى برمته .

ففى نفس الوقت الذى كانت فيه العلاقات المملوكية العثمانية تمر بمرحلة هدوء مؤقت بعد مرحلة الصدام المباشر الأولى (١٤٨١-١٤٩١م)اكتمل تأسيس دولة اسلامية جديدة هى الدولة الصفوية الشيعية ١٥٠٢م (٣٧) وبهذا شهدت بداية القرن١٠هـ - ١٦م تجاور ثلاث قوى أسلامية كبرى متفاوتة القوة :العثمانية الناضجة، المملوكية المتهاوية ، الصفوية النامية . وإلى جانبهم كانت الدولة الإسلامية المغولية فى الهند (٣٨) ، والتى اكتمل تطورها وقوتها منذ ١٥٢٦م - كما سنرى بعد ذلك - تتهيأ لتصبح احدى ركائز توازن القوى الإسلامية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى . وعلى عكس الوضع في فارس والهند والتى شهدتا بروز دول لعبت دورها فى السياسات الإسلامية الدولية خلال القرون التالية نجد أن خانات وسط آسيا (وكذلك خانات شرق أوروبا المسلمة) استمرت أسيرة النزاعات الاقليمية فيما بينها وفى مواجهة روسيا النامية. ولذا فمع نتائج الكشوف الجغرافية ومع تطورات الجهود العثمانية انتقل تماما مركز التاريخ العالمى بعيدا عن هذه المنطقة ، التى سبق ولعبت دورها منذ منتصف القرن ١٣م حيث أن العثمانيين قد اتجهوا إلى الجنوب لأسباب عدة ولم يتجهوا إلى

---

٣٧) حول تطور حركة الجماعة الصفوية كطريقة دينية منذ بداية القرن ٨ هـ ١٤ م ، ثم تطورها كحركة سياسية منذ منتصف القرن ١٥ عملت علي توحيد الأراضي الايرانية (بعد انقسامها في ظل حكم ايلخانات المغول ثم التيموريين) حيث ورث الصفويون دولة اوزون حسن التركمانية (الاوزبك) التي كانت بمثابة المنطقة العازلة بين العثمانيين والتيموريين . حول هذه التطورات وهي تاسيس الدولة الصفوية الشيعية (٨٩٢ - ١٥٠٢ م) التي فرضت المذهب الشيعي بحد السيف وتوسعت شمالا حتي تاخمت حدودها الدولة المملوكيـة والدولة العثمانية . انظر :

- د. بديع جمعة ، د. أحمد الخولي :تاريخ الصفويين وحضارتهم (الجزء الاول)ط١ ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٩٧٦ ، ج١ ، ص ص ١ - ٧١ .
- د: أحمد الخولي :الدولة الصفوية . مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ص ٥ - ٦٦
- د. محمد مصطفي رمضان :مرجع سابق ، ص ص ٦٢ -٦٨ .
- د محمود شاكر :مرجع سابق . ج٨ ، ص ص ٣٨٥ - ٤٠٤ .
- كارل بروكلمان :مرجع سابق ، ص ص ١١٧ - ١٢٦ .

R.M. Savory : "Safavid Persia" .in : P.M.Holt et .al .(eds:) op . cit . Vol. PP - 595 - 627 .

٣٨) حول تطور ظهور هذه الدولة بعد تطور الدويلات والامارات الصغيرة الإسلامية وغيرها في شبه القارة الهندية وذلك منذ بداية الفتوح الإسلامية وحتي ٨٨٩ هـ - ١٥٠٠ م وهو تاريخ تولي الامبراطور بابر آخر التيموريين والذي استكمل تكوين دولة قوية بعد ذلك ١٥٢٦ م . انظر :

د. أحمد محمود الساداتي :تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضاراتها ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ص ٢٠- ٤٧ .
- محمود شاكر :مرجع سابق ، ج٧ ، ص ص ٢١٢ -٢٥٧.
- د . عصام عبد الرؤوف الفقى : الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٧ .
- بارتولد شبولر ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٩ - ١٢٤ .

وسط أسيا كما لم يكن نفوذهم لدى خانات القرم أو حوض الفولجا أو شرق أوروبا إلا اسميا مما أفسح المجال بقوة لروسيا للنمو والاتساع على حساب هذه الخانات تدريجيا وحتى وصل اتساعها إلى حد الصدام المباشر مع العثمانيينأنفسهم[٣٩] . ولقد كانت العلاقات بين الدول الثلاث الكبرى الإسلامية فى هذه المرحلة الانتقالية شبيهة بالعلاقات فى اطار نظام لتوازن القوى غير المستقر حيث كانت كل قوة تسعى للقضاء على القوتين الأخريين وتخشى كل منهما فى التدخل ضد احداهم خوفا من تدخل الأخرى [٤٠] اذن لماذا ظهر هذا النمط من العلاقات وكيف انتهى وما مدلوله بالنسبة لمستقبل العلاقات الإسلامية – الإسلامية بعد ذلك؟ وكيف كان التأثير المتبادل بينه وبين العلاقات الإسلامية – المسيحية ؟ هل لعب العامل الخارجى دورا فى تشكيله ؟ وهل أثر هذا النمط بدوره على نتائج المواجهة الإسلامية – المسيحية فى هذه المرحلة الحرجة ؟ أى هل نجح فى حماية منطقة الشرق الاسلامى من التدخل الخارجى فى هذه المرحلة ؟ .

وتقتضى الاجابة عن هذه الاسئلة تناول أسباب ونتائج كل من الصدام المملوكى – العثمانى ، والعثمانى الصفوى والتداخل بينهما وبين العلاقات المملوكية الصفوية وذلك على النحو الذى يوضح أمرين :

من ناحية :وزن العوامل الخارجية (غير المسلمة) بين العوامل الداخلية والاقليمية المؤثرة على هذه التفاعلات المتشابكة (مثلا إلى أى حد كان الخطر البرتغالى الأسبانى هو الدافع وراء التوجه العثمانى نحو الجنوب والشرق) .

ومن ناحية أخرى :حقيقة أبعاد ودوافع الدور العثمانى الجديد فى منطقة الشرق الاسلامى حيث أثار هذا الدور (ضم مصر والشام ثم باقى الدول العربية والصدام مع الصفويين) تفسيرات مختلفة بقدر ماأثارت أيضا التفاعلات العثمانية – المملوكية – الصفوية تفسيرات مختلفة ، ولقد كان من أهم أسباب اختلاف هذه التفاسير طبيعة المصادر التاريخية الأولية المستخدمة حيث أن المصادر التركية قدمت تفسيرات تختلف عن المصادر العربية – المصرية وهذا ماسنبرزه فى موضعه من التحليل المقارن للتيارات التى انقسمت بينها الأدبيات المختلفة .

المطلب الأول :فشل الجهود المملوكية فى القضاء على التهديد البرتغالى :

تطور التقدم البرتغالى فى المحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر الجنوبى ووصل إلى شواطىء الهند بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، كذلك استمر الضغط البحرى

---

٣٩) -A. Hess : op . cit . P . 69
- A. Hess : the Ottoman Seaborn Empire .op.cit.P . 1911

٤٠) د. محمد السيد سليم :العلاقات بين الدول الإسلامية . منشورات جامعة الملك سعود الرياض ، ١٤١٢ – ١٩٩١ م ، ص ص ٦٧– ٦٨ .

الصليبي على المماليك فى حوض المتوسط لتحويل جهودهم عن مواجهة البرتغال فى الجنوب والتى عملت على احكام الحصار حول مصر المملوكية من خلال التحالف مع الحبشة . ولما كانت أهداف البرتغال من وراء توسعها البحرى تمثل تهديدا للدولة المملوكية من نواحي عدة ، فقد تعددت سبل وقنوات المقاومة المملوكية . ولقد تداخل مع هذه السبل التفاعلات بين مصر المملوكية والصفويين والعثمانيين وغيرهما من الكيانات الإسلامية ولكنها انتهت جميعا بالفشل فى القضاء على التهديد البرتغالى . ويمكن أن نقسم هذه السبل إلى مجموعتين أساسيتين :

أولا :الأدوات الدبلوماسية للمواجهة مع الأطراف الأوروبية

اقترنت الحركة البرتغالية فى الجنوب بازدياد التوتر بين المماليك والممالك الأوروبية فى حوض المتوسط نظرا لاستمرار الضربيات الموجهة إلى السفن المصرية فى المتوسط نتيجة التعاون والتنسيق بين البرتغال وبين قادة بعض الممالك الأوروبية وقادة فرسان الاستبارية فى رودس الذين قاموا أعمال القرصنة الصليبية ضد الموانيء المصرية والشامية ، وقد تصاعدت هذه الأعمال فى الفترة من (١٥٠٥ – ١٥١١م) أى قبل معركة ديو البحرية ١٥٠٩م وبعدها [٤١] .

ولقد كان هدف هذه الأعمال هو اعاقة المماليك عن بناء القوة البحرية اللازمة لمحاربة البرتغال حيث أن المماليك كانوا قوة عسكرية برية أساسا ضعيفة فى الأبعاد البحرية نظرا لافتقارهم إلى المواد الضرورية اللازمة لبناء الاساطيل مثل الخشب والحديد والنحاس وهى المواد التى كان عليهم استيرادها للاعداد للمواجهة المباشرة العسكرية مع البرتغاليين [٤٢] .

ولمواجهة هذا الضغط من الشمال وسعيا نحو خدمة هدف بناء قوة بحرية، ونظرا لعدم القدرة على القضاء على فرسان الاستبارية فى رودس اتجه المماليك إلى مسلكين دبلوماسيين متكاملين هما محاولة تعبئة مساندة البندقية وارسال السفارات إلى الدول الأوروبية ، والتهديد بورقة أهل الذمة والتجار الأووربيين [٤٣] . فمن ناحية اتفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطنة المماليك فى مواجهة البرتغاليين حيث كان الدور

---

٤١) د. عبد العزيز عبد الدايم :مرجع سابق ، ص ص ٢١٥– ٢١٩ .
– أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١٣٩ – ١٤٤ ، ١٣٩ – ١٤٤.

٤٢) A. Hess : op . cit , P .1907

٤٣) انظر التفاصيل في :
أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١٢٨ – ١٣٧ ، ١٣٠ – ١٤٤ ، ١٤٧ – ١٥٤ .
– د. فاروق عثمان أباظة :مرجع سابق ، ص ص ٦٧ – ٧٢ .
– د. عبد العزيز عبد الدايم :مرجع سابق ، ص ص٢١٨ – ٢١٩ .
– د. أحمد علي طرخان :مصر في عصر المماليك الشراكسة . مرجع سابق ، ص ص ١٤٢ – ١٤٣ .

البرتغالى يعنى احلال البرتغاليين محل البنادقة فى السيطرة على تجارة الشرق ، وقد طالبت البندقية عقب النزول البرتغالى الثانى فى الهند ١٥٠٣م المماليك باستغلال ماليديهم من نفوذ لدى سلاطين الهند المسلمين ليقطعوا علاقاتهم بالبرتغاليين كما طالبتهم بتخفيض أسعار التوابل فى الموانى المصرية حتى يمكنها منافسة أسعار البرتغاليين فى أسواق أوروبا . وفى المقابل طالب الغورى البندقية امداده بالمواد اللازمة لاعداد اسطول ولقد رفضت البندقية الاستجابة لطلب الغورى وذلك اتفاقا مع الخط المزدوج لدبلوماسيتها حيث لم ترغب فى التورط علانية إلى جانب مصر على نحو يثير غضب البابوية والدول الأوروبية الأخرى . ومن ثم لم يكن التحالف المملوكى البندقى يدعم بفاعلية قدرة مصر على التصدى للبرتغال بقدر ماكان تكتيكا بندقيا لحماية المصالح، ولذا سرعان ماتجهت البندقية للتعاون مع الصفويين بعد يأسها من قدرة المماليك .

ومن ناحية أخرى :ومع تعثر التعاون مع البندقية واستمرار أعمال قرصنة فرسان الاستبارية عاد مسلك الغورى إلى سياسة الضغط على البابا وملوك الفرنج وخاصة ملكى اسبانيا والبرتغال بورقة اضطهاد الأوروبيين المقيمين فى دولة المماليك تجارا ورهبانا وبورقة اغلاق كنيسة القيامة فى القدس ، وفى حين لم يسفر هذا الضغط عن نتيجة ايجابية نظرا لقناعة هؤلاء الملوك بحرص المماليك على العلاقات التجارية مع الفرنج فى هذه الفترة العصيبة من اقتصادهم ، فان الغورى من جانبه لم ينفذ وعيده مباشرة بصورة كاملة ولكنه ومع تصاعد هجمات الفرنج وخاصة عقب معركة ديو والتى قضت على امكانات المجهود الحربى التى تقوم به مصر لاعادة بناء اسطولها ، نفذ الغورى ٩١٦هـ - ١٥١٠م وعيده حيث أمر بالقاء القبض على جميع التجار الفرنج ومصادرة أموالهم والتحفظ على متاجرهم وكذلك على جميع رهبان دير صهيون فى كنيسة القيامة ، الا ان استمرار هذا المسلك طوال الأعوام التالية لم يؤد إلى دفع البابا أو ملوك الفرنج للتدخل لوقف أعمال القرصنة ضد السفن والموانى المصرية والشامية فى المتوسط ، ومع تدخل ملك فرنسا ١٥١٢م تم التوصل إلى تسوية مؤقتة دفعت البندقية إلى التحرك أيضا حفاظا على مصالحها فى مواجهة فرنسا ومن ثم تعهد البنادقة - بعد تدهور علاقاتهم مع مصر- بتزويد المماليك بالأسلحة والأخشاب لمواصلة نضالهم ضد البرتغاليين .

ثانيا : الأدوات العسكرية :الصدام المباشر مع البرتغاليين :

وفى غمار هذه الجهود المملوكية الدبلوماسية لحماية ومساندة بناء القدرة العسكرية اللازمة لمواجهة البرتغال تكرر الصدام المباشر بين الطرفين فى جولتين أساسيتين : ماقبل معركة ديو ومابعدها حيث تعد هذه المعركة التى هزم فيها المماليك نقطة فاصلة

فى تاريخ هذه المنطقة ، ولقد أحاط بالجولتين تفاعلات المماليك مع الممالك الإسلامية فى الهند واليمن وعدن ومع العثمانيين ومع الحبشة المسيحية ولم يسفر عنها القضاء على البرتغاليين فى المحيط الهندى والخليج ولكن أدت إلى منع توغلهم فى البحر الأحمر وهو الأمر الذى تكفل بتدعيمه بعد ذلك العثمانيون بحيث ظل البحر الأحمر بحيرة اسلامية . (٤٤)

وكان مرجع هذه النتيجة المحدودة عوامل عدة يتصل قدر كبير منها بمدلولات التعاون البرتغالى الحبشى من ناحية وتهاوى فرص وامكانيات التعاون المملوكى مع أمراء الهند واليمن وعدن من ناحية أخرى ، ناهيك بالطبع عن ضعف موارد السلطنة المملوكية وعدم استقرار أوضاعها .

فمن ناحية اقترنت الجهود البحرية البرتغالية المتطورة بالاتصال بمملكة الحبشة(٤٥) وهو الاتصال الذى يمثل امتدادا للاتصالات الافرنجية الحبشية ضد المماليك وضد مسلمى الزيلع منذ منتصف القرن ١٥م - كما سبق ورأينا - ولقد اكتسب هذا الاتصال أبعادا بحرية جديدة مع الرحلات البحرية البرتغالية فى نفس الوقت الذى اشتدت فيه الحروب بين مسلمى الزيلع وبين الأحباش حيث أراد الأحباش تعبئة مساندة البرتغاليين لهم ، كما ارادت البرتغال أن تجعل سواحل الحبشة نقطة اتصال مع الهند .

ومن ناحية أخرى تهاوت فرص وامكانات التعاون المملوكى مع الأطراف الإسلامية المعنية على نحو ساهم بدرجة كبيرة فى فشل التصدى المملوكى للبرتغال ، فبالرغم من أن سلطة الطاهريين باليمن والممالك الإسلامية فى الهند قد تأثرت - مثل سلطنة المماليك - تأثرا قويا بالوجود البرتغالى، الا أن هذه القوى لم تتضامن بالقدر الكافى والمستمر لمواجهة الخطر البرتغالى على مصالحها ووجودها ، فى نفس الوقت الذى حال فيه تردى الأوضاع والقدرات المملوكية دون امكانية قيام الدولة المملوكية بمفردها

---

٤٤) أنظر التفاصيل في :

احمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١٣٦- ١٣٩، ١٥٥ .

- د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الايوبيون والمماليك ... مرجع سابق ، ص ص ٣٢٨ - ٣٢٩

- د.أحمد مختار العبادي ، د. سيد عبد العزيز سالم :مرجع سابق ، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

- د. حسنين ربيع " :بحر الحجاز في العصور الوسطى "مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، عدد ١ ، ١٣٧٩هـ ، ص ص٤٠٨ - ٤٠٩

- بشير حمود كاظم :التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر ، مجلة الوثيقة ، ص ص ٣٩ -٦١ .

- بارتولد شبولر ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٩ - ١٣٤ .

(٤٥) أنظر التفاصيل في :

- د. رجب محمد عبد الحليم :العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع .. ، مرجع سابق ، ص ص ١٠ - ١١٣.

- د. محمد عبد الطيف البحراوي :مرجع سابق ، ص ص ٦٢ - ٦٩ .

بهذه المهمة [٤٦]. وإذا كان المماليك فى تحركهم الأول ١٥٠٥ م قد استجابوا أيضا لاستنجاد أمراء الهنود المسلمين لاغاثتهم واتخاذ مايلزم لتأمين الملاحة ، وإذا كان حاكم اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهرى قد طالب أيضا المماليك بامداده بالآلات والمدافع اللازمة لمقاومة البرتغاليين، وإذا كان والى عدن قد ساعد الأسطول المصرى عند توجهه لقتال البرتغاليين قبل معركة ديو ، وإذا كان سلطان كجرات المسلم (وكان أكثر الأمراء الهنود تحمسا للقتال) قد كفل تعاون أساطيل المسلمين فى الهند مع المسلمين على نحو حقق انتصار معركة شول ، فان هزيمة معركة ديو ثم تحول المماليك من سياسة الهجوم فى المحيط الهندى – الحملة الأولى قبل ديو إلى سياسة الدفاع عن البحر الأحمر – الحملة العثمانية بعد ديو – كانت نتاج وجه آخر للعملية.

ولقد اختلف المؤرخون فى تحليل أسباب هذه الهزيمة هل الغرور الذى أصاب قائد الحملة ؟ أم خيانة حاكم ديو المسلم واتصاله بالبرتغاليين وتحالفه معهم ضد المماليك؟[٤٧] . كذلك لم تلق الحملة المصرية الثانية تعاون حاكم اليمن الطاهرى أو عامله على عدن مرجان الظافرى الأمر الذى أدى إلى قتال قائد الاسطول المصرى لهما على نحو أدى إلى سقوط دولة بنى طاهر فى جنوب اليمن . ولقد خلفت هذه الحملة المصرية ورائها – ونظرا للعنف الذى سادها – آثارا سيئة بعيدة المدى داخل وخارج اليمن ، كذلك فشلت محاولة مصر فى الاستيلاء على عدن لتكون نقطة ارتكاز للعمليات البحرية فى الهند وذلك نتيجة مقاومة أهلها خلال فترة حصارهم فترة طويلة . وكان هذا الفشل أحد أهم أسباب تعديل الخطة المصرية نحو الدفاع وليس الهجوم فى المحيط الهندى .

ويبقى السؤال التالى لماذا هذا المسلك اليمنى وهذا الرد الفعل المملوكى ؟ هل تعاون حكام اليمن وعدن مع البرتغاليين وكيف ولماذا ؟

تشير بعض المصادر [٤٨] إلى أن امام الزيديين فى شمال اليمن والذى كان يناوىء الظاهريين برئاسة عامر بن عبد الوهاب وينافسهم السيطرة على اليمن قد ابلغ

---

(٤٦)حول وضع عدن واليمن في بداية قرن ١٦ م وحول علاقتهم بالمماليك أنظر :
- د. مصطفي رمضان :مرجع سابق ، ص ص ٧٠ – ٧٢ .
- د. محمد عبد اللطيف البحراوي :مرجع سابق ، ص ص ٤٣ – ٥٣ .
- بشير احمد كاظم :مرجع سابق . ص ٤٨ – ٥٦ .
- د سيد مصطفي سالم :الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥ ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة . ط٣ ، ١٩٧٨ .
- وحول العلاقة مع امارات الهند انظر :
- د. محمد عبد اللطيف البحراوي :مرجع سابق ، ص ص ٦٩ – ٧٨ .
(٤٧) بشير احمود كاظم :مرجع سابق ، ص ص ٤٩ –٥٠ .
(٤٨) المرجع السابق ، ص ٤٨ (نقلا عن بدر الدين محمد بن اسماعيل :اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية (مخطوط غير مذكور المصدر) ص ٢١٢) .

قائد حملة المماليك أن عامر بن عبد الوهاب قد صالح الأفرنج وأعانهم بالمدد والزاد وكان سبب وصولهم إلى نواحي جدة . وتشير بعض المصادر الأخرى (٤٩) إلى رفض عامر بن عبد الوهاب اتخاذ الأسطول المصرى قواعد فى اليمن وكذلك احتجازه السفن الواردة بالمؤن ومنعها من الوصول إلى الأسطول المصرى فى عدن . ويشير نفس المصدر (٥٠) إلى تشكيك بعض المؤرخين فى نزاهة مرجان الظافرى والى عدن واتهامهم له بالخيانة لعقده اتصالات مع البرتغاليين ليسهل مهمة دخولهم إلى البحر الأحمر وتجدر الاشارة إلى أن والى عدن قد وافق حقيقة على تسليم عدن للبرتغاليين خلال حملتهم الثانية عليه ٩٢٣هـ – ١٥١٧م بعد أن قاومهم أهلها مقاومة شديدة فى ٩١٩هـ – ١٥١٣م ردتهم عنها خائبين . وتحاول بعض المصادر (٥١) تفسير هذه الظاهرة المتناقضة من جانب والى عدن برغبته فى ازعاج المماليك واغاظتهم لما سببوه من دمار خلال محاولتهم غزو عدن٩٢٢هـ أو أنهم أرادوا مهادنة البرتغاليين حتى يستكملوا تحصيناتهم من جديد أو ليثيروا حمية المماليك لقتال البرتغاليين والتخلص منهم . وأيا كان التفسير الحقيقى لسبب الواقعة فانها فى حد ذاتها تعكس عدم تضامن حقيقى بين مواقف القوى الاقليمية وهو الأمر الذى يرجع بدوره إلى اعتبارات داخلية تتصل بأوضاع اليمن ذاتها (التى كان يتنافس على السيطرة عليها الظاهريون والزيديون والتى لم تكن تملك سبل القوة البحرية والعسكرية الفاعلة التى تجعل من تضامنها أمرا مضمونا أو حاسما فى نتيجته) ، وكذلك تتصل بأوضاع المماليك ذاتهم حيث ازداد تعثر الاقتصاد المصرى وبرزت أمام السلطان الغورى جبهة أخرى نتيجة صدامه مع العثمانيين وماتردد عن تحالفه مع الصفويين . وهذه التفاعلات الأخيرة مع العثمانيين والصفويين أكملت بدورها الحلقة الأخيرة من مصير المماليك ومن بيان محدودية قدرتهم على مواجهة الخطر البرتغالى فى ظل الأوضاع الاقليمية والداخلية السائدة . فكيف دارت هذه التفاعلات لتقود بدورها إلى هذه النتيجة أى اتمام السقوط المملوكى .

المطلب الثانى : سقوط المماليك فى ظل الخطر البرتغالى والتفاعلات المملوكية – العثمانية – الصفوية :

اكتملت الحلقة الأخيرة من ضعف ومن ثم سقوط المماليك فى ظل شبكة متداخلة من التفاعلات المملوكية – العثمانية – الصفوية وفى اطار اتضاح عدم قدرة المماليك على استئصال الخطر البرتغالى.

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٥٢ (نقلا عن النهروارلي :البرق اليماني (بدون تاريخ دار أو نشر) ص ١٠) .
(٥٠) المرجع السابق ، ص ٥٢ (نقلا عن صفوت بك :الوثائق التركية (بدون تاريخ أو دار نشر) ص ٤) .
(٥١) المرجع السابق ، ص ص ٥٥ – ٥٦.

وهنا تثور مجموعة من الأسئلة التى تعرض اشكاليات بحثية هامة :لماذا أسقط العثمانيون المماليك فى مصر والشام ، وهو السقوط الذى كان بمثابة أول حلقة فى دائرة الضم العثمانى للدول العربية (والتى اكتملت خلال النصف الأول من القرن ١٦م) - كما سنرى - ؟ . بعبارة أخرى أكثر شمولا ما أسباب التوجه العثمانى نحو الجنوب والشرق حيث كان الصدام مع المماليك والصفويين ؟ وهل كان ذلك التوجه تنفيذا لاستراتيجية عثمانية كبرى وهل كانت حفظ مصالح الإسلام ؟ . وتتضح أهمية الأجابة عن هذه الأسئلة نظرا لاختلاف التوجهات السياسية عند الاجابة عنها فى الأدبيات المتنوعة التى تناولت هذا الموضوع جزئيا أو كليا . وتنقسم هذه التوجهات إلى مجموعتين أساسيتين :والمجموعة الأولى تذهب إلى تصميم العثمانيين على ضم مصر والشام تدعيما لنفوذهم فى مواجهة الصفويين وفى مواجهة أوروبا ، خاصة بعد ميل المماليك للاتصال بالصفويين عقب معركة جالديران ١٥١٤م .

أما المجموعة الثانية فترى أن السبب هو رغبة العثمانيين فى حماية الشرق الاسلامى والتجارة الإسلامية من الخطر البرتغالى بعد ان اتضح عجز المماليك عن مواجهته بمفردهم أو حتى بالتحالف مع قوى اقليمية اسلامية أخرى .

ويفرض التداخل بين رؤى ومدركات وسياسات هذه الأطراف الإسلامية الثلاثة العثمانية - المملوكية - الصفوية طرح مجموعة من الأسئلة الفرعية التى تطرح فى مجموعها اشكالية العلاقة بين عامل الخطر الخارجى وبين تشكيل توازنات القوى الإسلامية .

أولا :ماهى أسباب الصراع بين العثمانيين والمماليك ؟

ثانيا :ماهى طبيعة العلاقة بين الصفويين والمماليك وهل ظهر تقارب أو تعاون أو تحالف بينهم ؟ وفى مواجهة من :العثمانيين أم البرتغاليين ؟

ثالثا :كيف تطورت العلاقة بين العثمانيين والمماليك ؟ هل كان هناك فرصة للتحالف فى مواجهة كل من الصفويين والبرتغاليين ؟ وهل ساند العثمانيون المماليك فى مواجهة البرتغاليين ؟ ولماذا وصل الأمر إلى القتال بين الطرفين ؟ وهل كان هناك مخطط عثمانى مسبق لضرب الصفويين ثم التفرغ للمماليك تحقيقا للسيطرة والهيمنة على العالم الاسلامى ؟

وسنحاول الاجابة عن هذه الاسئلة فى الجزئيات التالية

أولا : الصراع العثمانى الصفوى :هل هو الدافع للتوجه نحو الجنوب ؟ :

اقترنت بداية التوجه العثمانى نحو الجنوب والصدام العثمانى مع قوى اسلامية فى الشرق الاسلامى فى هذه المرحلة بظهور الدولة الصفوية حيث نجح الشاه

اسماعيل الصفوى فى تدعيم قوته واتمام وحدة دولته الجديدة الشيعية التى قامت على التزاوج بين القوة السياسية والقوة العسكرية فى اطار مذهبى شيعى . ولقد بدأ الصدام العسكرى المباشر بين الطرفين بعد أن اكتملت ونمت هذه القوة الشيعية (١٥٠٠- ١٥١٤م)على نحو أدى إلى متاخمة حدودها لحدود الدولة العثمانية السنية وذلك فى نفس الوقت الذى تزايد فيه الخطر البرتغالى وفشل المماليك فى استئصاله ، ووقع هذا الصدام فى موقعة جالديران فى تبريز ٩٢٠هـ - ١٥١٤م بعد أن تولى السلطان سليم الأول الحكم بعد والده بايزيد الثانى (٩١٨هـ - ١٥١٢م)

١ - ويتفق تيار كبير من التحليلات التى تناولت تطور العلاقات الصفوية - العثمانية[٥٢] على ان السبب الأساسى للصدام بين الطرفين والذى تطور إلى صدام عسكرى مباشر هو ظهور الصفويين كقوة شيعية موجهة ضد الأغلبية السنية هذا وتظهر فى نفس الوقت تنويعات بين روافد هذه التحليلات حول سبب الصدام المباشر : هل هو تحرش الصفويين أم اصرار سليم على ضربهم والتوسع جنوبا فى الدول العربية؟ حيث أن الشاه بعد أن فرض المذهب الشيعى فى بلاد فارس والعراق بالقوة اتجه إلى نشره فى شرق الناضول أى فى أقاليم عثمانية مع تحريضها على الثورة على العثمانيين ، وزاد هذا النشاط فى نهاية حكم بايزيد الثانى (الذى كان يحرص على مظاهر الود الشكلية مع الصفويين) حيث اندلعت ثورة شيعية خطيرة فى الأناضول ١٥١١م ، وبعد أخمادها وتولى سليم الأول السلطنة ١٥١٢م تحرك بجيشه للقضاء على الصفويين وتوغل شرقا فى ايران حتى التقى الطرفان فى جالديران واستولى سليم على تبريز ولكنه لم يتابع انتصاراته لاتمام اسقاط الدولة الصفوية لأسباب عديدة من أهمها تمرد بعض الانكشارية ونقص المؤن والمعدات وتدهور المناخ واتجاه نظره إلى المماليك .

هذا ويرفض تيار آخر من التحليلات [٥٣] أن يكون التحدى الشيعى الصفوى هو سبب الصراع الكبير الذى عم العالم الاسلامى فى بداية القرن ١٠هـ - ١٦م أى يرفض تصوير الحرب العثمانية الصفوية وما أعقبها من غزو سليم لمصر والشام على

---

(٥٢) انظر التفاصيل في :

- د. ابراهيم العدوي :التاريخ الإسلامي :آفاقه السياسية وابعاده الحضارية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ص٤٠٥ - ٤١١ ؛ د. احمد عبد الرحيم مصطفي :مرجع سابق ، ص ص ٧٦- ٨٠ .

- د. محمد عبد اللطيف هريدي :الحروب العثمانية الفارسية واثرها في انحسار المد الاسلامي عن اوروبا . ط١ ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ١٤٠٨ - ١٩٨٧ ، ص ص ٤٦ - ٤٨ ؛ د. عبد العليم علي ابو هيكل: مرجع سابق ، ص ص ٢٧- ٢٨ .

(٥٣) انظر علي سبيل المثال :

- د. محمد انيس :مرجع سابق ، ص ص ١٠٧ -١٠٨ .

- محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ص ١٠٩- ١١٣ .

أنه سلسلة متصلة الحلقات لتطويق المذهب الشيعي [٥٤] . ويدلل هذا التيار على ذلك بأن مثل هذا التصوير انما يتجاهل وجود سياسة أو اتجاه عثماني قائم بذاته نحو سوريا ومصر ، كما يتجاهل عامل التسابق بين العثمانيين ودولة البرتغال حول الوصول إلى البحار العربية ، كما يدلل أيضا بأنه لو كان هدف العثمانيين هو احكام الحصار على الشيعة للقضاء عليهم لأعطى سليم الأولوية لاتمام السيطرة على العراق وماكان اتجه لقتال المماليك السنيٍ المذهب . ولذا ينطلق هذا التيار من أن هذا الصراع الصفوى العثماني انما يندرج فى نطاق التوجه الاستراتيجي العثماني العالمي والذى كان يفرض الاتجاه نحو الجنوب والشرق فى هذه المرحلة لتحقيق أهداف التوسع العثمانية . بعبارة أخرى يرى أن البعد العقيدى المذهبى ليس هو العامل الأساسى حيث هناك عوامل تتصل بالصراع السياسى ، والتى تنبع من طبيعة الاستراتيجية العثمانية الجديدة مع سليم الأول . ولهذا يرى تيار ثالث [٥٥] فى الصراع العثماني الصفوى صراعا سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا ذا صبغة دينية لأنه ارتكز على الوسائل الايديولوجية وخاصة التعبئة الدينية . وهو صراع من أجل السيطرة على العالم الاسلامى انعكس بالتشتت والفرقة على أوضاع المسلمين منذ القرن ١٠هـ - ١٦م لأنه لم يتم حسمه فى جولته الأولى أو جولاته المتعاقبة التى استمرت لما يزيد عن القرنين وهو الأمر الذى انعكس سلبا على قوى الطرفين وزاد قابليتهما للاختراق الخارجي من قوى غير اسلامية .

وإذا كانت العديد من التحليلات التى قالت بالتأثير الأساسى والمباشر للمتغير المذهبى فى تفسير الصدام العثماني الصفوى قد اعترفت أيضا بوجود أسباب اخرى وراء التحرك العثماني العسكرى نحو الجنوب قبل تسرب الأسطول البرتغالى إلى مياه الخليج العربى وعدم قدرة المماليك على ايقافه والسعى لمنع احتمال الغزو الصفوى للحدود الشرقية للدولة العثمانية [٥٦]، فيمكن أيضا القول بأن حركة الصفويين ضد العثمانيين لم يكن يحركها الحماسة المذهبية بقدر ما كانت تنبع من مصالح اقتصادية

---

(٥٤) يقوم هذا الرفض علي انتقاد نظرية ارنولد توينبي "في أسباب الغزو العثماني للمجتمع العربي " .أنظر نص الترجمة العربية في :

-محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ص ٤٣٥ - ٤٤٧ . (الملحق الأول)

- د. احمد الخولي :مرجع سابق . ص٦٨ - ٨٠ .

(٥٥) من التحليلات التي تجمع بين العوامل السياسية والاقتصادية والمذهبية في تفسير الصراع واستمراره ، انظر -:

د. وجيه كوثراني :الفقيه والسلطان . دراسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية القاجارية . المركز العربي الدولي ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ص ٥ - ٧ ، ٥٢ ، ٦٠ - ٦٤ .

- د.سيار الجميل :العثمانيون وتكوين العرب الحديث . مؤسسة الابحاث العربية . بيروت ١٩٨٩ ، ص ص ٣٢٨ - ٣٤٠ .

(٥٦) د. محمد عبد اللطيف هريدي :مرجع سابق ، ص ٤٨ .

- د. احمد عبد الرحيم مصطفي :مرجع سابق ، ص ٨٠ .

وأطمـاع سـياسـية على رأسـها السيطرة على طرق تجارة الحرير الأيرانى التى تختـرق الأناضـول فى طريقها من وإلى أوروبا والتى تفتـرض أيضـا السيطرة على الشام(٥٧)

٢ – خلاصة القول إن التحرك العثمانى نحو الصفويين فى هذه المرحلة كان يندرج تحت استراتيجية عثمانية جديدة فرضت عليها البحث عن ميادين جديدة للنشاط والحركة وذلك فى وقت امتلأ فيه الشرق الاسلامى بدوافع لهذه الحركة . ومن ثم كان هذا التحرك يحقق أهدافا ومصالح سياسية وعسكرية متنوعة وان كان يحركها ويقويها العداء المذهبى .

فمن ناحية : أراد سليم الأول انقـاذ الأراضى العـثمـانيـة الآسـيـوية من خطر الانتشار الشيعى والسيطرة الصفوية. وبالرغم من أن البعض (٥٨) يرى أنه لم يكن هناك أى دلائل تاريخية تدين الشاه اسمـاعيل بأنه كان ينوى غزو أراضى الدولة العثمانية أو المملوكية حيث أنه بعد تكوين دولته اتجه إلى الأوزبك فى وسط آسيا ، إلا أن البعض الآخر(٥٩) . واستنادا إلى مصـادر تركية أساسا، يفيض فى عرض مثل هذه الأدلة على أسـاس أنها هى التى أنهت فترة العلاقة الودية بين الطرفين وخاصة مع مجىء سليم الأول ذى الطبيعة العسكرية القوية والذى كان ميالا للصدام مع الصفويين . وظهر ذلك فى خطاب شديد اللهجة وجهه إلى الشاه قبل معركتهما والذى يظهر من مضمونه الدافع المذهبى الواضح وان لم يخف دافع الحفاظ على الأراضى العثمانية واسترجاع ماانتزعه الشاه (٦٠) .

ومن ناحية أخرى كان الهدف هو قطع سبيل التحالف بين الصفويين وبين القوى الصليبية فى الغرب ومع البرتغاليين ضد العثمانيين فى وقت تزايد فيه خطر الزحف البرتغالى ، فوفقا لبعض المصادر (٦١)أرسل الشـاه فى ٩٠٦هـ سفيرا إلى البندقية يعرض عليها التحالف ضد بايزيد الثانى ، ومن المعروف أن البندقية كانت فى صراع مع الدولة العثمـانيـة – كمـا سبق وأوضـحنا – ولقد تكرر هذا الوضع فى مواجهة المماليك – كما سنرى .

---

(٥٧) د . وجيه كوثراني : مرجع سابق .
– د . محمد عبد للطيف هريدي : مرجع سابق ، ص ص ٤٤ – ٤٥ .
(٥٨) محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ١١ .
(٥٩) د. محمد عبد اللطيف هريدى :مرجع سابق ، ص ص ٤٥ – ٤٨ .
(٦٠) انظر النص الانجليزى لهذا الخطاب فى :
J . Saunders : op . cit . PP 40 - 43
(٦١) د. محمد عبد اللطيف هريدى :مرجع سابق ، ص ٤٥ .

ومن ناحية ثالثة :استهدف هذا التحرك العثمانى نحو الصفويين قطع سبل التحالف بين المماليك والصفويين أو قطع الطريق على أطماع الصفويين فى دولة المماليك فى وقت اتجهت فيه أنظار العثمانيين إلى دولة المماليك أيضا . فهل كانت العلاقات الصفوية المملوكية تثير هذه الاحتمالات ؟ .

ثانيا :العلاقات الصفوية المملوكية :بين العثمانيين وبين البنادقة والبرتغاليين :

مثلت الدولة الصفوية منذ اتساعها ووصول حدودها إلى الهلال الخصيب وخاصة بعد الاستيلاء على بغداد ٩١٤هـ - ١٥٠٨م مثلت مصدرا لتهديدات مختلفة حفلت بها العلاقات الصفوية المملوكية التى سادها التوتر ١٥٠٧ - ١٥١٢م قبل أن تتضارب التحليلات حول مدى صحة دخولها مرحلة التحالف الصريح أو الخفى .

١- فبالنظر إلى تطور هذه العلاقات منذ ١٥٠٧م نلاحظ تكرار مظاهر التوتر، تمثل بعضها فى تحركات عسكرية صفوية على حدود الدولة المملوكية فى الشام ووصلت فى بعض الأحيان (١٥٠٧)إلى حد الصدام المباشر الذى انتصر فيه المماليك ، وتمثل بعضها الآخر فى رسالات متبادلة بين الطرفين لاتحمل معنى الود بقدر ماتحمل فى بعض الأحيان معنى التهديد (كما حدث ١٥١١م عندما أرسل الشاه للغورى رأس خان الأوزبك الذين انتصر عليهم فى توسعه شرقا) ، وبالرغم من الحذر فى سلوك الغورى سواء من حيث عدم المخاطرة بمواجهة عسكرية مع الصفويين أو من حيث عدم مساندة ملك العراق للعودة إلى بلاده بعد استيلاء الشاه عليها فقد ظلت العلاقات تتسم بالتوتر وخاصة بعد أن اتضح اتجاه الصفويين لاستثارة الافرنج ضد المماليك[٦٢].

ولقد أجمعت العديد من المصادر [٦٣] على أن الدولة الصفوية تحت دوافع أطماعها التوسعية وخلافها المذهبى مع الدولتين العثمانية والمملوكية قد تطلعت للتحالف مع الدول الأوروبية ضدهما ، ولقد تبلور ذلك التطلع على ضوء الاتصالات بين الشاه

---

(٦٢) "- Hassanein Rabie: Political Relations between the Safavids of Persia and the Mamluk of Egypt and Syria in the ." Early Sixteenth Century .

فى :المجلة التاريخية المصرية . مج ٢٦ ، ١٩٧٩ ، ص ص ٣٣ - ٤٢ .

(٦٣) د. احمد الخولى :مرجع سابق ، ص ص ٩٠ - ٩٤ .

- د. محمد عبد اللطيف هريدى :مرجع سابق ، ص ٤٥ .

- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ٨٨ .

- د. عبد العليم ابو هيكل :مرجع سابق ، ص٣٠ .

- د. فاروق عثمان اباظة :مرجع سابق ، ص ص٧٠ - ٧٢ .

- أحمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ١٤٤ - ١٤٧ ، ١٥٢- ١٥٣ .

- د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ص٧٠-٧٣

الصفوى والبندقية عقب معركة ديو [٦٤] فقد عرض الشاه أن يتم هجوم الدول الأوروبية على المماليك بحرا بينما يهاجمهم الشاه من جهة البر . وقد وجدت البندقية فى تحالفها مع الصفويين فى فارس[٦٥] تحقيقا لمصالحها التى فشل المماليك فى حمايتها فى مواجهة البرتغال ولكى تستعيد البندقية سيادتها التجارية التى انفردت بها من قبل دون منازع فى القرن ١٥م ٠ وبعد اكتشاف هذه الاتصالات تدهورت العلاقات المملوكية -البندقية. وبقدر ماسعت هذه الأخيرة وغيرها من الدول الأوروبية - كما رأينا- إلى اعادة هذه العلاقات حفاظا على ماتبقى من مصالح تجارية فى مواجهة البرتغال فان الشاه الصفوى بدوره قد حرص من خلال سفارة إلى القاهرة (٩١٨هـ - ١٥١٢م) تبرئة نفسه من تهمة التآمر مع البندقيةولم يكن ذلك إلا نتيجة تزايد التحدى العثماني للصفويين وتوقع الصدام وهو الأمر الذى كان يستلزم من الشاه الحفاظ على الأقل على حياد المماليك ، فى نفس الوقت الذى كان فيه الاقتراب العثماني يخيف المماليك بقدر ماكان يخيفهم تهديد الصفويين ٠

٢-ومنذ ١٥١٢م ومع تولى سليم الأول ، ومن ثم اتضاح ازدياد الاهتمام العثماني بالشرق والجنوب واقتراب الصدام المباشر العثماني الصفوى ، دخلت العلاقات الصفوية المملوكية مرحلة جديدة اختلفت حول تحديد طبيعتها وتفسير أسبابها المصادر التاريخية الأولية والثانوية :هل الحياد بين الصفويين والعثمانيين أم التحالف مع الصفويين ضد العثمانيين[٦٦] ؟ . وأيا كانت حقيقة طبيعة العلاقات فلقد كان لها تأثيرها السلبي على العلاقات المملوكية العثمانية حتى بفرض أنه كان لمصر والشام وضعهما الخاص فى تصور سليم الاستراتيجي ٠ وفى الواقع يمكن أن نميز على ضوء المقارنة بين تحليلات تيار من الأدبيات بين خطوتين انتقل بهما المماليك من الحياد إلى التحالف ٠

---

(٦٤) تشير بعض المصادر إلى هذا الأتصال مع الافرنج بصفة عامة وتحدد البرتغاليين بصفة خاصة (محمود شاكر) فى حين تحدد مصادر أخرى (نقلا عن مصادر أوربية) البندقية بصفة خاصة حيث لم تذكر هذه المصادر (هريدى ، أبو هيكل ، أباظة، دراج) تحالفا صفويا برتغاليا الا بعد سقوط المماليك ، هذا ولم تشر مصادر أخرى (العدوى ، رمضان ، عاشور) إلى مثل هذا التحالف الصفوى الافرنجى ضد المماليك ٠ كذلك أشارت مصادر أخرى (الخولى) -اعتمدت أساسا على مصادر أولية فارسية- إلى الاتصالات الصفوية البندقية البرتغالية على حد سواء قبل ١٥١٧م ٠

(٦٥) سبق للبندقية أن تحالفت مع قبيلة الشاه السوداء برئاسة أوزون حسن ضد السلطان محمد الفاتح التى هددت توسعاته فى آسيا وأوروبا مصالح الطرفين٠

(٦٦) تخلط المصادر الثانوية العربية بين هاتين الحالتين ٠ فتستخدم بعض المصادر وصف الحياد فى حين تستخدم مصادر أخرى وصف التحالف للدلالة على نمط العلاقات فى نفس الفترة ، حيث يكون فى ذهنهم حالة الحياد (قبل جالديران) دون الانتقال إلى بيان الحالة الأخرى (بعد جالديران) . هذا وتجد مصادر أساسية فى دراسة تاريخ المماليك (عاشور) لايذكر أى تفاعل مملوكي صفوى ٠ كذلك فى حين تقتصر مصادر على الاشارة إلى حالة حياد (شاكر) تشير صراحة مصادر أخرى (العدوى ، عبد الرحيم مصطفى ، محمد فريد) إلى حالة التحالف بعد جالديران ٠ كما تشير مصادر أخرى (البحراوي) إلى اتصالات مصرية فارسية فى أوائل قرن ١٦م دون تحديد لتوقيتها أو طبيعتها ٠ وأخيرا القليل من هذه المصادر (عمر عبد العزيز) هو الذى يميز بوضوح بين الحالتين .

فمن ناحية :ووفقا لبعض المصادر [٦٧] وقبل موقعة جالديران اختار الغورى أن يقف على الحياد بين العثمانيين والصفويين حين عرض عليه سليم مشروعه لقتال الصفويين نظرا لاعتقاده أن المماليك سيكونون عونا له في مهمته . وبالطبع كان الموقف المملوكى يعنى فى نظر العثمانيين تقوية لخصومهم الصفويين وحلفائهم من الأوروبيين ، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل إن الغورى – وفقا لرواية بعض المصادر الأولية –[٦٨] اتخذ عدة مواقف أخرى حين بدأ الصدام العسكرى بين الصفويين والعثمانيين فأرسل قواته إلى حلب لمنع وصول الامدادات العثمانية إلى جيش سليم كما أن الغورى قد أرسل رسولا إلى الشاه يطلب مساعدته لقتال سليم . وقد برر تحركاته فى الشام بمحاولة الوساطة بين الطرفين لاقرار السلام بينهم وهو التبرير الذى شك فى صحته سليم .

ومن ناحية أخرى :ووفقا لبعض المصادر أيضا [٦٩]فان تحرك سليم لقتال المماليك كان بسبب تحالفهم والصفويين وامارة ذى القادر ضد العثمانيين بعد معركة جالديران . فكان ضم العثمانيين لامارة ذى القادر ١٥١٥علامة الخطر بالنسبة للغورى والمؤشر على دخول العلاقات بين الطرفين مرحلة حاسمة، الأمر الذى جعله يعقد حلفا مع الشاه اسماعيل الصفوى ليوقف التقدم العثمانى ولذا اتهم العثمانيون المماليك بالتآمر مع الكفار . اذن لماذا هذا الموقف المملوكى؟ :

مما لاشك فيه أن صعود الصفويين كقوة شيعية ماكان ليرضى الغورى – السلطان السنى – إلا أن خوف وقلق المماليك من النمو السريع للقوة العثمانية جعلهم يرون أن نجاح تحدى الصفويين للعثمانيين سيكون فى صالحهم كذلك لم يكن بمقدور المماليك فى هذ المرحلة– بعد هزيمة ديو والضغوط السياسية والاقتصادية لعملية بناء أسطول ثانى – التورط فى هذا الصراع بصورة مباشرة وخاصة مع تزايد الضغط الافرنجى من الشمال والضغط البرتغالى من الجنوب [٧٠] . بعبارة أخرى تغلبت فى هذه المرحلة الحسابات السياسية العاجلة على عوامل التشابه المذهبى أو الحسابات والمصالح

---

(٦٧) محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٨٨ ، ٩٩ .
– د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، صص ٧١ – ٧٢ .
(٦٨) أبى السرور البكرى ، ابن طولون ، الغورى .
(نقلا عن : Hassanein Rabie : op . cit . PP. 43 -44 .
وأنظر أيضا :
–ابراهيم بن عامر :القلائد العثمانية . مرجع سابق ، ص ٣٤ .
(٦٩) محمد فريد :تاريخ الدولة العلية . مرجع سابق ، ص ص ١٩٢ – ١٩٥
– د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ص ٨٠ – ٨٢ .
– د. ابراهيم العدوى :مرجع سابق ، ص ٤٠٥ .
(٧٠) J.Saunders : op . cit . P 35.
Ibid : PP. 52 - 53 .

بعيدة المدى (على ضوء اتصال الصفويين بالاوروبيين أعداء كل من العثمانيين والمماليك) . ولذا ترى بعض المصادر [٧١] أن الغورى كان فى موقف صعب ولم يكن بمقدورة أن يناصر أحد الطرفين علنا ، وكان له عذره حيث لم يكن بوسعه التحالف مع الصفويين الشيعة صراحة فى حين أن مصر هى مركز الخلافة السنية ولذا اكتفى بمواقف ضمنية . هذا وفى حين تشير مصادر عدة إلى التحالف الصفوى المملوكى ، كما رأينا ، فان مصادر أخري [٧٢] تشير إلى فشل المفاوضات السرية بين الطرفين عقب معركة جالديران .

ثالثا :العلاقات العثمانية المملوكية :من التعاون فى مواجهة البرتغال إلى الصدام :

١- كان الغورى فى نطاق جهوده لاعداد قوة بحرية لمواجهة البرتغال بين خيارين إما التعاون مع الصفويين من أجل مساعدة بحرية وهو الأمر الذى كان مستبعداً بسبب التوتر بين الطرفين ، أو قبول مساعدة بايزيد الثانى . وكان لابد وأن يؤكد هذا القبول تفوق العثمانيين على الدولة المملوكية ، بل ويشير إلى احتمال ابتلاع الأخيرة . ولكن ومع تصاعد الخطر البرتغالى (١٥٠٦- ١٥٠٩م) وبعد هزيمة ديو اتخذ الغورى قراره بطلب المساعدة من العثمانيين وكان المماليك يعرفون انه سيكون لها ثمنها السياسي [٧٣] . وبالفعل تم الاتصال بالسلطان العثمانى الذى قدم بلا مقابل ماتحتاجه اعادة بناء الأسطول من أخشاب وأدوات وأسلحة ، كما قدم ألفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الريس الذى تعاون مع حسين الكردى فى الحملة البحرية المصرية الثانية [٧٤] . وبعد معركة جالديران ١٥١٤م وفى حين لم تكن نتائج التعاون المملوكى العثمانى فى البحر الأحمر (٩٢١ - ٩٢٢هـ) (١٥١٥ - ١٥١٦م) قد أثمرت بعد ، أخذت تتجسد مؤشرات الصدام بين المماليك والعثمانيين فقبل أن تبدأ الحملة البحرية الثانية المصرية أدى انتصار السلطان سليم الأول على الشاه الصفوى إلى تحويل انتباه المماليك من الجنوب إلى الشمال حيث أخذت مصر تعد دفاعاتها ضد هجوم من الشمال . وفى حين كان الغورى يحرك قواته إلى الشام كان للطرف العثمانى حساباته تجاه مصر والشام والتى بدأ تنفيذها . فبالرغم من أن موقعة جالديران لم تكن حاسمة بحيث كان لابد وأن يقوم سليم بجولة أخرى إلا أن انسحاب

---

(٧١) د. محمد انيس :مرجع سابق ، ص ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٧٢) محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(٧٣) A. Hess : The Ottoman Seaborne Empire, op . cit , PP . 1907 - 1909.

(٧٤) احمد دراج :مرجع سابق ، ص ص ١٤٨ - ١٤٩.

- محمود ثابت الشاذلى :مرجع سابق .
- بشير أحمد كاظم :مرجع سابق د ص ١٥ - ٢٥ .

- A.Hess : op. cit,. P . 1908.
- P.M.Holt : op . cit, . PP .199 - 200.

سليم من تبريز قبل أن يعاود قتال الصفويين من جديد كان دافعه الاتجاه نحو المماليك فى الشام ومصر . فكانت الحسابات الاستراتيجية العثمانية تشير إلى ضرورة انتهاز فرصة ضعف الصفويين بعد هزيمتهم للانتهاء من المماليك ومن ثم تدعيم النفوذ العثمانى فى الشرق الاسلامى وحسم احتمالات التوسع الصفوى نحو الغرب وحوض المتوسط بصفة عامة ، وهو التوسع الذى كان يمكن أن يهدد بمحاصرة الاتراك العثمانيين فى الأناضول فضلا عن انه كان يهدد الهدف الاستراتيجى الجديد للعثمانيين وهو انهاء الصراع السياسى مع المماليك لتدعيم السيطرة العثمانية على العالم الاسلامى [٧٥] . بعبارة أخرى اذا كانت المصادر العربية التاريخية الأولية المعاصرة لهذه المرحلة (ابن اياس على سبيل المثال) قد عكست تزايد مخاوف المماليك من العثمانيين بعد هزيمة الصفويين ، واذا كانت المصادر التركية المناظرة قد أبرزت الاستعدادت العسكرية لحملة أخرى ضد الصفويين ، إلا أن واقع الأحداث أوضح اتجاها أخر للحركة العثمانية . ولقد أوضحت مصادر تركية المنظور العثمانى لأسباب الحرب مع المماليك وهى مساعدة المماليك لأعداء العثمانيين فى جنوب الأناضول وفى الامارات التركمانية والتحالف مع الكفار ضد المدافعين عن الايمان ، وجميعها أمور تهدد تماسك الامبراطورية العثمانية . وإلى جانب هذه الأبعاد فى النصوص العثمانية ظهرت أبعاد أخرى تتصل بالنزاع بين الدولتين على لقب الخلافة مما يعنى فى مجموعه صراع العثمانيين مع المماليك من أجل الهيمنة والتفوق داخل "الجماعة السياسية المسلمة"[٧٦]

٢ - هذا ولقد اختلفت الأحكام القيمية التى تتضمنها مصادر وأدبيات عدة حول مغزى الصدام العثمانى المملوكى فى معركة مرج دابق ثم الريدانية والتى انتهى معهما عصر دولة المماليك . فتحمل بعض التحليلات [٧٧] فى طياتها نظرة شك لعدم صدق نوايا العثمانيين تجاه المماليك واتهاما لهم بالتصميم على الاستيلاء على مصر

---

(٧٥) د. وجيه الكوثرانى :مرجع سابق ، ص ٥٢ .
- د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ٧١ .

- J. Saunders : op. cit, P. 53.
- P.M.Holt : op . cit,. P. 200.

(٧٦) أنظر النقل عن هذه المصادر فى :
A.Hess : The Ottoman Conquest of Egypt, op.cit,.PP . 86 -70.

(٧٧) أنظر على سبيل المثال :
- د. مصطفى رمضان :مرجع سابق ، ص ٨٩ .
- د. محمد عبد اللطيف البحراوى :مرجع سابق .
- د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الأيوبيون والمماليك .. مرجع سابق ، ص ص٣٣٥ - ٣٣٨ .
- الشاطر البصيلى عبد الجليل :الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال فى المحيط الهندى وشرق افريقيا والبحر الأحمر ، مجلة الدراسات التاريخية ، مجلد ١٢ ، ١٩٦٤ - ١٩٦٥ ، صص ١٣٣ - ١٤٣.

والشام بدلا من تقديم المساعدة للمماليك في أزمتهم وسعيا في المقام الأول لتحقيق مصالحهم وأطماعهم وليس صالح الإسلام . وفي المقابل تحمل تحليلات أخري[٧٨] توجهات عكسية فهي من ناحية تدين المماليك بعدم حسن التصرف وبرفضهم السماح للعثمانيين بدخول بلادهم للوقوف في وجه البرتغال (اشارة إلى خطاب سليم للغوري الذي طلب منه قبول الطاعة له وهو الأمر الذي رفضه الغوري) وهي من ناحية أخرى تبرر عدم مقاومة الشام للعثمانيين وترحيب أهلها بهم حيث نظروا اليهم نظرة احترام بسبب حروبهم في أوروبا ومع الدولة الصفوية واستعدادهم لمنازلة البرتغاليين .

وعلى ضوء التحليل السابق كله يبقى القول بأنه يمكن النظر للقضية بمنظار أخر محوره كيفية حماية مصالح العالم الاسلامي على ضوء طبيعة توازنات القوى الإسلامية – الإسلامية ، وبين المسلمين وغير المسلمين في نهاية العقد الثاني من القرن١٠هـ – ١٦م ، وفي هذا الصدد يمكن أن نورد الملاحظات التالية :

أ- لم يكن بوسع المماليك – على ضوء الأوضاع السياسية والاقتصادية التي ألمت بهم – الاستمرار في مقاومة البرتغاليين وحتى القضاء على خطرهم . ومن ثم لم يكن تحرك العثمانيين ضدهم أو عدم تقديم المساعدة لهم هو الذي قضى على أمل الغوري بهذا الصدد ، كما تقول بذلك بعض المصادر [٧٩]. فلقد وصلت الأوضاع الداخلية درجة كبيرة من السوء والتدهور تحت تأثير خسارة تحول التجارة العالمية وضغط ونفقات الحرب مع البرتغاليين وأعمال القرصنة الأوروبية من الشمال . وقد أحكمت هذه الأوضاع حلقة أسباب الضعف والوهن الذي أصابت الدولة المملوكية خلال القرن الأخير من حياتها والذي حد من قدرتها على القيام بدورها المركزي في العالم الاسلامي والذي قامت به خلال القرنين الأول من حياتها [٨٠] .

ب – كان اشتداد الخطر البرتغالي والتحالف البرتغالي الافرنجي بصفة عامة يقتضي منذ أوائل القرن ١٠هـ تكاتف الدول الإسلامية الكبرى (الصفويه – المملوكية –

---

(٧٨) أنظر على سبيل المثال :
– محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ص ٩٠– ٩١
(٧٩) الشاطر البصيلي عبد الجليل :مرجع سابق ، ص ١٣٣ .
(٨٠) حول المزيد من التفاصيل عن هذه الأوضاع والأسباب المتراكمة لسقوط المماليك أنظر :
– د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مرجع سابق ، ص ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .
– د. فاروق عثمان اباظة :مرجع سابق ، ص ص ٣٦ –٦٧ .
– د. علي عبد العليم ابو هيكل :مرجع سابق ، ص ص ٢٨ – ٢٩ .
– جورج كيرك :مرجع سابق ، ص ص ٨١٢ – ٨٢ .
- P.M.Holt : op . cit , PP. 198 - 199 .
- G. Hogdson : op. cit,. PP. 418 - 422 .

العثمانية) لمواجهة هذا الخطر ، وهو الأمر الذى لم يحدث . وكان على أكثر هذه الدول قوة التحرك للقيام بأعباء هذه المواجهة ولو على حساب اعادة تشكيل توازنات القوى الإسلامية . لذا نجد أن العثمانيين قد اتجهوا ، فى البداية ، مع بايزيد وعند انشغالهم بقتال الشيعة فى الأناضول إلى مساعدة المماليك فى جهادهم ضد البرتغاليين . وحين فشل المماليك فى نفس الوقت الذى انتهى فيه الصدام العثمانى مع الصفويين ولو على نحو لم يقض على قوة الصفويين تماما كان على العثمانيين التحرك على نحو يحقق عدة أهداف :تأمين ملكهم من خطر الصفويين والمحافظة على تجارة الشرق الغنية ،تأمين البحر الأحمر ونشر نفوذهم فى المحيط الهندى والخليج العربى لتطويق الصفويين وحرمانهم من التعاون مع الأوروبيين . وكانت الحركة التى تحقق هذه الأهداف هى ضم الشام ثم مصر باعتبارهما فى نظر العثمانيين الخطوة الأساسية لتكوين جبهة اسلامية موحدة ضد الأخطار المشتركة .

ج - ولذا يمكن القول انه لم يكن صحيحا ماذكرته بعض التحليلات [81] من أن تدخل العثمانيين فى المنطقة لملء الفراغ العسكرى بعد ضعف المماليك كان لمصلحة العثمانيين فقط وليس فى مصلحة الإسلام ، فقد كان ملء هذا الفراغ بواسطة العثمانيين هو حماية للاسلام وليس حماية لمصالح العثمانيين فقط . بعبارة أخرى فان هذا الوضع قد شهد تطابقا بين حماية العالم الاسلامى وبين تصور أقوى الدول الإسلامية فى ذلك الوقت لاستراتيجيتها وحماية مصالحها .

د - ومن ثم فانه مهما كانت صحة المبررات التى وضعها العثمانيون لتبرير محاربة المماليك ، ومهما كانت حقيقة صدق نوايا سليم تجاه الغورى من عدمه (وذلك حين حرك قواته ١٥١٦م وهل كانت لقتال المماليك أو الصفويين ، وكذلك خلال المفاوضات التى عقدت بينهما من أجل عقد صلح قبل موقعة مرج دابق)، ومهما كانت صحة ما اذا كان سليم كان مقررا غزو مصر بالفعل بعد أن فرض سيطرته على الشام (على أساس أن ضم الشام قد حطم التحالف الصفوى المملوكى ، ووضع حاجزاً بين الدولتين العثمانية والمملوكية) ومهما كانت حقيقة أسباب عدم نجاح التفاوض حول الصلح بين سليم وبين طومان باى وما اذا كان سليم ينوى بالفعل ترك طومان باى يحكم مصر كنائب له ، ومن ثم لايغزو مصر ، اذا قبل المماليك اعلان الطاعة له والاعتراف بالسيادة العثمانية ، مهما كانت حقيقة هذه

---

(٨١) أنظر على سبيل المثال :

- د. مصطفى رمضان :مرجع سابق ، ص ص ٨٩ - ٩٠ .

الأبعاد جميعها التي تختلف حولها التحليلات (٨٢) . فانها جميعا من قبيل التفصيلات التى لايمكن أن تخفى عدة حقائق أساسية مترابطة تتصل بأبعاد العلاقة بين كيفية اعادة تشكيل توازن القوى الإسلامية وبين عامل الخطر الخارجى على العالم الاسلامى . وتتلخص هذه الحقائق فى تدهور أحوال المماليك الذى شجع العثمانيين على الاستيلاء على الدولة المملوكية وخاصة بعد أن اتخذت موقف الحياد ازاء الصراع العثمانى الصفوى ، وكان ذلك الاستيلاء يحقق مصالح عثمانية واسلامية عليا بعد أن لم يعد بمقدور المماليك مواجهة أوروبا الجديدة أو القوة الصفوية الشيعية ، وبعد أن لم يعد بمقدور العثمانيين الانصراف من جديد إلى توسعاتهم فى أوروبا مع استمرار هذه الحالة غير المستقرة فى قلب العالم الاسلامى جنوب وشرق الأراضى العثمانية ، وبدون حسم موقف ووضع الدولة العثمانية من القوى الإسلامية الأخرى .

بعبارة أخرى : اذا كان هذا التحرك العثمانى نحو الجنوب قد أثار على صعيد العلاقات الدولية الإسلامية كل اشكاليات تحقيق وحدة العالم الاسلامى عن طريق الضم ، فان هذه الحالة التى تعد نمطا طبيعيا من الممارسات فى هذه المرحلة من النظام الدولى كان لها مبراراتها ودوافعها وأهدافها والعوامل التى ساعدت على نجاحها على نحو يبرز بدرجه هامة أثر عامل الخطر الخارجى على العلاقات الإسلامية - الإسلامية، كما يبرز حتمية وضرورة التعاقب فى مراكز القوة الإسلامية التى تقدر على تحمل أعباء قيادة العالم الاسلامى فى مواجهة أعدائه ، كذلك فان هذا التوسع أو الضم العثمانى لم يكن بديلا سيئا طالما أن البديل القادر على التصدى لما هو أسوأ بالنسبة للاسلام كان غير قائم ، بل لعل هذا التوسع كان بديلا مقبولا . حيث تشير بعض المصادر (٨٣) إلى ترحيب أهل الشام بالسلطان سليم كذلك فان مؤرخ هذا العصر ابن اياس قد رأى تملك سليم لمصر كمجرد انتصار عاهل روحى على آخر ، فهل كان هذا التكييف الذى يعكس عدم اعتراف بتغيير أساسى ترتب على تغلب العثمانيين ، هل كان هذا التكييف التباسا أم كان اعترافا بالاستمرارية والتواصل عبر

---

(٨٢) انظر التفاصيل نقلا عن مصادر اولية وخاصة ابن اياس فى :
- د. سعيد عبد الفتاح عاشور :مرجع سابق ، ص ص ٣٣٥ - ٣٤٠ .
- د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ص ٧٤ - ٨٠
- محمد فريد :مرجع سابق ، ص ص ١٩٢ - ١٩٥ .
- محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ص ١٣٣ - ١٣٨ .

-J.Saunders : op. cit, P . 53.
·-P.M.Holt : op. cit,. PP. 200 - 202 .

سياق تاريخى طويل ؟ . وهل يزول هذا الالتباس حين يقرر ابن اياس بعد ذلك أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر اعظم السلاطين (٨٤) ؟ .

ولذا فانه عند النظر فى مسألة التحول فى التوسع العثمانى نحو الجنوب لايمكن أن نكتفى بتفسير أحادى الأبعاد ولايمكن أن نكتفى بتفسيرات مؤرخ مثل أرنولد توينبى والتى ترجع هذا التحول إلى ظهور الشيعة الصفوية وتعتبر الغزو العثمانى للشام ومصر مجرد حلقة من حلقات الصراع السنى الشيعى بين قوتين ذواتا اصل ايرانى ، كذلك لايمكن أن نكتفى بالرؤية المنتقدة لأسس هذا التفسير والتى تركز على أساس آخر هو شخصية سليم الأول وأثرها على التصور التقليدى العثمانى لحدود الامبراطورية العثمانية (٨٥) ، كذلك لايمكن أن نكتفى بالتفسير القومى الضيق الذى يرى فى التوسع العثمانى تغلبا للعنصر التركى على العربى ، والذى تنطلق اتهاماته من نفور شديد من التاريخ العثمانى الذى لم يلعب فيه العرب إلا دوراً ثانوياً والذى اعتبر ظهور الأتراك فى المنطقة عقبة فى سبيل ازدهار الحضارة العربية الإسلامية مثلما حدث الحضارة الأوروبية . ولقد اينعت هذه التفسيرات القومية فى الدول العربية التى قامت على انقاض الامبراطورية العثمانية (٨٦) .

كذلك لايكفى الأخذ بأحد الاجتهادات المختلفة التى ركز على كل منها بمفرده أو بعض منها، المؤرخون على اختلافهم مثل صعوبة التوسع فى أوروبا والعداء للشيعة والتصدى لاطماع البرتغال وجعل البحر المتوسط بحيرة اسلامية وتأديب الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى المتوسط الذين كانوا يهددون الأسطول العثمانى فى هذا البحر وكذلك سلامة الدول العربية ، حيث أنه يوجد على كل اجتهاد منها بمفرده تحفظ ماينقده (٨٧) . وهكذا فان التفسير الأصوب هو مايأخذ فى الاعتبار بدرجات متنوعة

---

(٨٣) د. عمر عبد العزيز :مرجع سابق ، ص ٧٥ .
- محمود شاكر :مرجع سابق ، ص ٩٠ .
- محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ .
- د. سيار الجميل :مرجع سابق ، ص ص ٣٦١ - ٣٦٢ .(نقلا عن الشيخ قطب الدين النهروالي)

(٨٤) خالد زيادة " :من المماليك إلى العثمانيين . الفقيه فى مرحلة الانتقال بين عصرين "، مجلة الاجتهاد ، ص ١٦٨. (نقلا عن ابن اياس ، ج٥.، ص ١٥١)

(٨٥) أنظر هذه الأسس وانتقاداتها فى :
- محمد عبد المنعم الواقد :مرجع سابق ، ص ص ١٠٨- ١١٨ .
- د. محمد أنيس :مرجع سابق ، ص ص ١٠٧-١٠٨.

(٨٦) أنظر على سبيل المثال :
- د. احمد عبد الرحيم مصطفى :مرجع سابق ، ص ٨ .

(٨٧) انظر تحليلا موجزا لهذه الاجتهادات المختلفة والمردود عليها فى :
-د. رأفت الغنيمى الشيخ :تاريخ العرب الحديث المعاصر ، دار الثقافة ، القاهرة١٤٠٧ - ١٩٨٦، ص ص ٣٣ - ٤١ .
- د. محمد أنيس :مرجع سابق ، ص ص ١٠٢ - ١٠٣ .

ومتكاملة فى نفس الوقت مختلف هذه الأسباب ولكن مع التمييز بين التوجهات والأهداف الاستراتيجية العثمانية من ناحية ، وبين العوامل المبرِّرة لهذا التوسع من ناحية أخرى وبين العوامل والظروف التي هيأت نجاحه من ناحية ثالثة .

فمن ناحية :لاشك أن الدولة العثمانية بعد مرحلة التوسع الأوروبى كانت قد وصلت إلى مرحلة من القوة التى كان لابد وأن تنعكس فى شكل توجهات وأهداف استراتيجية جديدة ذات نطاق عالمي وليس اقليمى فقط ، وكان ضم الدول العربية فى ظل المعطيات الأوروبية والعربية والإسلامية يحقق هذه الأهداف والتى كان فيها أيضا تدعيما لمصالح المواجهة بين العالم الاسلامى والغير .

وكان من أهم هذه الأهداف تدعيم القوة الاقتصادية التى ترتكز عليها المشروعات الحربية المستقبلية ومن ثم احكام السيطرة على الطرق البحرية والبرية للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وهو الأمر الذى كان يفرض التصدى للبرتغاليين وكسر حصارهم البحرى على الشواطىء العربية والإسلامية وحماية الجناح الجنوبى للامبراطورية من خطر الالتفاف الأوروبى الجديد وخطر القوة الشيعية الصاعدة التى تسعى بدورها للسيطرة على العالم العربى الاسلامى . وحيث كانت جميع الأهداف السابقة تخدم هدفاً استراتيجياً أعلى وهو استمرار التوسع فى أوروبا على أسس جديدة من ناحية والقيام بدور القوة الإسلامية الأولى ومن ثم تكوين امبراطورية عثمانية تسيطرعلى الشرق والغرب من ناحية أخري [٨٨] . ولقد أكمل تحقيق هذا الهدف سليمان القانونى ابن سليم الأول فى الربع الأخير من القرن ١٦م – كما سنرى – وكان الضم العثمانى للمشرق العربى الاسلامى نقطة تحول اساسية فى طبيعة قوة ودور الدولة العثمانية حيث انتقلت من مرحلة الدور الاقليمى إلى بداية الدور العالمى والانفراد بدور الجهاد دفاعا عن الاسلام.

ومن ناحية أخرى :كان ظهور القوة الصفوية الشيعية واحتمالات التحالف المملوكى معها من أهـــم المبررات التى استندت اليها الدولة العثمانية لتبرير توسعها فى الجنوب . اذ أنه بخلاف أسباب الصراع السياسى مع المماليك وأسباب الصراع مع الصفويين والسابق توضيحها فان الدولة العثمانية قد أدركت حيوية وضرورة اكتساب شرعية سياسية جديدة تعطى لها السلطة الكافية لقيادة العالم الاسلامى ولتحقيق الاستقرار فى أرجاء الدولة العثمانية ذاتها . وقد أدى تعدد حروب الحدود مع الأقاليم التركمانية أو مع الدول الإسلامية الأخرى (الصفويين ، المماليك) أثارت التساؤلات حول وضع القوة العثمانية على خريطة القوة السياسية الإسلامية ومن ثم كان لابد

---

٨٨) أنظر التفاصيل فى :

محمد عبد المنعم الراقد :مرجع سابق ، ص ص ١١٨– ١٣٣ .

للعثمانيين ، واتساقا مع قوتهم المتطورة ، أن يسعوا لتدعيم وتأكيد دورهم القيادى المنفرد فى العالم الاسلامي [٨٩] .

ومن ناحية ثالثة :ساعدت مجموعة من العوامل على تحقيق الأهداف العثمانية وكان على رأس هذه العوامل تدهور أحوال المماليك ، كذلك كان هناك عامل التفوق البحرى العثمانى الذى تبلور وتحقق تدريجيا منذ نهاية القرن ١٥م وحتى تأكدمع بداية القرن ١٦م بحيث أضحت الدولة المملوكية محصورة بين قوتين بحريتين : البرتغالية فى الجنوب والعثمانية فى الشمال . ولقد لعبت القوة البحرية العثمانية دورها فى حسابات سليم وفى تنفيذه لخطته تجاه المماليك والصفويين على حد سواء ومن ثم كان لها تأثيرها المباشر على مصير هذه المنطقة [٩٠] .

كذلك كان هناك عامل التفوق العسكرى العثمانى بسبب حيازة العثمانيين للأسلحة النارية المتقدمة خاصة المدفعية والتى لم يكن يحوزها المماليك الذين استمروا فى الاعتماد على الخيول والسيوف والرماح متخلفين فى ذلك عن مواكبة الأساليب الحديثة فى تنظيم الجيوش وفى تسليحها، وهى الأساليب التى أخذ بها العثمانيون وكانت تمثل عنصر قوة فى الجيوش الأوروبية فى نفس الوقت بحيث أضحت من عوامل تغيير موازين القوى العثمانية الأوروبية مع بداية القرن ١١هـ ، ١٧م . هذا وقد وصلت بعض المصادر [٩١] إلى درجة اعطاء أولوية كبيرة لتأثير عامل الأسلحة النارية لدرجة القول بأنها كانت عاملاً حاسماً فى تشكيل مصير غرب آسيا ومصر لمدة أربعة قرون منذ ١٥١٧م على أساس أنه بدون هذه الأسلحة ، وبالرغم من اجتماع تأثير ظهور الصفويين ، وضعف المماليك والهجمة الأوروبية الجديدة ، ماكان الغزو العثمانى للدول العربية سيصبح ممكنا ، ولأن استخدام هذه الأسلحة بنجاح ضد الصفويين هو الذى أضعفهم لدرجة مكنت العثمانيين من الاتجاه نحو المماليك .

ومن العوامل المساعدة الأخرى والتى تغيرت بعد ذلك بعمق خلال القرنين الأخيرين من عمر الدولة العثمانية هو عدم تدخل طرف خارجى من الدول الأوروبية غير المسلمة لمنع امتداد هذا النفوذ العثمانى الجديد سواء بعمل مباشر (تدعيم الحركة البرتغالية أو الممالك الاوروبية الاخرى فى المتوسط وخاصة أسبانيا)أو غير مباشر

---

(٨٩) -A. Hess : The Ottoman Conquest ..., op. cit.. P 70

(٩٠) - A. Hess : The Ottman Seaborne ..., op.cit .PP . 1905- 1907.

(٩١) J. Saunders : op. cit. pp . 45 - 47 -

(نقلا عن دراسة شهيرة لأستاذ فى جامعة القدس العبرية عن أثر الأسلحة الحربية الحديثة على سياسات الشرق الأوسط فى بداية القرن ١٦م)

عن طريق فتح الجبهة الأوروبية من جديد وهى الجبهة التى كان قد تم تسكينها من
لأعوام الأخيرة لحكم بايزيد الثاني والتى حرص سليم الاول على تجميدها أيضا حتى
عاد سليمان القانونى فتحها) .اذن كيف يمكن أن نفهم رد الفعل السلبى الأوروبى
تجاه هذا الحدث الخطر الذى كان يعنى استبدال ضعف المماليك بقوة العثمانيين فى
عملية مواجهة الهجمة الأوروبية الجديدة ؟ . يرجع هذا فى جانب كبير منه [٩٢]إلى
طبيعة المرحلة الانتقالية التى كانت تمر بها المجتمعات والنظم الأوربية وتوازنات القوى
الأوروبية فبالرغم من أن التطور اللاحق لنظم الدول القومية الأوروبية ولد هياكل
بتنظيمات أكثر قوة من الامبراطورية العثمانية إلا أن الصراعات داخل الدول الأوروبية
المتطورة وفيما بينها فى بداية القرن ١٦م قد حدت من قدرتها على التنافس مع
العثمانيين بل واستطاع العثمانيون طوال القرن ١٦م أن يستغلوا هذه الصراعات
الأوضاع على نحو أحدث انقلابا فى السياسات الدولية كما سنرى فى الجزء التالى .

---

(٩٢) -A. Hess : The Ottoman Conquest ... op.cit. P. 57,72- 76.

وأنظر مزيد من التفاصيل عن أوضاع الطرف الأوروبى فى هذه المرحلة فى :

- هـ .أ. فيشر :مرجع سابق .

المراجع

أولاً المراجع العربية :-

١- الكتب العربية

١- إبتسام مرعى خلف الله ، العلاقة بين الخلافة الموحدية والشرق الإسلامى (٥٢٤ هـ - ٩٣٦م) (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥)

٢- د. إبراهيم العدوى ، تاريخ الإسلام وأبعاده السياسية .

٣- د. إبراهيم شحاته حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية (١٥١٠ - ١٩٤٧) (الأسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨١) .

٤- د. إبراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧م) (القاهرة : النهضة العربية ، ١٩٦٠) .

٥- ابن حجر العسقلانى ، أنباه الغمر بأنباء أبناء العمر ، الجزء الأول (٧٧٣هـ - ٧٩٩هـ) ، ط٢، د ت ، د ن .

٦- أبو العباس أحمد القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الأنشا (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م) ١٤ جزء .

٧- أبو الفداء إسماعيل ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ (القاهرة ، مطبعة السعادة ، د ت) .

٨- د. أجمد الخولى ، الدولة الصفوية ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١م) .

٩- أحمد دراج ، المماليك والافرنج فى القرن ٩هـ - الخامس عشر الميلادى (القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٦١) .

١٠- د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى (القاهرة : دار الشروق ، ط ١، ١٩٨٢) .

١١- د. أحمد عبد الكريم سليمان ، تيمورلنك ودولة المماليك الشراكسة (القاهرة: دار النهضة العربية ، ط ١ ، ١٩٨٥) .

١٢- د. أحمد محمود الساداتى ، تاريخ الدولة الإسلامية بآسيا وحضاراتها (القاهرة : مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٧) .

١٣- د.أحمد مختار العبادى ، د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام (جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٢) .

١٤- ———— دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (الأسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، د. ت) .

١٥- آرنست باركر ، آثار الحروب الصليبية .
١٦- أرنولد توينبى ، العالم الإسلامى والغرب (بيروت : منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ، ط ١ ، ١٩٦٠) .
١٧- الشيخ إبراهيم بن عامر بن على المالكى ، قلائد العقيان فى مفاخر آل عثمان ، طبع بمصر ، ١٣١٧ هـ .
١٨- أمين شاكر ، سعيد العريان ، محمد مصطفى عطا ، تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٥) .
١٩- أنطونيو دوميتقيز هورتز ، برنارد بنثنيت ، تاريخ مسلمى الأندلس (الموريسكيون) : حياة ومأساة أقلية ، ترجمة عبد العال صالح طه ، تقديم محمد محيى الدين الأصفر (الدوحة : دار الاشراق، ط ١ ، ١٤٠٨ - ١٩٨٨).
٢٠- بارتولد تشبولر ، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد أسعد عيسى (دمشق : دار حسان ، ١٤٠٢ - ١٩٨٢) .
٢١- بدر الدين محمود العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧) ج ١، ج٢ .
٢٢- برنارد لويس : " السياسة والحرب فى الإسلام " فى : شاخت وبوزورث ، تراث الإسلام ، ترجمة محمد زهير ، عالم المعرفة ، أغسطس ١٩٧٨ .
٢٣- برتولد شبولد ، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد أسعد عيسى ، مراجعة وتقديم د. سهيل زكار (دمشق : دار حسان ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢) .
٢٤- د. بديع جمعة ، د. أحمد الخولى ، تاريخ الصفويين وحضارتهم (الجزء الأول) (بيروت : دار الرائد العربى ، ط ١ ، ١٩٧٦) .
٢٥- بشير حمود كاظم ، التهديد البرتغالى لتجارة البحر الأحمر .
٢٦- تلخيص التاريخ العثمانى ، تعريب شاكر الحنبلى (القاهرة : المكتبة الهاشمية ، ١٣٣١ هـ) .
٢٧- توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى (القاهرة : النهضة المصرية ، ١٩٧٠) .

٢٨- د. توفيق اسكندر ، سفارة بييرو دييدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ، تاريخ مصر فى محفوظات البندقية ، وثائق غير منشورة ، السلسة الأولى ، المعاهدات رقم ١ (القاهرة : مكتبة ومطبعة المصرى ، ١٩٥٦) .

٢٩- د. جمال الدين الشيال ، التاريخ الإسلامى ،أثره فى الفكر التاريخى الأوروبى فى عصر النهضة (بيروت : دار الثقافة ، د. ت .) .

٣٠- جورج كيرك ، موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر ، ترجمة عمر الإسكندرى (القاهرة : مركز كتب الشرق الأوسط ، ١٩٥٧) .

٣١- حسن لبيب ، تاريخ الأتراك العثمانيين (القاهرة : مطبعة الواعظ ، ١٩١٧) .

٣٢- حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث (القاهرة : مطبعة حجازى ، ط ٢ ، ١٩٣٨)

٣٣- خالد زيادة ، من المماليك إلى العثمانيين : الفقيه فى مرحلة الإنتقال بين عصرين ، مجلة الاجتهاد .

٣٤- د. رأفت الغنيمى الشيخ ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر (القاهرة : دار الثقافة ، ١٤٠٧ - ١٩٨٦) .

٣٥- د. رجب محمد عبد الحليم ، إنتشار الإسلام بين المغول (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٦) .

٣٦- ———————— العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٥) .

٣٧- د. رياض زاهر ، شمال إفريقيا فى العصر الحديث (القاهرة : الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧) .

٣٨- زيادة أبو غنيمة ، جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك (عمان : دار الفرقان ، د ت) .

٣٩- ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٢، ١٩٦٠).

٤٠- د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته (القاهرة : عالم الكتب ، ط١، ١٩٨٧).
٤١- ———————— العصر المملوكى فى مصر والشام (القاهرة: دار النهضة العربية، ط ٢ ، ١٩٧٦) ج ٧ .
٤٢- ———————— مصر فى عهد دولة المماليك البحرية (القاهرة : النهضة المصرية، ١٩٥٩) .
٤٣- ———————— الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام (القاهرة : دار النهضة العربية ، د ت) .
٤٤- د. سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث (بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٩) .
٤٥- د. سيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ (القاهرة : منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، ط ٣ ، ١٩٧٨) .
٤٦- شكيب أرسلان ، خلاصة تاريخ الأندلس (بيروت : منشورات دار مكتبة الحياه ، ١٤٠٣ - ١٩٨٣) .
٤٧- شوقى أبو خليل ، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامى (دمشق: دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٨٨).
٤٨- د. صلاح العقاد ، المغرب فى بداية العصور الحديثة (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية - ١٩٦٣) .
٤٩- عادل سعيد البشتاوى ، الأندلسيون المواركة : دارسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة (القاهرة : د ن ، ط ١ ، ١٩٨٣) .
٥٠- د. عبد العزيز محمود عبد الدايم ، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة فى مياه المتوسط . فى رءوف عباس (محرر) : مصر وعالم البحر المتوسط (القاهرة : دار الفكر للدرسات والنشر والتوزيع ، ط١، ١٩٨٦) .
٥١- د. عبد العليم أبو هيكل ، المشرق العربى من السيادة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى (القاهرة : دار الثقافة العربية ، د ت) .
٥٢- د. عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (بيروت : مكتبة الجامعة العربية ، ط ١ ، ١٩٦٦) .
٥٣- ———————— ، نظم دولة سلاطين المماليك فى مصر (القاهرة : الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٩) .

٥٤- د. عصام عبد الرءوف الفقى ، الدولة الإسلامية المستقلة فى الشرق (القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٨٧) .
٥٥- عطا الله جليان الإسلام وأبعاد الغزو الأوروبى (بيروت : مؤسسة دار الكتاب الحديث ، ط ١ ، ١٩٨٦) .
٥٦- د. على حون ، العثمانيون والروس (بيروت : المكتب الإسلامى ، ١٩٨٢).
٥٧- د. عمر عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربى (١٥١٦م - ١٩٢٢م) (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٤) .
٥٨- د. فاروق عثمان أباظة ، أثر تحول طرق التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن ١٦م (القاهرة : دار المعارف - ١٩٨٤) .
٥٩- د. فايد حامد عاشور ، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك فى الدولة المملوكية الأولى (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٤) .
٦٠- ف . بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزه طاهر ، ط ٥ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣) .
٦١- ــــــــــ ، تاريخ الحضارة الإسلامية ترجمة حمزه طاهر (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٢) .
٦٢- كلود كاهان ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام وحتى بداية الإمبراطورية العثمانية (بيروت، دار الحقيقة ، ط ٣ ، ١٩٨٣) .
٦٣- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية " الإتراك العثمانيين وحضارتهم " ، الجزء الثالث ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكى (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٤٩) .
٦٤- ل . أ . سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبى ، ١٩٤٨) .
٦٥- د. محمد السيد سليم ، العلاقات بين الدول الإسلامية (الرياض : منشورات جامعة الملك سعود ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م) .
٦٦- د. محمد أنيس ، الدولة العثمانية والمشرق العربى (القاهرة : الإنجلو المصرية ، ١٩٨١).
٦٧ - محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب (دار الغرب الإسلامى ، ط٢ ، ١٩٨٢) .
٦٨- د. محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر (القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٤٧).

٦٩- محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني (بيروت : مطبعة مكتب صادر ، ١٩٥٢) .
٧٠- د. محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن وإنتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر (القاهرة : دار التراث ، ط ، ١٣٩٩ - ١٩٧٩) .
٧١- د. محمد عبد اللطيف هريدي ، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنحسار المد الإسلامي عن أوروبا (القاهرة : دار الصحوة للنشر ، ط ١، ١٤٠٨ - ١٩٨٧) .
٧٢- محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، ط ١ ، ١٩٢٩ .
٧٣- ————— ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩) .
٧٤- محمد عبد المنعم الواقد ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي (الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، د ت) .
٧٥- محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقي (بيروت: دار النفائس ، ط ٤ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨) .
٧٦- محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة وتقديم د. أحمد السعيد سليمان (القاهرة : دار الكاتب العربي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٦٧) .
٧٧- د. محمد كمال شبانة ، يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة (٧٣٣هـ - ٧٥٥هـ) (القاهرة : البيان العربي ، ١٩٦٩).
٧٨- محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي (٦٥٦هـ - ٩٢٢هـ) (بيروت، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) .
٧٩- د. محمد مصطفى رمضان ، العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، الجزء الأول (القاهرة : مطبعة الجبلاوي ، ١٤٠٥ - ١٩٨٦) .
٨٠- د. محمد مصطفى زيادة ، المحاولات الحربية للإستيلاء على جزيرة رودس.
٨١- محمود ثابت الشاذلي ، المسألة الشرقية دراسة وثائقية في الخلافة العثمانية (١٢٩٩ - ١٩٢٣) (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م) .
٨٢- محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ج٤.

٨٣- محمود شاكر ، الكشوف الجغرافية : دوافعها . حقيقتها (بيروت ، منشورات المكتب الإسلامى ، ١٣٩٢ - ١٩٧٣) .
٨٤- محمود عنان ، مؤرخو مصر الإسلامية فى القرن ١٥م .
٨٥- د. نعمان الطيب سليمان ، جهود المماليك فى تصفية الوجود الصليبى والمغولى (القاهرة : مطبعة الأمانة ، ١٩٨٤) .
٨٦- د. نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى (القاهرة : النهضة المصرية ، ١٩٦١) .
٨٧- د. وجيه كوثرانى ، الفقيه والسلطان : دراسة فى تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية والقاجارية (القاهرة : المركز العربى الدولى ، ١٩٩٠) .
٨٨- د. وفاء محمد على ، جهود المماليك الحربية ضد الصليبية والمغول (القاهرة: د ن ، ط ١ ، ١٩٨٥) .
٨٩- وليم بوير، تاريخ دولة المماليك فى مصر ١٢٦٠ - ١٥١٧ . ترجمة محمود عابدين وسليم حسن (مصر : مطبعة المعارف بالفجالة ، ط ١ ، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) .

٢- الدوريات العربية

١- د. إبراهيم على طرخان ، الإسلام والممالك الأسبانية بالحبشة فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩ .
٢- الشاطر البصيلى عبد الجليل ، الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال فى المحيط الهندى وشرق إفريقيا والبحر الأحمر ، مجلة الدراسات التاريخية مجلد ١٢، ١٩٦٤ - ١٩٦٥ .
٣- د. حسنين ربيع ، بحر الحجاز فى العصور الوسطى ، مجلة كلية العلوم الإجتماعية ، عدد ١ ، ١٣٧٩ هـ .
٤- د. عبد الجليل التميمى ، العلاقات العربية - العثمانية بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣م ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد ١، ٢ .
٥- د. عبد العزيز الأهوانى ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (٨٤٤ هـ) ، مجلة كلية لأداب ، جامعة القاهرة ، المجلد السادس الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ .
٦- د. مختار العبادى ، دولة سلاطين المماليك الأتراك فى الهند ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢، ١٩٦٤ - ١٩٦٥ .

ثانيا المراجع الأجنبية : -

١ - الكتب الأجنبية

1-Arnold Toynbee, The Ottoman Empire's Place in World History . in: Kemal Karpat (ed) the Ottoman State and its Place in world History (Leiden, E.G.Brill , 1974)

2- Aziz Swial Atiya , The Crusade in the later Middle Ages (Methuen, London, 1938) .

3- Bernard Lewis, Arabs in Elipse .

4 -__________ , Arabs in History .

5-__________ , Islam in History (Alcore Press., London) .

6- B. Spuler, "Central Asia from the 16 th Century to the Russian Conqiests" , in : P.M.Holt et ,al., The Cambridge History of Islam Vol.1; The Central Islamic Lands , (Cambridge university Press, 1970).

7- Edward Creasy , History of the Ottoman Turks.(Khayats, Beirut1968) .

8- E . Mortimer, Faith and Power; The Politics of Islam .

9- Erich W.Bethman, Bridge to Islam, (George Allan . Unwin Ltd. Universal, London) .

10- Goel Carmichael , the Shaping of The Arabs (George Allan and Unwin Ltd ., London . 1967) .

11- H.J.Kissling & F.R.G.Bagley , the Ottoman Empire to 1774 , in : H.J.Kissling et . al . (eds) , the Muslim Wold (III) . The last Great Muslim Empires (Brill, Leiden E , J. 1969) .

12- J.Glubb, The Lost Centuries : From the Muslims Empires to the Renaissance of Europe (1145- 1453) .(Holder and Stoughton) .

13- J.Saunders (ed.), The Muslim World on The Eve of Europe Expansion (Prentice Hall, N.J., 1966) .

14- J.Thayer Addisson , The Christian Approach to the Muslim (Colombia University Press, New York, 1942) .

15- Landan Rom, Islam and the Arabs (George Allen, London. 1958)

16- M.G.Hodgson, The Venture of Islam (University of Chicago Press, chicago 1971, Vol II).
17- Norman Daniel, Islam, Europe and Empire (The University Press Edin Burgh Colted, 1966).
18- P.M. Holt , The Age of The Crussads .
19- S.F.Mahmoud, The Story of Islam (Oxford Universty Press, Karachi, 1960) .
20 S.M.Imamuddin , Modern History of the Middle East and North Africa, Najmà & Sons, Dacca (East Pakistan) . 1960 .

٢- الدوريات الأجنبية

1- Andrew Ethenkreutz, " Strategic Implications of the State Trade between Geneoa and Mamluk Egypt in the Second Half of the Thirteenth Century ", in : A.L.Udawitch (ed) . The Islamic Middle East , 700 -1900, Studies in Economic and Social History (The Darwin Press, Princeton, 1981).
2- Andrew Hess , The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age the Oceanic Discovers (1453 - 1525) , American Historical Review, Dec. 1970 .
3- Androw Hess The Ottoman Conquest of Egypt and the Beginning of the Sixteenth Century World War, International Journal of Middle East Studies , 1973 .
4 - Halil Inalcik, The Question of The Emergence of the Ottoman State, Journal of Turkish Studies .
5- Dr. Hassanein Rabie, Political Relations Between the Safavids of Persia and the Mamluk of Egypt and Syria in the Early Sixteenth Century .
6-J.Saunders, The Problem of Islamic Decadence, Journal of world History, Vol 7 .No 3 .1963 .

اصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أولاً - سلسلة إسلامية المعرفة

- إسلامية المعرفة: المبادئ وخطة العمل، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- الوجيز في إسلامية المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل مع أوراق عمل بعض مؤتمرات الفكر الإسلامي، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). أعيد طبعه في المغرب والأردن والجزائر.
- نحو نظام نقدي عادل، للدكتور محمد عمر شابرا، ترجمه عن الإنجليزية سيد محمد سكر، وراجعه الدكتور رفيق المصري، الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لعام (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة)، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- نحو علم الإنسان الإسلامي، للدكتور أكبر صلاح الدين أحمد، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الغني خلف الله، (دار البشير/ عمان الأردن) (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- منظمة المؤتمر الإسلامي، للدكتور عبدالله الأحسن، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد العزيز الفائز، الرياض، (١٤١٠هـ/١٩٩١م).
- تراثنا الفكري، للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الثانية، (منقحة ومزيدة) (١٤١٢هـ /١٩٩١م).
- مدخل إلى إسلامية المعرفة: مع مخطط لإسلامية علم التاريخ، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- إصلاح الفكر الإسلامي، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- إسهام الفكر الإسلامي في الاقتصاد المعاصر، أبحاث الندوة المشتركة بين مركز صالح عبدالله كامل للأبحاث والدراسات/ بجامعة الأزهر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- ابن تيمية وإسلامية المعرفة، للدكتور طه جابر العلواني،الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

ثانيًا - سلسلة إسلامية الثقافة

- دليل مكتبة الأسرة المسلمة، خطة وإشراف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة) (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، للدكتور يوسف القرضاوي (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر)، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ثالثًا - سلسلة قضايا الفكر الإسلامي

- حجية السنة، للشيخ عبد الغني عبد الخالق، الطبعة الثالثة، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- أدب الاختلاف في الإسلام، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الخامسة (منقحة ومزيدة) (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- الإسلام والتنمية الاجتماعية، للدكتور محسن عبد الحميد، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

- كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط، للدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- كيف نتعامل مع القرآن: مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- حول تشكيل العقل المسلم، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الخامسة، (١٤١٣هـ /١٩٩٢م).
- المسلمون والبديل الحضاري للأستاذ حيدر الغدير، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- مشكلتان وقراءة فيهما للأستاذ طارق البشري والدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي، للأستاذ راشد الغنوشي، الطبعة الثالثة،(١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

رابعًا ـ سلسلة المنهجية الإسلامية

- أزمة العقل المسلم، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثالثة،(١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية: أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي،
  الجزء الأول: المعرفة والمنهجية، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).
  الجزء الثاني: منهجية العلوم الإسلامية، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
  الجزء الثالث: منهجية العلوم التربوية والنفسية، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- مجلد الأعمال الكاملة (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- في المنهج الإسلامي: البحث الأصلي مع المناقشات والتعقيبات، الدكتور محمد عمارة، (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، للدكتور عبد المجيد النجار، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ، للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل للأستاذ نصر محمد عارف، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

خامسًا ـ سلسلة أبحاث علمية

- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية (منقحة) (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- التفكر من المشاهدة إلى الشهود، للدكتور مالك بدري، الطبعة الثالثة، (منقحة) (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- العلم والإيمان: مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة

الثانية (منقحة) (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

- فلسفة التنمية: رؤية إسلامية، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- روح الحضارة الإسلامية، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ضبطها وقدم لها عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، للدكتور عبد المجيد النجار، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

سادساً ـ سلسلة المحاضرات

- الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

سابعاً ـ سلسلة رسائل إسلامية المعرفة

- خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، للدكتور طه جابر العلواني، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، للأستاذ محمد المبارك، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م).
- الأسس الإسلامية للعلم، للدكتور محمد معين صديقي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م).
- صياغة العلوم صياغة إسلامية، للدكتور اسماعيل الفاروقي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، للدكتور زغلول راغب النجار، (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م).

ثامناً ـ سلسلة الرسائل الجامعية

- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للأستاذ أحمد الريسوني، (١٤١١هـ/١٩٩٠م)، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة للأستاذ فادي إسماعيل، الطبعة الثالثة،(١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، للأستاذ محمد محمد إمزيان، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- المقاصد العامة للشريعة: للدكتور يوسف العالم، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، للأستاذ نصر محمد عارف، الطبعة الثالثة،(١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- القرآن والنظر العقلي، للدكتورة فاطمة إسماعيل، الطبعة الثانية،(١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، للدكتور عبدالرحمن زيد الزنيدي، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، للدكتور راجح الكردي، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).
- الزكاة: الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، للدكتورة نعمت عبد اللطيف مشهور،

(١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، للدكتور سليمان الخطيب، (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).
- الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفياض، الطبعة الثالثة (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- الأمثال في الحديث الشريف، للدكتور محمد جابر الفياض، (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
- تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية، للأستاذ إبراهيم العُقَيْلي، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

تاسعًا - سلسلة المعاجم والأدلة والكشافات

- الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم، للأستاذ محيي الدين عطية، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- الكشاف الموضوعي لأحاديث صحيح البخاري، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- الفكر التربوي الإسلامي، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- قائمة مختارة: حول المعرفة والفكر والمنهج والثقافة والحضارة ، للأستاذ محي الدين عطية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، للدكتور نزيه حماد ، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- دليل الباحثين إلى التربية الإسلامية في الأردن، للدكتور عبد الرحمن صالح عبدالله، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- دليل مستخلصات الرسائل الجامعية في التربية الإسلامية بالجامعات المصرية والسعودية، للدكتور عبد الرحمن النقيب، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- الدليل التصنيفي: لموسوعة الحديث النبوي الشريف ورجاله، إشراف الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، (١٤١٤هـ/١٩٩٤).

عاشرًا - سلسلة تيسير التراث

- كتاب العلم، للإمام النَّسائي، دراسة وتحقيق الدكتور فاروق حمادة، الطبعة الثانية ، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

حادي عشر - سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير

- هكذا ظهر جيل صلاح الدين.. وهكذا عادت القدس، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة) ، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

ثاني عشر - سلسة المفاهيم والمصطلحات

- الحضارة - الثقافة - المدنية «دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم» للأستاذ نصر محمد عارف ، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الموزعون المعتمدون لإصدارات المعهد

المملكة العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي ص. ب. 55195 الرياض 11534 -
هاتف: 465-0818 (966-1) فاكس: 463-3489 (966-1)

المملكة الأردنية الهاشمية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص. ب. 9489 - عمان
هاتف: 639-992 (962-6) فاكس: 611-420 (962-6)

لبنان: المكتب العربي المتحد ص. ب. 135788 بيروت.
هاتف: 807-779 (961-1) 860-184 (961-1) فاكس: 478-1491 (212) C/O

المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع، 4 زنقة المامونية الرباط
هاتف: 723-276 (212-7) فاكس: 200-055 (212-7)

مصر: دار النهار للطبع والنشر والتوزيع، 7 ش الجمهورية عابدين - القاهرة
هاتف: 3406543 (20-2) فاكس: 3409520 (20-2)

الإمارات العربية المتحدة: مكتبة القراءة للجميع ص.ب. 11032، دبي (سوق الحرية المركزي الجديد)
هاتف: 663-901 (971-4) فاكس: 690-084 (971-4)

شمال أمريكا:

- أمانة للنشر

AMANA PUBLICATIONS
10710 Tucker Street Suite B, Beltsville, MD 20705-2223
Tel. (301) 595-5777-(800) 660-1777 Fax: (301) 595-5888

- السعداوي للنشر

SA'DAWI PUBLICATIONS
P.O.Box 4059, Alexandria, VA 22303 USA
Tel: (703) 751-4800. Fax: (703) 571-4833

- خدمات الكتاب الإسلامي

ISLAMEC BOOK SERVICE
2622 East Main Street, Plainfield, IN 46168 USA.
Tel: (317) 839-8150 Fax: (317) 839-2511

بريطانيا:

- المؤسسة الإسلامية

THE ISLAMIC FOUNDATION
Markfield Da'wah Center, Rutby Lane Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244-944/45 Fax: (44-530) 244-946

- خدمات الإعلام الإسلامي

MUSLIM INFORMATION CENTRE
223 Seven Sisters Rd. London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272-5170 Fax: (44-71) 272-3214

فرنسا: مكتبة السلام

LIBRAIRE ESSALAM
135 Bd. de Menilmontant. 75011 Paris
Tel: (33-1) 43 38 19 56 Fax: (33-1) 43 57 44 31

بلجيكا: سيكومبكس

SECOMPEX. Bd. Mourice Lemonnier; 152
1000 Bruxelles Tel: (32-2) 512-4473 Fax (32-2) 512-8710

هولندا: رشاد التصدير

RACHAD EXPORT, Le Van Swinden Str. 108 11
1093 Ck Amsterdam Tel: (31-20) 693-3735 Fax (31-20) 693-8827

الهند:

GENUINE PUBLICATIONS & MEDIA (Pvt.) Ltd
P. O. Box 2725 Jamia Nager New Delhi 100025 India
Tel: (91-11) 630-989 Fax: (91-11) 684-1104

المَعهَد العَالَميّ لِلفِكر الإِسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانيَّة وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:

- عقد المؤتمرات والندوات العلميّة والفكريّة المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلميّة والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية الإسلامية والغربيّة وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH



هــذا الكتــاب

جزء من عمـل ضخم استغرق إنجازه ما يزيـد عن عشر سنوات وشـارك فيه فريق مكون من **سبعة وعشـرين أستاذاً وباحثاً** من المتخصصين فى العلاقات الدوليـة والقانون الدولى والتاريخ الإسلامى والعلوم السياسية ، يتحاورون ويتدارسون قضايا العلاقات الدولية فى الإسلام فى اجتماعات شهرية ونصف شهرية .

وقد أثمر هذا الجهد إنتاجاً أكاديمياً متميزاً فى أربعة مجالات هى :

- أصول وقواعد ومناهج التعامل مع المصادر الإسلامية عند التنظير للعلاقات الدولية فى الإسلام (**الأجزاء : الأول والثانى والثالث**) .
- العلاقات الدولية كما يمكن استباطها من الأصول الإسلامية : القرآن والسنة وخبرة الخلفاء الراشدين (**الأجزاء : الرابع والخامس والسادس**) .
- العلاقات الدولية فى التاريخ الإسلامى (**من الجزء السابع وحتى الثانى عشر**) .
- العلاقات الدولية فى الفكر السياسى الإسلامى (**الأجزاء:الثالث عشر والرابع عشر**)
- وسوف يتم اختصار هذا المشروع ، واستخلاص أفكاره فى صورة كتاب دراسى يكون صالحاً للتدريس فى الجامعات .

ويمكن القول ـ دون مبالغة ـ أن هذا الإنتاج هو الأول من نوعه فى هذا المجال وفى جميع العلوم الإجتماعية والإنسانية فى الدول العربية والإسلامية ، لذلك لا يجب الوقوف عنده وإنما ينبغى أن يكون بداية لانطلاقة بحثية تسير على منهجه ، وتجاوزه وتبنى على قضاياه ، وتفرع عليها ، وتعمق جزئياته ، وتستدرك عليها . بل أن خطته ومنهج تناوله ينبغى أن يكرر فى علوم وتخصصات إجتماعية أخرى .

